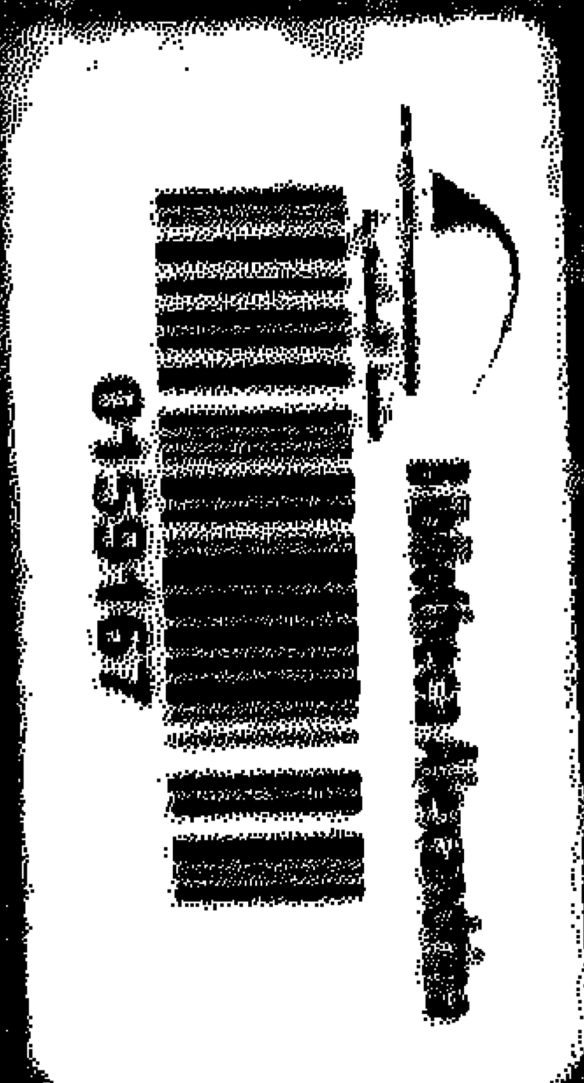


عبد الله النديم
خطيب الثورة العرابية

بقلم
نجيب توفيق

الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٤

مع اضافات وتعديلات جديدة

تقديم المؤرخ الوطني الكبير المرحوم
عبد الرحمن الرافعي

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي
٩ شارع الصنادقية بميدان الأزهر
ت ٩٣١٢٩٦

تقديم

تحتل شخصية عبد الله النديم مكانة عليا فى تاريخ الثورة العرابية . وفى التاريخ القومى عامة . فلقد اشربت نفسه روح الثورة منذ نشأته الأولى . واعتنق الحرية وتمسك بها طول حياته . فكان من روادها ومن شهدائها الأبطال . انضم إلى الثورة بقلبه ولسانه وروحه وجنانه . وكانت مواهبه فى الترسل والشعر والكتابة وقوة الذاكرة والقدرة الخطابية قد زادته تعلقا بالثورة . فكان خطيب الثورة العرابية غير منازع . وصار من زعمائها المعدودين : كانت خطبه الحماسية وقودا للثورة وكانت له المنزلة الكبرى عند عرابى وزملائه . ظل وفيا للثورة ومبادئها حين نجاحها . وبعد هزيمتها واخفاقها . والوفاء للثورات بعد هزيمتها دليل على قوة العقيدة والإيمان . فلا غرو أن كان عبد الله النديم بطلا من أبطال الحرية . لم يستسلم للأعداء بعد الهزيمة وعلى الرغم من أن الحكومة بإيعاز من الإحتلال قد تعقبته وسعت إلى القبض عليه ورصدت مكافأة مالية قدرها ألف جنيه لمن يرشدها عنه فإنه ظل مختفيا عن أنظارها يتنقل فى مختلف الجهات زهاء تسع سنوات . ولما توصلت إلى مكان اختفائه لم يهن ولم يضعف . وظل على ولائه للثورة ومبادئها . يحارب الإحتلال ويدعو إلى الإستقلال . واحتمل فى سبيل ذلك ما احتمل من الشدائد والمتاعب . ونفاه الإحتلال وأبعده عن البلاد . فظل رغم النفى والغربة مدافعا عن حرية البلاد وكرامتها وهو الزعيم الوحيد بين زعماء الثورة العرابية الذى استمر فى جهاده السياسى ونضاله عن مصر فى عهد الإحتلال . وهى ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية . أما النديم فقد ظل على عهده واستمر

يجاهد ويناضل حتى آخر نسمة من حياته . وهذا يدلك على مبلغ نمو نفسه وقوة شخصيته .

ولقد وفاه الأستاذ الأديب نجيب توفيق حقه من التقدير والتكريم فى كتابه القيم (عبد الله النديم خطيب الثورة العرابيه) فأرخ له تاريخا صادقا نابضا بالحياة ، وتتبعه فى كافة مراحل حياته فى نشأته الأولى ، ثم فى مناصرته للحرية وانضمامه إلى الثورة العرابية ودفاعه عنها ، ثم فى إخلاصه لها بعد إخفاقها واستمراره على كفاح الإحتلال ومحاربته .

كان ذلك بأسلوب شيق جذاب ، وبروح الباحث المحقق الذى يتحرى الصدق والإسهاب فيما هو بسبيله . فجاء كتابه من خير ما أخرج للناس فى تصوير هذه الشخصية العظيمة التى كان لها الفضل الأول فى الكفاح القومى . فللأستاذ الأديب نجيب توفيق خالص الشكر على تاريخه لهذا البطل الشهيد وتسجيله لمواقفه الرائعة فى الكفاح من أجل حرية الشعب واستقلاله ؟ .

عبد الرحمن الرافعى

القاهرة فى ١ / ٩ / ١٩٦٣

مقدمة

ليست هذه الصفحات عن قائد مظفر ، أو سياسى داهيه ، أو أحد أصحاب العروش ممن دوخوا الممالك والأمصار ، ولكنها عن رجل مصرى ، انبعث من غمار الشعب ، من الطبقة العامة فيه ، وعانى وذاق مما تعانيه من فقر ومسغبة وحرمان ..

عاش على أديم هذا الوادى الظليل ، وروى من ماء نيله ، وتغذى من ثمار أرضه ، وتنسم أهويته ، وإتصلت أسباب الحب والوفاء له ، ونقشت على قلبه صووة هذا الوطن بآلامه وآماله بأهليه ظالمهم ومظلومهم ، مترفهم وبائسهم ، وعاش بهذا القلب حتى آخر نسمة من حياته .

إرتفع إلى مصاف الزعماء والقادة ، فلم يبطره المجد ، ولم نفتنه عن غاياته وأهدافه من رفع مستوى الشعب الإجتماعى ، وبعث وعيه الوطنى ، والعمل على تعليمه وتنويره ، وأجتمعت له فى حياته ميزتان ، تقدير عظماء الرجال وأقطاب البلاد ، وحب الشعب والإلتفاف حوله فوجه الأولين ، وعلم الآخرين :

لم يعتمد فى فجر حياته على بيئة عظيمة يتربى فى أكنافها ، توفر له مايتزود به من علم ورعاية وجاه ، ولكنه بعد أن سلخ عهد الطفولة والصبا فى جو قاتم ، وارتقى إلى مراتب الفتوة والشباب ، علم نفسه ، فدرس وبحث وكتب وطالع ، فرضت عليه عبقريته أن يركب المصاعب ، ويصقل عقله ، ويهذب نفسه ، وفكره . حتى غدا الأديب الكبير ، والشاعر والزجال الشهير ، والخطيب الذى اهتزت له أعواد المنابر وصاحب أول صوت جمهورى لا فى مصر فحسب بل فى الشرق بأسره ، فكان بذلك زعيم مدرسة الخطابة فى الشرق العربى .

إختط لنفسه طريقا شاقا . وآثر فى حياته الكفاح والإحتمال ، والصبر على المكاره فكافح الظالمين ولم يعن للغاصبين ، فلقى النفى والظلم ، واستهدف لحرب شعواء فكان بذلك بطلا من أبطال حرية الفكر ومصلحا من قادة الشعوب وحملة المشاعل وأصحاب الرسالات الإنسانية العليا .

كانت حياته غريبة ، وظروفه عجيبة ، فقد مارس أعمالا متباينة ، وعانى فى عيشه ألوانا من العيش مختلفة ، وسلك سبلا من إيسار وإعسار .فبينا هو العامل الصغير فى إحدى الدوائر الكبيرة ، إذ هو التاجر الذى يجعل من متجرة ندوة للأدب . وبينا هو نديم الملوك وسمير العظماء ، فإذ هو الزجال الشعبى ، الذى ينثر لآلىء أزجاله على الناس ويلقى الطرف الرائعة ، من نادر الحكم ، وجليل الأمثال وبارع الدعابات وجميل القصص فيتلهف الشعب المحروم على الإستماع له ، وإشباع جوعه الروحى فكان بذلك صاحب مدرسة خطيرة للأدب الشعبى الذى يعمل على ترقية ذوق الجماهير الأدبى .

وبينا هو مدير أول مدرسة أهلية تديرها أول جمعية خيرية إسلامية بالبلاد فهو الممثل الناجح الذى مارس التمثيل وعلمه ، وشاهد الشعب تمثيلياته ، الوطنية الرائعة من مسرح زيزينيا بالإسكندرية ، فحازت إعجابه ، وإعجاب الملوك والأمراء .

وهو أيضاً الكاتب السياسى الكبير الذى أدار صحافة سياسية واجتماعية عظيمة بالبلاد — الصحافة التى صاحبت يقظة الشعب الكبرى ، ومهدت لها حتى إذا ما نمت وترعرعت أثمرت أول ثورة فى الشرق ، وهى الثورة العرابية ، ثورة مصر للتحرر من نير الظالمين .

إنه صاحب الأسلوب الرائع والقلم القوى الذى لايستغلق أمامه باب من

الأبواب للكتابة فيه ، معانيه متدفقة ، وآراؤه صائبة ، سرعان ما قفزت به ألمعيته ونباهته من زمرة الأدباء الناشئين إلى مركز الصدارة بين قادة الرأى العام ، وأصحاب الأقلام السيالة والصحف الشهيرة .

فهو إن طرق موضوعا ما سجل به فتحا جديدا فى الصحافة ، ساعده فى ذلك إطلاع وافر ، وذكاء نادر ، وتقص فريد، فى أحوال الشعب، ودراسة مشاكله الإجتماعية والإقتصادية ، والثقافية ، فكان بذلك أول كاتب إجتماعى ظهر فى مصر — إمتاز ببراعة تصويره وتحليله الآفات الإجتماعية ، التى يعانيها الشعب وعرضها عرضا صادقا دقيقا ، فكان الكاتب المفتن الذى يكتب ليصور للناس صور مجتمعهم من كافة الزوايا والأركان ، فيكشف بذلك ما كان محجوبا منها وراء الأستار .

هذا هو النديم زعيم نشأ من السفح وارتفع إلى القمة، تلقى الإرشاد والتوجيه من إمام زعماء الشرق قاطبة ، والفليسوف صاحب الفضل فى إنهاض الشعوب الشرقية جمال الدين الأفغانى — فكان رسوله الأمين وتلميذه المخلص لرسالته، ثم شاءت الصدف أن يرتشف من معين وطنيته ويتلقى إرشاده وخبرته فتى صغير ، غض الإهاب ، فى قلبه من حب مصر جذوة وعباب ، هو أبر الشباب بها . وأبقاهم على مر الأجيال والأعوام أثرا فى صفحات تاريخها ، ذلك هو الزعيم الشاب مصطفى كامل .

فكان النديم بذلك صاحب دور فريد فى تاريخ مصر فقد حمل رسالة أكبر زعماء الشرق ، وساعد فى توجيه أول زعيم سياسى بارز فى مصر وهو مصطفى كامل

كان رسولا لهداية الناس لمس شعورها فألهبها ، وطاف بالعقول فى سماء من الآمال بعهد تسود فيه الحرية ، وبحياة جديدة يحياها فى ظل الكرامة والمساواة

والإخاء فثملت القلوب بعذب أمانيه . ولهجت الألسنة بذكره ، واستعذبت الأسماع سحر أسماره ، وطلاوة أحاديثه .

أثار كوامنهم وألهب شعورهم بآلامهم من ظلم طويل ناءت به كواهلهم الأعوام الطويلة ، حتى إذا ما استبد بهم الشعور وتهيأت لهم الظروف، إنطلقت ثورتهم الخالدة ، يقودهم فيها جيشهم الباسل بزعامة القائد الوطنى أحمد عرابى .. . ليتخلص إلى الأبد من نير سادته السادرين فى غيهم ومظالمهم .... وتدور عجلة الزمن بسرعة ... وتخفق الثورة ، وتضار البلاد بالإحتلال الإنجليزى ويهيم الأحرار فى مطاوى الأرض وتضيق ببعضهم السجون والمعاقل وينفى النديم نفسه فى اختفاء طويل دام تسعة أعوام ، ثم تدفعه مركبة الزمن للكفاح مرة أخرى فينتضى قلمه ويرفع صوته ويجاهر بمبدئه فى عهد كان الجبن مستوليا على ألسن عقدت من الخوف وأقلام أغمدت من الرهبة ، ومبادىء توارت من الخشية .

فلم ينحن للطغاة ، ولم يخشع للإحتلال ، وكان الصدى الباقى من ثورة الشعب الكبرى .. فضاق به الإنجليز ذرعا فهاج الحكام عليه فنفى ومات بعيدا عن وطنه الذى طالما أحبه وأفنى حياته وصحته فى سبيل حريته ورقيه ودفن فى قبر مجهول ....

وهكذا لم ينعم بثرى مصر التى أحبها . . .

ألا فليبق فى قلب كل مصرى مثوى طيب لذكراه العاطرة ....

الباب الأول

عصر النديم

(١) الحركة السياسية والفكرية فى مطالع القرن التاسع عشر

و (٢) الحركة السياسية قبيل ظهور النديم

و (٣) الحالة الإجتماعية

(٤) النشاط الثقافى فى القرن التاسع عشر

(٥) طبقات الشعب

عصر النديم

الحركة السياسية والفكرية فى مطالع القرن التاسع عشر

قبل أن نتكلم عن الحركة السياسية فى عصر النديم يجب أن نتقصى العوامل السياسية الأولى التى ساعدت على انتعاش الحركة الفكرية فى مصر الحديثة فى مطالع القرن التاسع عشر .

كانت مصر قبل الحملة الفرنسية تغط فى نومها وتكاد تكون صلتها بالعالم الأوربى شبه مقطوعة ، بل معدومة . وكان آنذاك فى نهضة شاملة ، وقد انتعشت الحركة الفكرية فى مطالع هذا القرن بسبب قيام الحملة الفرنسية على مصر وظهور محمد على ، فقد أثار دخول الفرنسيين ، اهتمام المصريين إلى ضرورة الإصلاح فى شتى دروبه ، من علم وأدب ودين وخلق وعادات وسياسة والاهتمام بسائر معانى الحرية الفكرية والنشاط العقلى .

ثم بدأ يتغير نظر المصريين إلى الحياة ، فأخذوا يفهمون أسماء جديدة كالحرية ونظم الحكم وحقوق الشعب ، لأن الحملة الفرنسية التى قادها نابليون كانت تتألف من أبناء الثورة الفرنسية ممن آمنوا بالحرية والإخاء والمساواة . وكان من نتيجة اتصالهم بالأهالى فهم هذه المعانى الجديدة ، وكان هذا الفهم بمثابة الضوء الأول الذى ظهر فى ظلام الحياة المصرية وبصر المصريين بحالهم . وما هم فيه من ظلم وعبودية وجهل .

وقد ساعد الفرنسيون كذلك على إنهاض الحركة الفكرية والأدبية فى البلاد ، فقد أدت بحوثهم إلى الكشف عن اللغة الهيروغليفية ، ثم دراسة مشروع قناة السويس ، ثم إحضارهم مطبعة عربية ، وكان ذلك أول عهد البلاد بها .

وكانت مصر آخر دول الشرق معرفة بها ، كما نحا الفرنسيون بالصحافة الأولى التى أنشأوها نحوا يرتبط بمصالحهم فأنشأوا جريدتين باللغة الفرنسية ، أولاها إخبارية خالصة وهى . Le Courriere de L, Egypte

والثانية علمية خالصة وهى La decade Egypticnne

صدرا سنة ١٧٩٨ ، ثم أصدر مينو مرسوما بإصدار جريدة عربية إسمها التنبيه سنة ١٨٠٠ ، ولكن لم تصدر سوى سلسلة التاريخ التى قام بتحريرها السيد اسماعيل الخشاب وهى سجل يضم محاضر جلسات الديوان وبعض الحوادث الهامة.

كما عنى الفرنسيون بالشئون الصحيه فأنشأوا المحاجر الصحية وأدخلوا نظام سجلات المواليد والوفيات واهتموا بشئون الصحة العامة.

أما الوعى السياسى فقد تم غراسه الأول حين أدخل نابليون أول نظام نيابى يشترك فيه الأهالى فى حكم البلاد وهو « الديوان » وهو هيئة حكومية إشترك المصريون فيها لأول مرة فى تاريخهم الحديث ، ومارسوا بواسطتها أول مراحل فن الحكم ، وكان ذلك خطوة إيجابية نحو تكوين وعيهم السياسى الوطنى ، الذى كان ينقصهم ليدفعهم إلى الكفاح من أجل الإستقلال .

وكان من نتائج الحملة الفرنسية ، أن تفتحت أعين العالم الخارجى إلى مصر ، لما نشره الفرنسيون من كتب عديدة تكشف نواحيها التاريخية والجغرافية فوفد إليها كثير من الباحثين والعلماء والسائحين .

وكانت الصحافة المصرية فى القرن الماضى معرضا جميلا للأفكار الحديثة التى وفدت إلينا عن الثورة الفرنسية ، وأداة صالحة لنقل هذه الأفكار — وخاصة ما كان منها ملائما للتفكير الشرقى — إلى المصريين وغيرهم من البلاد الإسلامية .

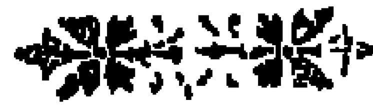
ولم يقصر قادة الرأى العام المصرى فى ذلك ، وبوسعنا أن نذكر بعض العبارات الرائعة والكتب الجميلة ، والصحف السيارة التى نشرت أفكار الثورة الفرنسية على يد كل من رفاعة رافع الطهطاوى والسيد / جمال الدين الأفغانى وأديب إسحق وعبد الله النديم فهذا هو رفاعه الطهطاوى يسافر فى بعثة إلى باريس ويشاهد ثورة الشعب الثانية على الملك شارل العاشر فيكتب عما شاهده بتفصيل فى كتابه عن رحلته إلى فرنسا : « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ثم يترجم العهود التى أخذها الشعب الفرنسى على ملوكه من لويس ١٨ إلى لويس فيليب ، وهى العهود التى يطلق الفرنسيون عليها La Charte ثم يكتب فى كتب أخرى عن نظام الحكومة الفرنسية ومجلس النواب الفرنسى وكأنه فى ذلك يلتمس لوطنه أساوبا من أساليب الحكم ينبه قومه إليه .

ثم أتى بعد الطهطاوى ، صحفيون كانت مهمتهم التوفيق بين مبادىء الثورة الفرنسية ومبادىء الشريعة الاسلامية ، ومن الذين برزوا فى هذا المضمار أديب إسحق ، وكان شابا سوريا نهل من الثقافتين العربية والفرنسية ما أعده لأن يكون صحفيا ناجحا وأديبا من الطراز الأول — أتى إلى مصر وعاش بها حتى نشر أكثر من صحيفة . ثم نفى منها إلى باريس حيث نشر جريدة مصر القاهرة ، ومنها تحدث إلى المصريين عن الثورة الفرنسية ووفق فى إفهام المصريين بعض معانى الثورة بأسلوبه الرائع البديع ، الذى يفيض بالقوة والحياة واستطاع أن يوضح لهم المعانى الحقيقية لكلمات الوطن والوطنية والأمة والحرية والمساواة والدين والدولة ووجوب الفصل بين الأخيرين . كما استطاع توجيههم إلى أدوات الكفاح السياسى والقومى والعلمى ، ودعا إلى مجانية التعليم ووجوب نشره وباختصار نقل إلى المصريين خلاصة طيبة لمبادىء الثورة وأفكارها ونتائجها .

عبـد الله أبو السعود :

هو أيضا من المواطنين الذين أسهموا فى تلقين النفوس معانى الوطنية، وكان تلميذا للطهطاوى ، ونقل إلى العربية تاريخ مصر ومهده بمقدمه شرح فيها حب الوطن ، فهو شيء أعلى من التعلق بمسقط الرأس ، فإنه يقوم على حب الوطن والعمل الجيد والرغبة فى التعاون - وعلى روح التضحية فى سبيل الخير العام .

وكذلك حسين المرصفى : ونراه من كتاب الوطنية الذين حاولوا ايضاح المفاهيم القومية ففى مؤلفه « الكلم الثمانية » يفسر الكلمات التى كانت تشغل أذهان الطبقة النيره . مثل كلمة الوطن والحرية والحكومة . . . . الخ .



الحركة السياسية قبيل ظهور النديم

كانت مصر قبيل ظهور النديم في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، مسرحا لألاعيب السياسة فهي فريسة الشد والجذب بين مطامع الدول الأوربية، وأهواء الباب العالي، وأثرة الأسرة الحاكمة. وكان الخديو إسماعيل آنذاك في أواخر أيام حكمه، وقد ناءت البلاد بظلم حكومته المطلقة وإرهاقها الأهالي بالضرائب والأحكام الجائرة.

ومنذ إنشاء قناة السويس، وافتتاحها رسميا سنة ١٨٦٩، وهي أهم طريق للمواصلات بين الشرق والغرب، وأعين المطامع الاستعمارية متفتحة متربصة تلتمس الفرصة للإنقضاض على استقلال البلاد.

وكان في انجلترا في منتصف القرن الـ ١٩ حزب سياسي حر، يخشى على الإمبراطورية من زيادة اتساعها وتشتت ممتلكاتها، ويحارب الفكرة الاستعمارية ولكن منذ تم إنشاء قناة السويس وربطت أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض وتكونت الجمعيات الجغرافية في أوربا، وكثرت الإكتشافات في القارة الأفريقية عدل هذا الحزب رأيه

ومنذ ذلك الوقت أخذت انجلترا وفرنسا تتنافسان في استغلال مصر ووضع اليد عليها، وقد شجعهما على ذلك ظهور إسماعيل بمظهر من لا يحسب حسابا للعواقب وأخذ يفتح باب الإستدانه على مصراعيه، فكانوا يفرضونه بأفحش أنواع الربا.

وقد وضح الكاتب الإنجليزي سموركي سنة ١٨٨٢ بأن مصر كانت قد دفعت حتى هذا العام جميع ديونها الحقيقية — أي المبالغ المقترضة حقيقة وبفائدة

٦½ ٪ ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمى لا يقل عن الـ ٩٠ مليونا من الجنيهات . وقد أدت هذه الديون التى لا موجب ولا ضرورة لها ، إلى تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية .واختلت الإدارة أكثر من ذى قبل ووضحت نية التوم ، وقلق المصريون على مستقبلهم ، وقد تجلى هذا القلق إبان الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ، وهنا نذكر ما كتبه الإمام محمد عبده فى مذكراته عند ذكره جمال الدين وإثارة النهضة المعنوية فى مصر قال :

« وكان طلبة العلم . . . وطلبة جمال الدين ينتقلون بما يكتبون من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة . والزائرون يذهبون بما ينالون إلى أحيائهم فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول . وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد ، خصوصا القاهرة ، كل ذلك والحاكم القوى فى علو مكانه أرفع من أن يناله هذا الشعاع فى ضعف شأنه ، ولا يزال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطىء ، وينتشر فى الأنحاء على غير نظام ، إلى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فى سنة ١٨٧٧ ووجد الناس من أنفسهم لذة الإطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسيا ـ فتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب — وكثرة الأجانب فى هذه البلاد — سهلت ورود الجرائد الأوربية إلى طلابها منهم ، ومخالطتهم للعامة والخاصة ، مهدت الطريق إلى العلم بما فيها .

وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية ، فخرجت عما درجت عليه من التحرير فى الأمور الداخلية البحتة ، وانطلقت فى إيراد الحوادث فوجد بين الناس الناقم على تلك الجرائد والمناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها فى نشر الأخبار ، ومناوأتها فى المشرب .

ولم يكن ما ينشر في الجرائد محصورا في حوادث الحرب ، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما أصبحت عليه سائر الأمم في سيرتها السياسية والمعاشية مما فتح الأذهان وأيقظ الأفكار ونبه العقول ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدا في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وأخذ السيد جمال الدين في حمل من يحضر إلى مجالسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول فتسابق إلى ذلك الكتاب ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد وكان هذا التاريخ (سنة ١٨٧٧) منشأ ظهور حركة المعارضة وصحافتها في البلاد ومن يطلع على أعداد جريدة مصر والتجارة ومرآة الشرق والأهرام يرى حقيقة ما ذكرناه .

وقد يتوهم بعض المؤرخين أن اهتمام المصريين بالحرب الروسية التركية يرجع إلى شعورهم الديني وتعلقهم بدولة الخلافة التي كانت مهددة حينئذ بالإضمحلال والواقع الذي لا شك فيه ، أن اهتمامهم كان سياسيا أكثر منه دينيا ، لأن تقسيم الإمبراطورية العثمانية كان معناه وقوع مصر في قبضة انجلترا .

ثم بدأت الصحافة العربية السياسية تظهر ، وبدأ الرأي العام يقوى أمام ضعف إسماعيل إزاء التدخل الأجنبي ، ووجدت البلاد حركة قومية دستورية ، ترمي إلى تقييد سلطة الحكومة المطلقة ، التي كانت في الداخل رمز بطش وجبروت وفي الخارج رمز ضعف وإستكانة ، وإلى إصلاح داخلية البلاد وماليتها لتخليصها من ربقة الأجنبي ، وكانت الفكرة الدستورية تستمد قوتها من العوامل الآتية:

(ا) وجود مجلس نواب صوري سنة ١٨٦٦ كان آلة في يد إسماعيل فلما تطورت الأحوال أراد المصريون توسيع سلطة المجلس وإعطائه حق الرقابة الفعلية على أعمال الحكومة .

(ب) بعث جمال الدين الأفغانى فى نفوس المصريين منذ وفوده إلى مصر سنة ١٨٧١ فكرة إقامة نظام دستورى لعلاج أحوال الشرق المقبلة .

(ج) تمادى الأجانب فى أطماعهم وسطوهم على حقوق البلاد ، لأن إسماعيل لا يعتمد على حكومة شعبية مرتكزة على الأساس الدستورى ، وبالتالى فهى حكومة ضعيفة تعمل لمصلحة حاكم مستبد .

(د) كان للبعثات المالية الإنجليزية التى وفدت إلى مصر فى الفترة من (١٨٧٦ — ١٨٧٩) أسوأ الأثر فى التشهير بسوء إدارة إسماعيل والنيل من روح ولاء المصريين نحوه ، حتى يضعف إخلاصهم له ، ويسهل للأجانب اغتصاب السلطة منه .

وقد لعبت بعثة السير ريفرز ولسن (١٨٧٨) الدور الأكبر فى هذه السياسة فنددت فى الأقاليم المصرية بأعمال إسماعيل وطلبت من المصريين أن يقدموا ظلاماتهم إليها ، ثم صرحت فى تقرير لها أن الحكم المطلق أصل البلاء ، وحملت إسماعيل بمرسوم صدر فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٨٧٨ على إنشاء مجلس وزراء متضامن فى مسئوليته ، برئاسة نوبار وعضوية ريفرز ولسن وزيرا للمالية ودى بالنيير وزيرا للأشغال .

وكانت هذه الوزارة تنفذ أغراض إنجلترا السياسية والمالية ، فقضت على سلطة الحاكم الشرعى وانفردت بالأمر .

وكان أكبر همها الحصول على المال بكل الوسائل ، إرضاء للماليين الذين مهدوا للساسة سبيلهم ، وقد عنيت الوزارة الأوربية بحشد الموظفين الأجانب فى الحكومة المصرية ، وحرمت الإدارة من المال اللازم ، وبالجملة فقد زادت الأمور إختلالا لم تعرفه مصر من قبل .

وقام مجلس النواب فى أول سنة ١٨٧٩ يطالب بتقرير حقوقه من حيث عرض القوانين المتعلقة بالشئون المالية عليه ، ووجوب موافقته عليها قبل تقريرها، وذلك إعتراضا على اغفال المجلس فى المرسوم الصادر فى ٦ يناير سنة ١٧٧٩ الذى يقضى بأن القوانين المتعلقة بالشئون المالية تصبح نافذة بعد تقريرها من مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديو فقط .. وقد تقدم بهذه المطالبة النائبان محمود بك العطار وعبد السلام المويلحى ، وقامت الصحافة المصرية تؤيد هذه الحركة وتطالب بمبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب لا أمام إنجلترا وفرنسا .

وقامت فى الوقت نفسه خارج المجلس حركة معارضة قوية برئاسة شريف باشا وأخذت تطالب بانشاء وزارة دستورية بحته ، مسئولة أمام مجلس النواب وقد تألفت هذه الوزارة فى ٧ / ٤ / ١٨٧٩ .

ونخلص من هذه العجالة أن مصر فى تلك المرحلة العصيبة من تاريخها كانت تعانى من تدخل الأجانب وتغلغل النفوذ الاستعمارى فى جميع مرافقها سواء كانت أهلية (شركات) أو حكومية حيث كانت الإدارة المصرية فى أيدى الاوربيين ، وترك اسماعيل البلاد سنة ١٨٧٩ وهى مثقلة بالديون ، مما جرح المصريين فى عزتهم القومية ، فأعلنوا تعهدهم بسداد هذه الديون بشرط أن يتولوا هم حكم بلادهم ، مع قبولهم الرقابة الأجنبية على أن تكون قاصرة على النواحى المالية فقط ، ولكن عبثا حاول المصريون فى أواخر حكم اسماعيل التخلص من النفوذ الأجنبى ، لأن الإنجليز كانوا أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد حتى أوائل حكم توفيق .

الحالة الإجتماعية

تطلع المصريون إلى الغرب من زاوية السياسة ، فوقعت أبصارهم فيه على المعانى الجديدة لحرية الفرد وحقوقه ونظام الحكم ، وتطلعوا اليه من أفق الاجتماع فاسترعت انتباههم حضارته المتألقة ، وعاداته البراقه ، فاندفعوا يعبون من أنوار مدنية جديدة ، استحوذت على ألبابهم وأفكارهم ، فأغفلوا الملابس الشرقية كالجبة والعمامة ، وارتدوا الطربوش والبدلة الأفرنجية ، وتضاءلت الأزياء القديمة وحلت محلها الأزياء الأوربية ، ودخلت العادات الأوربية فى أساليب المآكل والولائم ، فأخذ الناس يمدون الموائد ، ويتناولون طعامهم على النمط الأفرنجى ، واستتبع ذلك بالأسف محاكات الأجانب فى تناول المشروبات الروحية ، فعم فى المجتمع المصرى الفساد ، وصارت الخمور من شر الآفات التى ابتلى بها .

وانصرفوا فى فن البناء عن الأطرزه العربية الجميلة ، التى كانت متعه النواظر ، إلى احتذاء الهندسة الأوربية ، التى توفر لهم انظمتها أسباباً من الراحة ، ومال الشباب فى أوقات فراغهم عن الجمود والقعود ، إلى الألعاب الرياضية ، يزاولونها ويقضون فيها الساعات الطوال ، وتخلق الناس بالأخلاق الغربية ، فى أحاديثهم وندواتهم ، وعكفوا على اللغات الأجنبية يتحدثون بها ، أو يمزجون طرفاً منها باللغة العربية تأنقا .

وخرجت المرأة كذلك عن العادات الشرقية المأثورة ، وتراخى حبل المحافظة على العادات والسجايا العربية ، واندفع الناس فى تيار التقليد المقوت

للغربيين ، يأخذون منه الغث والسمين ، مفتتنين بالجديد ، حتى غرقوا فى موجة التفرنج ، التى امتدت إلى أصول الأخلاق فوصمت بها ، حتى أصبحت المقامرة والمضاربة بالمال عادة مستحكمة ، والرشوة والمحاباة داءا دويا فى جسم المجتمع ، وحتى كاد التأنق عند بعض الشبان ينقلب إلى لوثة من الرقاعة والفساد ، فأفاق العقلاء من غفوتهم ، وانتقى المصلحون أقلامهم يدرأون عن أبناء الوطن هذا الوباء الجارف .

وأقبلت الطبقات الممتازة على حضور المسارح ، ومشاهدة التمثيليات ، وزاد إقبال الناس على الموسيقى والغناء ، وارتقت أساليب الأخير ، وزادت مكانة المغنين فى النفوس ، ونالوا من محبة الناس حظا عظيما ، وفى مقدمتهم عبده الحامولى الذى كان إمام المغنين فى عهده بلا منازع ، وابتدع الخديو إسماعيل سنة الرقص الأفرنجى ، فكان يقيم فى قصرى عابدين والجزيرة حفلات راقصة (بللو) بالغة الفخامة ، وكان يدعو إليها الكبراء وذوى المراكز الإجتماعية ورجال السلك السياسى وعقيلاتهم — وعنه أخذ بعض المصريين هذه السنة — ودخل الرقص الأفرنجى إلى مجتمعنا المصرى حتى يومنا هذا .

وكانت لحفلات الأفراح فى ذلك العصر بهجة بالغة ، فقد كان السراة والأعيان يفتنون فى تفخيمها وتعظيمها وينافسون فى مظاهر البذخ والإسراف فيها ، وعنهم أخذ كثير من أفراد الطبقتين المتوسطة والفقيرة ، فاستدانوا لأجل هذه الأغراض ، ووقعوا تحت طائلة الديون والارتباك المالى فى حياتهم الخاصة ، كما امتاز هذا العصر ببهجة الحفلات العلمية المدرسية التى كانت

تقــــام لمناسبة انتهاء الدراسة فى المدارس على مختلف مستوياتها .

وكان لحفـلات سباق الخيـل فى ذلك العصر ، من مظاهر الروعة ، جعل أفراد الطبقة الممتازة وغيرهم من طبقات الشعب يتسابقون إلى مشاهدتها بالعباسية ، واستمرت حفـلات الموالد الدينية والأعياد موضع إقبال الناس ورعاية الحــكام .



النشاط الثقافى فى القرن التاسع عشر

كان النشاط الثقافى فى الحقبة التى تعنينا من القرن التاسع عشر ظاهر الأثر ، وضاح الضرر ، فقد أينعت فيه غراس الحملة الفرنسية وظهرت ثمار البعثات العلمية التى نهلت من ينابيع الغرب ، وقام الأزهر بنصيبه من البعث والانطلاق والتجديد بعد الفتوى التى أصدرها الشيخ محمد الأنبابى شيخ الجامع الأزهر وأمن عليها الشيخ محمد البنا مفتى الديار المصرية بجواز (تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء والمعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف) .

ولقد كانت تلك الحقبة آهلة بالعلماء والأدباء والشعراء ، يدور انتاجهم إلا أقلهم فى فلك القديم ومحاكاته ، على أن طابع تلك الحقبة إنما يتجلى فى أمرين اثنين هما انتشار الصحافة وترجمة الروايات .

شهدت مصر فى سنة ١٨٦٥ ميلاد أول صحيفة مصرية بعد صحيفة « التنبيه » على عهد الفرنسيين وبعد الوقائع المصرية[١] على عهد محمد على[٢] ، تلك هى مجلة « اليعسوب » الشهرية ومنشئيها محمد على باشا الحكيم وابراهيم الدسوقى ، ومنذ ذلك التاريخ حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ذخرت مصر بالصحف والمجلات السياسية الأدبية أنشأها المصريون أو أصدرها الشاميون الذين هرعوا إلى وادى النيل ، واتخذوها ميدانا لتسابق أقلامهم .

---

(١) صدرت سنة ١٨٢٨ وحرر فيها أولا بالتركية ثم حرر فيها بالتركية والعربية على عهد الشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين .

(٢) أدب المقالة الصحفية فى مصر . الدكتور عبد اللطيف حمزه ج ١٠ ص ٢٧ .

نذكر من صحف المصريين « وادى النيل » — أنشأها أبو السعود سنة ١٨٦٦ « ونزهة الأفكار الأسبوعية » لإبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال ١٨٦٩ ولكن لم تعش إلا وقتا قليلا ، و « روضة المدارس » صدرت سنة ١٨٧٠ كتب فيها كثير من الأدباء والعلماء و « الوطن » لميخائيل عبد السيد أنشئت سنة ١٨٧٧ ، والمؤيد للشيخ على يوسف و «الأستاذ» للسيد/ عبد الله النديم أصدرها سنة ١٨٩٢ .

ونذكر من صحف السوريين : الكوكب الشرقى لسليم باشا حموى عام ١٨٧٣ ، والأهرام لسليم وبشارة تكلا سنة ١٨٧٥ ، والمقطم لصروف ونمر مكاريوس سنة ١٨٨٨ إلى كثير غيرها ما بين يوميه وأسبوعية وشهرية من مثل المقطم والهلال واللطائف ولسان العرب والبيان وأنيس الجليس الخ .

فجال هؤلاء وأولئك فى السياسة والأدب ، وأنشأوا فن المقال الصحفى ، وكان للشاميين أثرهم وفضلهم على الصحافة الشعبية المصرية .

أما الترجمة فيبدأ كذلك عهدها المنظم فى زمن الحملة الفرنسية .. فالمنشور الذى أمر بونابرت بتوزيعه على أهل الاسكندرية قد ترجمه « فنتورا» وطبعه المستشرق (حنا يوسف مرسيل) مدير مطبعة الحملة ، وقام بهذا العمل على ظهر الباخرة لوريان [1] » .

ثم تتسع دوائر الترجمة فى مصر طوال العقود الثمانية من القرن التاسع عشر ، ويقوم بها مستشرقون [2] وشرقيون ، يديرونها فى نقل الكتب العلمية والأدبية

---

(١) حركة الترجمة بمصر خلال القرن الـ ١٩ لجاك تاجر ص ٤

(٢) أوفد محمد على ثلاث بعثات علمية إلى أوربا ، فتكونت بذلك ثلاثة طبقات من =

والمحاضرات ، ويستخدمونها فى الأعمال الحكومية ، حتى كان الربع الأخير من ذلك القرن حتى اتسعت دائرتها أيما اتساع ، وتناولت مختلف الفنون والشئون ودارت اللغات الأجنبية على الألسنة ، وشجعت الحكومة الترجمة والمترجمين ، ونهض بها غير واحد من الأدباء ، ممن لم يعولوا فى نشر كتبهم المترجمة ورواجها إلا على الشعب ، فكسب العصر زادا طيبا من المعارف ، ما بين علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية وأدبية . وظفرت المكتبة العربية بنفائس من كتب الغرب .

وهاجر كثيرون من السوريين إلى مصر وانتظموا فى سالك الحكومة والتعليم فى المدارس المصرية ، ودخل كثير من نصاراهم مدارس الدعاة ، الذين كان أكثرهم من المستعمرين العارفين باللغة العربية ، فدرسوا العلوم وألفوا الكتب باللسان العربى ونبغ من مدارسهم رجال كانوا زهرة سورية ، وغلب عليهم الأدب والشعر والكتابة وترجمة الروايات الجديده ، واتخذوا ذلك صناعة يتكسبون منها .

غير أن العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، قد تميزا بترجمة القصص والروايات التمثيلية ، ولما كان فن التمثيل العربى فى مصر شامى الأرومة ، فقد مهره الأدباء السوريون واللبنانيون بطائفة صالحة من الروايات التمثيلية ، نقلوها من اللغة الفرنسية أو اللغة الانجليزية ، ثم شرعوا يعالجون التأليف ، فحذا

= العلماء والأطباء والمهندسين والضباط ، فنقلوا إلى اللغة العربية كثيرا من الكتب الجليلة فأحدث ذلك فى اللغة العربية انقلابا عظيما كما اكتسبت من سعة الأغراض والمعانى والألفاظ العلمية وطرق البرهنة والاستنباط ثروة طائلة ، ولما حاول أن يجعل اللغة التركية اللغة الأساسية فى الثقافة والتعليم والإدارة تعذر عليه ذلك ، فاضطر إلى مجاراة طبيعة البلاد فأصبحت اللغة العربية لغة كل ذلك وظهرت على اللغة التركية واللغات الأوربية التى كانت تدرس وجوبا معها .

حذوهم المصريون ، ترجمة وتأليفاً أو اقتباسا وتمصيرا ، كرواية « ترتوف » — نقلها عثمان جلال وسبكها فى قالب مصرى وسماها الشيخ متلوف .

ولم ينحصر نشاط المترجمين فى الروايات التمثيلية بل تعداه إلى مختلف ضروب القصص فلقيت هذه من الجمهور اقبالا كبيرا ، وتسربت المعانى والأساليب الإفرنجية إلى الأدب العربى ، شعره ونثره ، على أسنة أقلام المترجمين . يبرزها الضعيف فيهم فى ثوب ركيك مهلهل ، ويجلوها القوى الكفى فى برود قشب من الديباجة العربية .

ولقد كان لشيوع تعليم اللغات الأجنبية وجعلها ضمن المناهج العلمية الإجبارية فى مدارس الحكومة والجمعيات ومدارس الرهبان والدعاة ، أن انتقلت كثير من المعانى والأساليب الأوربية التى يقبلها الذوق العربى إلى اللغة العربية ، فأثرت بذلك ، وحصفت أفكار أهلها ، واتسعت اغراض القول فى وجوههم .

ولا يفوتنا أن نذكر أن من أسباب النهضة الأدبية الأخيرة إنشاء المحاكم الأهلية ، ونظام التقاضى والترافع أمامها باللغة العربية ، وكثرة الأندية والمحافل السياسية والأدبية والعلمية . وإحداث الشهادات الدراسية واعتبار الحصول عليها شرط فى خدمة الحكومة .

ويتمم صورة ذلك النشاط السياسى الثقافى فى تلك الحقبة ، توفر المطبعة الأميرية والمطابع الأهلية على إخراج نفائس الكتب العربية ، ثم ارتياد الناس المكتبات العامه . ينهلون من معينها ، وترددهم على المتاحف يرهفون بذلك أذواقهم ، ويصقلون ملكاتهم ، وازدياد عدد المتعلمين ممن يتخرجون من المدارس المصرية أو المدارس الأجنبية .

طبقات الشعب :

الأسرة الحاكمة : تفرعت الأسرة الحاكمة ، وكثر عدد أفرادها فى عهد خلفاء محمد على وصاروا يمثلون طبقة السادة والاقطاعيين فى المجتمع ، فابتنوا القصور الفخمه وعاشوا فى حياة كلها كسل ودعه ، فى غمار الخمول والملذات والرفاهيه ، على حساب هذا الشعب البائس المحروم ، ورغم أن محمد على اهتم بتنشئة انجاله وتعليمهم ، ولكن خلفاؤه قصروا فى الإندماج فى الشعب والاعتزاز بالإنتساب اليه ، فكانوا ينفرون من الاختلاط به ، واستعمال لغته ، ويتخاطبون إما بالتركية أو باللغات الأجنبية الأخرى ، وقد أفضى الأمر ببعضهم أن تنكر لهذا البلد بأسره ، وفضل المعيشة فى الخارج سواء فى الآستانة أو فى أوربا ، واعتبروا أنفسهم غرباء عن الشعب .

ثم بعد ذلك تشاحنوا فيما بينهم ، وسادت بينهم الفرقة والعداء ، وحسد الحاكم منهم باقى أفراد عائلته ، فعباس الأول كان يمقت سعيد وارث الملك من بعده ، وحنق على عمته حتى شرع فى قتلها ، وكان إسماعيل يسىء الظن بجميع الأمراء من آل بيته ، ولما مات عمه سعيد لم يرع الواجب والإحترام له ، فدفن بالإسكندرية بدون إحتفال ، بينما فى نفس الوقت أقيمت الأفراح فى القاهرة ايذانا باعتلائه عرش مصر ، ثم عادى اسماعيل أخاه مصطفى فاضل وعمه عبد الحليم حتى ارغمهما على بيع املاكهما واقصائهما عن البلاد نهائيا .

الموظفـون :

ارتفع مستواهم الثقافى عن ذى قبل ، وانحط مستواهم فى الوطنية والاخلاق

ورعاية مصالح الشعب ، وساءت الإدارة بانتشار الرشوة ومظالم الحكام ، واغتصاب الأملاك ، والبعث بحقوق ابناء البلاد .

طبقة الزراع والصناع والتجار :

ساءت أحوال الفلاحين ، بما زاد عليهم من ضرائب ، وما اقترن بالقسوة فى جمعها ، وظلت السخرة سائدة فى هذا العهد وسلبت الأراضى من أصحابها ، واستعبد صغار الفلاحين فى مزارع الحكام والأغنياء استعبادا بشعا . أهدرت به كرامتهم الإنسانية إهدارا مثيرا ، فكانوا يعملون لاستصلاح أطيان الخديو دون أجر — وكانت قاعدة الحكام فى معاملة الفلاحين هى العسف والإرهاق ، وكانت طريقة جباية الضرائب ، الإقتصاص بالضرب بالكرباج ممن يخالفون الأوامر ويتأخرون فى دفع المتأخرات عليهم . وكثيرا ما كان يقع غضب الحكام على الفلاحين العزل بغير ما ذنب أو جريرة — سوى شهوة الظلم والبغى واستلاب الحقوق ، ولم يكن ثمة قانون ولا قضاء عادل ، يحميان الضعيف وينصفان المظلوم — ولم تكن هنالك رقابة على الحكام من حكومة عادلة ، أو مجالس نيابية أو صحافة أو رأى عام كما وقع على الأهالى حيف آخر من ناحية المرابين من الأجانب ، إذ وجد هؤلاء من حسن رعاية الحكومة ومن حماية الامتيازات الأجنبية ما جعلهم يتمادون فى استغلالهم للفلاحين حتى انتزعوا منهم الأموال والأملاك ، وكبلوهم بالديون الباهظة ، ولم يتحرر الفلاح فى هذا العصر من الفقر والفاقة والجهل والانحطاط ، وظل يعيش عيشة الكد والكدح بأقل الحاجات والنفقات .

النهضة النسائية :

بدأت هـذه النهضة فى عصر إسماعيل ، فقـد أنشأت الزوجة الثالثة لإسماعيل « جشم آفت خانم أفندى) أول مدرسة بنات مصرية بالسيوفية وعينت السيده روز ناظرة عليها ، ولما زاد الإقبـال عليها ، اعتزمت انشاء مدرسة أخرى أعظم منها ، فبنت مدرسة كبيرة فخمة وقبل افتتاحها ، كان إسماعيل قد بارح القطر هو وزوجاته ، وأهمل شأن المدرسة وشغلتها الحكومة ببعض الدواوين ، ومكانها الآن تشغله « وزارة المواصلات » ثم أنشئت بعد ذلك المدارس المختلفة لتعليم البنات ، وبدأت المرأة تشترك فى النهضة الاجتماعية والأدبية ، وكانت « عائشة عصمت تيمور » طليعة هذه النهضة .

وكان لرفاعة رافع الطهطاوى فضل كبير فى الدعاية لتعليم المرأة ، وتتجلى فكرته من وضعه كتابا مشتركا لتثقيف البنات والبنين سماه « المرشد الأمين للبنات والبنين » سنة ١٨٧٢ . ثم كثرت ابتداء من منتصف القرن ١٩ مدارس البعثات الأوروبية . فأنشأت مدرسة راهبات الراعى الصالح بشبرا سنة ١٨٤٤ ، ومدرسة راهبات القديس منصور دى بول فى الموسكى سنة ١٨٤٥ ، ومدارس الجزويت سنة ١٨٧٨ ، ومدرسة الرسالة الفرنسيسكانية الإيطالية سنة ١٨٥٩ ، وكان لبعض هذه المدارس فروع فى المنصورة وكفر الزيات وطنطا والاسماعيلية ، وقامت هذه المدارس وما زالت تقوم إلى الآن بالاضطلاع بعبء تهذيب الفتاة وتربيتها .

التمثيل :

وقد بدأ المسرح المصرى فى الربع الإخير من هذا القرن يستقيم له كيانه ، وتفتح لتمثيل الروايات العربية بعض الأحيان أبواب الأوبرا ، ويعنى به الحكام ، وتألفت الفرق التمثيليه كفرقه يوسف خياط وسليمان القرداحى ، وأبى خليل القبانى واسكندر فرح ، ومال الكتاب إلى الفن المسرحى يغذونه بالمسرحيات المترجمه وأشهر هؤلاء نجيب الحداد .



الباب الثاني

حياة النـــديم

(١) نشأته الأولى

(٢) الأديب الشريد

(٣) نشاطه فى الاسكندرية

(٤) الثائر الهارب

(٥) فى المنفى الأول

(٦) عودته إلى مصر

(٧) نفيه الثانى وموته

(٨) أبو الهدى الصيادى

(٩) تأثره وتأثيره

(١٠) جمال الدين الأفغانى

الباب الثاني

حياة النديم

ولد الثائر العظيم « عبد الله بن مصباح بن ابراهيم الأدريسى » الشهير بالنديم فى يوم عيد الأضحى عام ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م بالإسكندرية .

وكان أبوه مصباح من قرية « الطيبة بمديريةالشرقية ، وحينما اشتد عوده انتقل إلى الإسكندرية ليعمل نجارا بالترسانة التى أنشئت فى عهد محمد على لبناء الأسطول البحرى الكبير ، وظل يشتغل عاملا بها حتى صدر من الباب العالى بتركيا فرمان سنة ١٨٤١ وكان من بنوده خفض(١) الجيش المصرى إلى ١٨ ألف جندى وإغلاق المصانع الحربية التى تمون الجيش ومن بينها ترسانة الإسكندرية .

فلما أقفلت الترسانة أبوابها فى وجه الشاب مصباح ومئات غيره من شباب البلاد،لم يشأ العودة إلى قريته ليعيش فيها معيشة المسغبة والحرمان شأن آبائه وأسلافه بعد أن عاش فى المدينة وتذوق نعمة الوظيفة بل استقر فى الإسكندرية . واتخذ مخبزا صغيراً يصنع فيه الخبز ويبيعه للمواطنين . وهكذا عاش هذا الرجل حياة بسيطة فقيرة،مسكن متواضع وملبس لا يراعى فيه إلا أن يؤدى أغراضه الضرورية فى حى وطنى فقير قريباً من حى القبارى بالاسكندرية يسمى « كفر عشرى » .

بعد أن استقر الحال بمصباح فى عمله الجديد وأحس نوعا من الطمأنينة تزوج ثم ولد له ابنه « عبد الله » وسنه إذ ذاك ٢٦ سنة .

---

(١) كان تعداد الجيش المصرى حسب إحصاء سنة ١٨٣٩ و٦١٦ و٢٧٧ جندى وبحار

نشأ الطفل فى حى من الأحياء الفقيرة ، وما أن شب وأصبح قادراً على التعلم حتى بعث به أبوه إلى «الكتاب» الموجود بقربة من مسكنه كما يفعل الناس من مثل طبقته يرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب زمنا ، يتلقون ثمالة من معلومات ، وقليلا من مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، وتجويد القرآن الكريم . وقد بدا على الصبى الصغير من الذكاء ما جعله بين رفاقه فى حفظ القران واستيعاب ما يتلقاه فى الكتاب قبل أن يبلغ التاسعة من العمر الأمر الذى شجع والده أن يتابع تعليمه فى مدرسة أرقى من هذا الكتاب ، وهى مدرسة جامع الشيخ ابراهيم باشا (الجامع الأنور)[1] عام ١٨٥٥ ولكن الطالب الذكى الذى عهدنا فيه نباهة الطفولة لم يستطع هضم ما كان يلقى عليه من دروس وذلك لخطة الدراسة العقيمة والكتب المعقدة وجمود العقلية المسيطرة على هذا المعهد وبقية المدارس الدينية الأخرى وقتذاك ، التى كانت تسير على أساليب القرون الوسطى .

وكانت الكتب التى تدرس فى هذا المعهد من نتاج العصور المتأخرة فقدت الروح وصارت شكلا لا حياة فيه . متون قصد بها أن تكون ملغزة لتأتى عليها شروح تفيض فى شرح ألفاظها ثم حواش تستدرج مافات الشارح ، ثم يأتى بعد ذالك التقرير أو التعليق ، وأكثرها مساجلات لفظية يضيع المعنى بينها ومعميات يصعب على طالب العلم حل ألغازها وأحاجيها .

وكانت الجمهرة العظمى من طلبة العلم الشريف لا يصبرون على هذا اللون من جفاف الدراسة ولا يتحملون العناء فى فهم كتبها المعقدة ، ويصيبهم

---

(١) أنشأ هذا المسجد الشيخ ابراهيم باشا سنة ١٢٤٠ هـ ووقف عليه الأوقاف الكثيرة وسماه « الجامع الأنور » ليضارع الجامع الأزهر فى القاهرة ورتب له العلماء يقرأون فيه الفقه والنحو والأصول والتوحيد والعلوم اللسانية والكلامية وبقية العلوم الأزهرية (الخطط التوفيقية جـ ٧ ص ٧١) .

اليأس ، فيهربون منها بعد مدة تطول أو تقصر حسب قوة تحملهم وصراعهم مع نفوسهم أو خداعهم لها . كان اليأس من النجاح - كما قال الشيخ محمد عبده - يتسرب إلى قلوب خمسة وتسعين فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل - سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم .

أمضى الفتى الناشىء « عبد الله بن مصباح » بضع سنوات يتلقى العلم بالمسجد الأنور ، يحضر حلقات « فقه الشافعية والنحو والصرف والتوحيد والمنطق والعلوم اللسانية والأصول » وظل فى هذه السنوات ينازع نفسه وبجهدها على السير فى هذا السبيل ، ويحاول قدر الطاقة أن يستجيب لما يلقى عليه وأن يستسيغ مايقرأ فلا يستطيع، وعاف طريقة التدريس فأخذ يهجر حلقات الدرس ، وسئم حفظ الكتب دون فهم فلم يعد يلتفت إليها ، ولم يستطع أن يغالط نفسه فى حقيقتها وعرف أن هذا ليس بطريقه وأن القدر قد رسم له حياة أخرى غير التى أختطها له أبوه ، فقاطع الدراسة وفر من الجامع الأنور .

ولكن إلى أين . . . إلى التسكع فى الطرقات وحشر نفسه بين الجماعات - فإذا وجد جماعة من الناس يتناشدون الزجل أو الشعر أو يتبادرون الملح والنوادر ، أو يتماجنون بما أرادوا من ألوان المجون ، اندس الصبى بينهم ، واستمع بكل أذنه لهم ، وأودع ذلك كله خزانة تعرف كيف تحفظ كل شىء يستقر فيها ، وهذه الخزانة هى حافظته القوية ، وذاكرته العجيبة التى كانت إذ ذاك ، كل ما يملكه من أسباب التفوق على أقرانه ثم أصبحت فيما بعد - أعنى وقت الشباب والكهولة - كل ما يملكه من أسباب الشهرة الشعبية التى وصف بها .

وقد حبب إليه هذا النوع من الدراسة غير المنظمة ، أنها توافق مزاجه

وتناسب استعداده ، فأخذ يصاحب الناشئين فى الأدب ويغشى مجالسهم ويجالس أساتذتهم،ولـكن لم يكن فى ذلك العهد للأدبدرس منظم ، ولا هو يعد علماً ولا فنا وأما هو هواية كذى الصوت الجميل يهوى الغناء فيقلد من سبقه .

أليس عجيباً أن فتى هذا شأنه وتلك أسبابه ، لم يكلف نفسه ذهابا إلى المدرسة أو الجامعة ، ولاأخذ نفسه فىأول الأمر بشيء من جد الحياةفىوقت الطلب ، يصبح بعد زمن ليس بالطويل ،إماما من أئمة الأدب فى عصره ورائداً من رواد النهضة فى أمته ؟

الحق أن القارىء لحياة هذا الرجل ، ليؤمن إيمانا لا ريب فيه ـ بأن ملابسة الحياة نفسها ، ومخالطة الناس على اختلاف طبقاتهم ، ربما كانت أقوى تأثيراً فى النفس وتـكويناً للخلق من الجامعة أو المدرسة .

ولا غرابة فى ذلك ، فالحياة الواقعية نفسها كانت أهم مصدر لثقافة رجل كبير من رجالات الأدب العربى (وهو الجاحظ) وجاءت تصانيفه أ كبر شاهد على ما نقول .

تخيل معى هذا الفتى الصغير وهو يجول فى أنحاء الإسكندرية أوفىأحياء طنطا أو المنصورة أو القاهرة ، يستمع إلى السوقة وهم يتحدثون ، أو إلى الخاصة وهم يتحاورون ، ويغشى الموالد ـ حينا ـ ويزج بنفسه هناك فى غمار هذه الطائفة التى عرفت باسم (الأدباتية) ليلتقط ما يقولون ، ويقلدهم فيما يفعلون ، لا تفوته حركة من حركاتهم ، ولا من حركات الناس جميعاً فى ذهابهم وإيابهم ، ولا تضيع منه همسة من همساتهم ـ وكأن ذهنه آلة تصوير تهيأت لالتقاط كل هذه الأشياء المتعددة ـ كما قال الأستاذ أحمد أمين .

والنفس الحساسة تختزن حتى حفيف أوراق الشجر ، وهفهفة الأغصان ودبيب النمال وحلاوة البسمات وأدق مجالى الجمال والقبح ثم تعرف كيف تستخدم ذلك فى فنها متى آن أوانه وقد اشتهر أمر الأديب الناشىء فى الاسكندرية ، وأصبح يدعى لمجالس الخاصة ويصاحب السادة وينادم الكرماء فيترسل ويسجع ويخطب وينشد الشعر ، ويخالط العامة فيترجل ويطلق الأمثال والنوادر على البديهة وصار اسمه برغم صغر سنه ، يتردد فى المحافل والمجالس .

ونقل الناس أخبار «عبد الله» إلى أبيه مصباح فى مخبزه ، فثارت ثائرته وأصيب بخيبة كبرى فى ولده المنذور للعلم ، وخير الوالد ولده ، فإما أن يعود إلى طلب العلم فيجد الرعاية والإنفاق أو يذهب إلى حال سبيله ، ويتولى أمر نفسه فيأكل بشعره وزجله ، ولكن عبد الله آثر عدم العودة إلى حلقات الدرس ، وخرج من الاسكندرية وأخذ يطوف البلاد ويجوب المدن والقرى ، تارة يركب القطار ، ومرات كثيرة يقطع المسافات سيرا على الأقدام ، لا ترده المتاعب عن أمله ولا تلهيه الملاعب عن عمله ، يجد شأن أمثاله من الظرفاء الجوالين ـ دائماً ، مكانا له على موائد العمد وأعيان البلاد أيمتعهم بإنشاده ، وينادمهم بأزجاله ، يسمرهم بمناقشاته ويشد إليه عيونهم بأحاديثه العذبة ، ويتعرف على البلاد وظرفائها ، فيناظرهم ويناشدهم ، ومن كل ذلك تزداد معارفه وتنموا خبراته ، وقضى فى رحلته هذه زهاء ستة أشهر اكتسب فيها لقباً جديداً اشتهر به ، وغلب عليه ، وصار يعرف به طوال حياته وهو لقب «النديم» .

وقد علمته رحلته الجرأة والاقدام ، ومعاناة الشدائد ـ سعياً وراء الرزق ، وحب الظهور بين مشاهير الندماء ، وقد كان قبل الرحلة ـ شأن كل حدث

هيابا يخاف الاغتراب ويتملكه الجبن حين يفكر فى سبل العيش المجهولة .

وعاد النديم إلى الإسكندرية وسرعان ما برم بالعيش فيها بسبب حقد زملائه محترفى الأدب عليه وتنكرهم له، ونقدهم شعر وأساليبه البديعية الجديدة التى جاءهم بها معه من رحلته . وكما يقول هو « أعلنوا عليه الحرب وتجمعوا ضده من كل حزب » .

ولم تعد مجالس الإسكندرية ترضى طموحه وذوقه ، وقد تفسحت آفاق معرفته بعد رحلته ورأى عالما أكبر وأوسع ، وسمع عن دنيا تختلف كثيراً عن الإسكندرية ، فهجرها إلى القاهرة فى عام ١٨٦١ م . وسنه إذ ذاك سبع عشرة سنة ، ونزل فيها ضيفاً على صديق له يدعى عبد العزيز حافظ ، كان قد تعرف به فى الإسكندرية يعمل مفتشاً بالسكة الحديد وكان ذا يسار يحب الأدب ويكرم الأدباء .

ثم أخذ يبحث عن مصدر للرزق ، وكانت الحكومة فى حاجة إلى شبان متعلمين تشغل بهم الوظائف المستحدثة فى مكاتب التلغراف ، فتقدم النديم ليعمل بإحدى هذه الوظائف ، ثم أخذ يتدرب على هذا الفن حتى أتقنه بعد بضع شهور، وعين عاملا للبرق « تلغرافياً » وصار يتنقل فى مكاتب مختلفة حتى استقر به المطاف فى مكتب التلغراف ببنها .

ولم يكن النديم سعيداً أول أمره بعمله لنأيه عن وطنه الأول ، وحرمانه غذاءه الروحى فى صحبة الأدباء والشعراء ، وضاقت نفسه بحياة الصخب والضجيج التى يحياها ليل نهار. يعانى من صغير القطارات وضوضاء المسافرين ومن صخب الحمالين والباعة الجائلين . ولا ينقذه من كل ذلك سوى قلمه، ينفس به عن ضيقه فى خطابات يكتبها إلى صديقه عبدالعزيز حافظ :

(ولو علم السيد ماأنا فيه من معاناة الأمور ، ومعاداة الدهور ، لالتمس عذراً لتأخيرى ، فأرجو الصفح عما يوجد فى هذا من القبح ، فقد حررته ليلة نوبتى ، بعد عشائى وقبل نومتى ، مع صفير الوبورات ، وجعجعة العربات ، ونداء العدة مدة بعد مدة فعندى من الأوباش كل سكير وحشاش ، حزب يلعب الدفنة ، وفريق يأكل كليلة ودمنة ، وقوم يلعبون النرد ، وشخص يقفز كالقرد ، وكنت فى بلوى كبيرة إذ صار المحل كبيرة) .

وألقى نفسه بعد ذلك متردداً عند مفترق الطريقين ، فقد كادت عشرته لهؤلاء الجهال تستميله إليها ، يجرفه تيار الجهالة ، وأصبح منها قاب قوسين أو أدنى وفى ذلك يقول :

« وانتظمت فى سلك التلغراف ، وامتزجت بالأوباش بعد الأشراف . فضعف يقينى ، ولم أجد من يقينى ، فإن أغلبهم سكارى ، وكلهم حيارى ، لايعرفون الهدى ، ولا يتركون الردى ، أعبدهم من إذا رأى الخمر هام ، فلا يرد إلا بالحمام وأصلحهم نواسى العمل ، وأقنعهم أشعبى الامل ـ لايركعون ولا يتصدقون ويخلفون ولا يصدقون ، ولا يرون عيباً فى فحش ، فهم أغلط من وحش ، إن حدثوك كذبوا ، وإن ائتمنتهم خانوا وسرقوا وإن هديتهم ضلوا وسرقوا ، كم قمت فيهم خطيباً ، وأسمعتهم وعظاً طيباً فلم يزدادوا إلا نفورا وقد أعيانى رد هذا الخطب ... »

ولكن القدر أنقذه قبل أن يجرى به ضياع الإنسانية فى كهوف الضلال ، فنقل إلى القاهرة بمكتب تلغراف القصر العالى ، مقر الأميرة خوشيار خانم أفندى أم الخديوى اسماعيل أو مقر قصر الوالدة باشا ـ وكانت ذات جمال وبهاء ، تحب الفنون وتسعى لاستكمال أسبابها فى قصرها العظيم الذى كان يقع على النيل ، أو مايعرف الآن (بجاردن سيتى) وفى هذا القصر رأى النديم عالماً زاخراً بأشتات من الأجناس والطبقات ، مليئاً بأنواع الترف ومظاهر

المجد والأبهة وكانت الأميرة لاتألو جهداً فى استيفاء أسباب المتعة والسرور ، وكانت تقيم مع حاشيتها أول الأمر فى سراى الزعفران بالعباسية ثم انتقلت منها إلى القصر العالى ، وكان يحوى فرقة موسيقية لعزف الأدوار الغربية تحت رئاسة مديرة حائزة أرقى الشهادات من الخارج فى غاية الجمال والرواء ، وأثناء إقامة الحفلات الموسيقية بالقصر كانت ترتدى (سترة) من الجوخ الأحمر المزخرف بالقصب وسروال (بنطلون) من الصوف الأزرق ، وقد رصع صدرها بالنياشين وعلى رأسها طربوش وفى يدها عصا فضية ، وكان هذا زى العازفات أيضاً ، كما كان بالبهو الداخلى بالقصر فرقة موسيقية شرقية لعزف الموسيقى التركية بمصاحبة فرقة من المغنيات المصريات والتركيات ، كذلك كان بالقصر مسرح وفرقة مسرحية لتمثيل الروايات الكوميدية وفرقة من أجمل الراقصات الأوربيات ، كما كان بالقصر مجموعة ممتازة من الجوارى والوصيفات تعنى بتربيتهن تربية عصرية ، وقد بلغ مجموع من بالقصر منهم حوالى ألف شخص ، وكان على رأس القصر خادم أسود ، رهيب المظهر مرهوب الجانب قوى الشكيمة عظيم النفوذ فى دوائر الحكومة هو خليل أغا باشى أغا الأميرة ، وليس أدل على نفوذه ، من رئاسته لجميع الحفلات الكبرى التى تقام بالقصر وفى أثناء حفلات أفراح الأنجال (حفلة زواج الأمراء حسن وحسين توفيق) التى دعى إليها الأمراء والوزراء وكبار الأعيان كان الجميع يقبلون يديه عند مقابلتهم له بدون استثناء ابتغاء مرضاته ، ولاغرو فى ذلك فكان له من النفوذ مايرفع به من يشاء وينكل بمن يشاء .

وكان أثناء عمله بالقصر العالى بالقاهرة ، دائم الاتصال بمجالس العلماء والأدباء ، وفى أوقات فراغه يغشى ندوات الأدب ومجالس الخاصة النابهين فى عصره ، وبصفة خاصة ندوة جمال الدين الأفغانى التى كان يعقدها فى منزله بحى الازهر وأحيانا (بقهوة متاتيا) بالعتبة الخضراء . حيث يتجمع حوله أنصاره وكذلك مجلس حسن بك حسنى البارودى بغيط العدة (باب الخلق)

الذى كان عامراً بالأدب وعشاقه ، كما كان يتردد على مجلس الشيخ أحمد وهبي الذى كان يعقده فى محله الكائن بالغورية لبيع الطرابيش ، وقد توثقت الصلات بينه وبين أحمد وهبي فعرفه بدوره إلى كثير من فحول الادباء فى ذلك العهد ومنهم محمود سامى البارودى — محمد صفوت الساعاتى ، السيد على أبو النصر وكان الاخيران من شاعرى المعية السنية ، كما كان يحضر عدة ندوات أخرى فكان بالنهار تلغرافيا يستخدم الإشارات ويرسلها وبالليل أديبا بمجالس الادباء .

استمر النديم يعيش حياة منظمة مطمئنة ، فهو يعمل بالنهار بالقصر العالى ويحضر مساء مجلس أستاذه جمال الدين الافغانى ولا يكدر حياته مكدر ، إلى أن حدث خلاف بينه وبن خليل أغا رئيس القصر . إختلف الناس فى أسبابه ، ولم يصرح لنا النديم فى كتاباته عن ذلك صراحة ، فمن قائل أن الطاغية الاسود كان يعاقب الخدم بشدة دون ذنب سوى الدسائس وثار لذلك عبد النديم وأبدى احتجاجه على ذلك مع بعض موظفى القصر ، مما حنق عليه خليل أغا إذ اعتبر ذلك تدخلا فى شئونه ، ومن قائل أن النديم كان قد شوهد فى مجالس أستاذه جمال الدين وكانت تظل معقودة إلى ساعة متأخرة من الليل فكان من المتعذر عليه أن يصل بعد ذلك إلى مكتب عمله صباحا فى الميعاد المقرر ، فأغضب ذلك رؤساءه وجلب سخطهم ، حتى وصل أمره إلى رئيس القصر ، ومن قائل أن ارتياده مجلس جمال الدين الافغانى قد بلغ القصر خصوصاً وقد بدأ الافغانى ينتقد صراحة أعمال اسماعيل ويندد بسياسته واستبداده .

فتربص رجال خليل أغا بالنديم ، وأوسعوه ضرباً مبرحا ، وكانت الخطة أن يقضى عليه قضاء تاماً لولا لطف الله به ، فقد قيض له من بعض زملائه من موظفى القصر . من سهل له طريق الفرار فى منتصف الليل . وهو مثخن بالجراح . يكاد يتهاوى من شدة الألم .

وهكذا يتم الفصل الأول من الصراع بين عبد النديم العامل المصرى الصغير وبين ظالم جبار من أتباع اسماعيل ، وخرج يغلى من الغضب ؛ ويضج بالثورة والألم ضد الطغاة - والإقطاعيين وأمراء بيت إسماعيل . وآثر الصمت بعد ذلك زمناً ، وفصل من وظائف الحكومة وحرم عليه التعيين بها بعد ذلك ، لغضب خليل أغا عليه .

الأديب الشريد

أخذ النديم يضرب فى الأرض على غير هدى ، ويجوب مد الوجه البحرى وقراه ؛ مستعيدا سيرته الأولى من ملازمة الأعيان وكبار المزارعين ممن يجيدون الاستماع وتذوق الادب . وحط رحاله فى أول الامر فى المنصورة ، واتخذها مركزاً له ، يطوف مايطوف ثم يأوى إليها ، ويؤنسه فيها أصدقاؤه ومحبوه ، وفى طوافه تعرف على عمدة (بدواى) الشيخ أحمد أبو سعدة وكان من ثراة الريف ؛ يملك حوالى ألف فدان فى مركز فارسكور دقهلية ؛ وكان من ذوى النفوذ الضخم ، معروفا بالبطش والشكيمة . أعجب به لحسن حديثه وطلاوة مسامراته ، فدعاه للإقامة عنده لتدريس أولاده القراءة والكتابة ومبادىء العلوم الدينية . وقد أفادته هذه الإقامة معرفة الحياة الحقيقية فى الريف ، واستبداد الإقطاعيين بعمالهم من الفلاحين الكادحين ، وانطبعت فى ذاكرته الطرائف من الملاحظات ، فقد جلس إلى الإقطاعى الواسع الثراء ولاحظ مع ثرائه شدة تقتيره على الفلاحين التعساء، فتكشفت له الجريمة الكبرى التى ارتكبها الاستبداد والاقطاع بين ألوف الفلاحين . ثم مالبث أن اختلف مع العمدة آخر العام ، حين طالبه بأجر تعليم أبنائه ، فرفض أن يعطيه حقه ، وأراد أن يكون عمله نظير إطعامه كبقية أتباعه ؟؟ فلم يقبل النديم أن يكون مسخراً ، فتشاحنا وتبادلا الشتائم ، فكبر على الاقطاعى الكبير ان يتطاول عليه النديم فسلط عليه خدمه ليحرقوا داره وينالوه بالاذى . ولما عرف بما دبر له ، فر هاربا من القرية ليلا غير كريم ، وهكذا يتم الفصل الثانى من الصراع بين النديم المعلم وأحد كبار الاقطاعيين .

وتناقل الناس فى المنصورة أخباره ، وقدراته فى قرض الشعر والزجل ،

حينما هجا الشيخ أبى سعده بقصيدة مشهوره ، شحذت سنان موهبته ، وذاعت فى أرجاء الريف . فاستدعاه السيد محمود الغرقاوى من أعيان المنصورة ـ وكان من عشاق الادب ـ واستضافه وأكرمه ، ثم فتح له متجراً للخردوات ليمارس فيه الاعمال التجارية ويعيش منها ، ولكن كيف ينتظم النديم فى حرفة التجارة وهو لا يجد استعدادا طبيعياً فى نفسه لهذا العمل ؟ فأهمل وتراخى وانشغل بالادب والادباء حتى أفلس . . .

وعاد يطوف بالبلاد ، ينزل ضيفاً على عشاق الادب ، ويفد على أعيان القطر ووجهائه فيكرمون وفادته ، ويهشون لمقدمة ، لما رزقه الله من حلاوة اللسان ، وخفة الروح وسرعة الخاطر وحسن المنادمة .

وذاع صيته بين محبى الأدب ، يتحدثون لمعجز رسائله ومحرراته نظما ونثرا ، ويتباهون بحفظها وإلقائها فى الأندية والمجتمعات حتى وصل خبره إلى شاهين باشا كنج عام ١٢٩٣ ه بطنطا .

وكان شاهين باشا مفتشاً عاما للوجه البحرى والحاكم بأمره فيه ، له ذوق أديب وإحساس شاعر ، فكان يستضيف الادباء ليأنس بمطارحاتهم الادبية ، ويطرب بمساجلاتهم الشعرية .

ويحدثنا أحمد باشا تيمور كيف اتصل النديم بشاهين باشا فيقول :

كان بين شاهين باشا والشيخ أحمد الجندى أحد العلماء بالمسجد الاحمدى صحبة وتزاور . وكان الشيخ يستظرف غلاما حلاقا مليح الشكل ، حسن الصوت فأمره أن يغنى بحضرة الباشا ، فغنى بقول النديم :

سلوه عن الارواح فى ملاعبة　　وكفوا إذا سل المهند حاجبه
وعودوا إذا نامت أراقم شعره　　وولوا إذا دبت إليكم عقاربه

ولا تذكروا الأشباح بالله عنده فلو اتلف الأرواح من ذا يطالبه
أراه بعيني والدموع تكاتبه ويحجب عنى والفؤاد يراقبه
فهل حاجة تدنى الحبيب لصبه سوى زفرة تثنى الحشى وتجاذبه

وكان كثيرا ما يتغنى بها ، فطرب الباشا طربا شديداً ، واستظرف قائل الأبيات وتمنى رؤيته ، فأرسلوا له بالحضور ، فلما حضر إلى طنطا وواجهه، استقبح صوته ، إلا أنه أعجب بظرفه وأدبه ، ومال إليه ، « فاتخذه نديما لايمل ورفيقا حيث حل » .

وأصبح مجلس شاهين باشا بعد أن انضم إليه النديم ، كعبة يحج إليها المثقفون وعشاق الأدب ، وصار للنديم فيه ليال مشهورة حضرها أفاضل الشعراء وكبار منشيء العصر وزجاليه ، فناظرهم - على مسمع من شاهين باشا ورواد مجلسه - فى أساليب البديع المنوعة وطارحهم النوادر والملح ، وناشدهم فنون النظم والنثر فظفر بهم جميعا .

وفى مجلس شاهين باشا تعرف النديم على التونجى بك ، وكان من الحاشية الخديوية ، ذا غنى ويسار ، فأعجب به وعينه وكيلا لدائرته . .

وإلى هذا العهد كان يعتبر النديم من أئمة الزجالين فى مصر .

* * *

على هامش الكفاح

وقد هيأ له العمل فى دائرة التونجى بك فرصة التردد على القاهرة لمقابلة موكله هناك، وأمنت صلته بشاهين باشا صاحب النفوذ لدى الخديوى اسماعيل، تخوفه من خليل أغا أن يلحقه بأذى ، وردت هذه الوظيفة إليه روحه المعنوية وأعادت إليه شعوره بكرامة الموظف الذى يكسب قوته بعمله ، وما أن عاد

إلى القاهرة حتى عاوده الحنين إلى مجلس أستاذه جمال الدين الأفغانى بقهوة متاتيا . . . ولكن الحديث فى الندوة قد تغير ، كان الحديث فى ندوة الأفغانى فى أول الأمر عن الإصلاح الدينى واعتباره الطريق للإصلاح السياسى والاجتماعى ولكنه فى هذه المرة كان يتحدث بصراحة حديثا عنيفا عن الظلم الاجتماعى الذى تنوء به أعناق المصريين ، واستعبادهم منذ القرون الطويلة من السنين ، من عهد الفرس حتى الأتراك . وعن مظالم اسماعيل والتدخل الأجنبى ، ويدعو إلى حرية الرأى والقلم والحكم الديمقراطى السليم ، ويقارن بين الحكومات الغربية وتحررها والحكومات الشرقية واستبدادها ، ويدعو إلى التكتل الشعبى وتكوين الرأى العام وتنظيمه ، وكانت هذه الأسماء أو المصطلحات شيئا جديدا يرد على الأسماع ، لم يعرف المصريون عنه شيئا من قبل ، فقد كانوا ـ لا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده . أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون ، مصرفون فيما تكلفهم به وتفضربه عليهم .

عاد فوجد أستاذه الكبير لايقصر حديثه على الخاصة ، بل يقرب إليه العامة ، ليتكون فيهم رأى قوى وجبهة وطنية شعبية . كانوا يرتادون مجلسه فيتبينون من حديثه سوء حال أمتهم ، ويتفهمون مواضع بؤسهم ، ويتبصرون بأسباب الفقر والذلة ، ويصممون على أن يخرجوا من الظلمات إلى النور ، وأن يتحرروا من العبودية للحاكم ، ويفهموا موقفهم منه وموقفه منهم ، وكان ينفث فيهم الشجاعة كيلا يخافوا بأسه ، فليست قوته إلا بهم ، ولاغناه إلا منهم .

ويتطلع النديم إلى وجوه زملائه من رواد المجلس فيجدها قد تغيرت . لقد ماتت عليها الابتسامات وارتسم عليها التحفز والعمل ، يتطاولون بأعناقهم

إلى مايقوله شيخهم ، مشرئبين إليه ، يجهرون بالشكوى مما آلت إليه البلاد ويظهرون الخوف على الوطن أن طال حكم اسماعيل ، فيفكر فريق منهم فى خلعه وفريق يدبر قتله .

ولا يلبث النديم أن ينتظم فى عقدهم مرة أخرى ، فيصيبه ما أصابهم ، وتمس كلمات الإمام قلبه ، وكأنها جمرات تكوى بها عواطفه فتشتعل ، أو سياط تمزق ثياب الغفلة عنه ، وغشاوة الظلمة من حوله فيفيق ويجد فى نفسه كما يجد زملاؤه فى نفوسهم ، بعد سماع خطب الأفغانى وحديثه أن الواحد منهم جدير بإصلاح مديرية أو إصلاح مملكة[1] ، وانضم النديم إلى المحفل الماسونى الذى أنشأه أستاذه ، وحين نظمت شعبه ، كان نصيبه فى هذا التنظيم ، أن يتخذ الإسكندرية مقراً لدعايته ونشاطه ، ويبصر الناس بمبادىء حزب الإصلاح .

* * *

نشاطه فى الإسكندرية

حينما بعثه حزب الإصلاح (أنصار جمال الدين الأفغانى) إلى الاسكندرية سنة ١٨٧٩ ، رأى الناس لا يشتغلون بما كانوا يشتغلون به أمس من الأسمار المسلية وأشعار أبو النواس والبحترى وهجاء أبى الرومى ومديح إسماعيل ، وفكاهات الشيخ على الليثى ، إلى غير ذلك من الفكاهات المضحكة والأحاديث الفارغة ، يقضون بها أوقات فراغهم - نعم هاله أن رأى المدينة وقد اتشحت أحاديث الجماعات بها بثوب الجد والرصانة ، فهى يومئذ تتحدث فى أمور خطيرة ، تتصل بمستقبل البلاد ومصيرها وأعمال الحكام ومصالح

(١) المنار ج ٨ ص ٧١٠

الأهالى ، وتردد الألسنة آنذاك كلمات جديدة منها صندوق الدين ، وتدخل الدول الاجنبية والشورى والظلم والاستعباد والاستقلال والحرية والجهل والعوز ونحو ذلك ، فانضم لجمعية سياسية تدعى « مصر الفتاة » لكى ينشر عن طريقها مبادىء حزب الإصلاح ، واستهدف الشباب المصرى من هذه الجمعية « القضاء على دكتاتورية اسماعيل واستبداده والعمل على خلعه أو قتله أو المطالبة بالحكم بالشورى والدعوى إلى الإصلاح العام » وكانت منشورات الجمعية ودعوتها تلقى الرعب فى قلب اسماعيل ، فأخذ جواسيسه يترصدون أعضاءها فى كل مكان ، محاولين كشف أمرهم لينزلوا بهم بطش إسماعيل !!!

وتوثقت الصلات بينه وبين صحبه ثائرة تتطلع إلى نوع من الادب غير الذى كان ، وتجد غذاءها فى الصحف السياسية والمقالات الثورية والنقدية ، وكان يشتغل فى صحافة من هذا النوع أديب اسحق وسليم نقاش ، فأصدروا بجريدة مصر وجريدة التجارة ، التى كان يمدها جمال الدين الافغانى وتلاميذه بمقالاتهم وإرشاداتهم،وانغمس فى نفس التيار عبد الله النديم ، وحول قلمه إلى هذا الاتجاه لأول مرة فى حياته ، فلقيت مقالاته النجاح والشهرة ، مالفت إليه الأنظار .

وأخذ يدعو إلى إنشاء الجمعيات التى تسعى فى السبيل النفع العام ، فى طول البلاد وعرضها ، وحتى ينتزع الخوف من القلوب ، أعلن أن أهدافها هو النشاط الثقافى والاجتماعى ، وبدأ هو بإنشاء أول جمعية بالاسكندرية وهى الجمعية الخيرية الإسلامية فى ١٨/٤/١٨١٩ ، وجعل من أهدافها فتح المدارس الأهلية للبنين والبنات لجميع أبناء الشعب ، ومجانا للفقراء ، وبمصاريف قليلة للقادرين . وكان النديم نائب رئيسها ؛ وترك منصب الرئيس شاغراً ليتولاه محافظ الثغر

مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية : أنشأتها الجمعية المذكورة وتولى نظارتها عبد الله النديم . وتعتبر أولى مدارسها . اهتمت هذه المدرسة بالتعليم على أساس منهج قومى فريد فى عصره (سنأتى بشرحه فى فصل أثر النديم فى التعليم) وتشجيع الطلاب على الخطابة ، وتعويدهم التعبير عن آرائهم فى جو استحكم فيه الخوف ، وانعقدت ألسنة الناس من شدة بأس الحاكمين ، وقد انتشر طلبة هذه المدرسة فى المحافل والمجتمعات يخطبون فى كل مكان فى معانى الوطنية والحرية وحب العلم والعدالة الاجتماعية ، ثم أعلن النديم عن إقامة ندوة أسبوعية بالمدرسة . وأباح الحضور فيها للجميع ، يتحدث فيها الخطباء فى الدين والسياسة والثقافة بحرية تامة ، لنشر الوعى القومى بين الجماهير ، وافتتح أول ندوة فى ١٧٧٩/٧/٢٢ ، فأحدثت هذه الحركة دوياً فكرياً فى الإسكندرية ، وتحدث النديم فى هذه الندوات بصفة خاصة عن فضل الجمعيات والمحافل الخطابية ، والصحافة وكيف تخلق الشعور الوطنى وتنبه الرأى العام ، واشترك معه تلاميذه فى الحديث ، وأخذت الصحف تنشر خطب النديم كاملة فى صفحاتها الأولى ، وخلعت عليه كثيراً من الألقاب فدعته « خطيب الشرق » ، « خادم الإنسانية » ، « محى الوطنية » وسمى محفله « سوق عكاظ » تارة و « معرض باريس للآداب » تارة أخرى وأصبحت الإسكندرية ولا حديث لها إلا خطب النديم ومحافله ، وانضم إلى الجمعية كثير من أصحاب النفوس المشتعلة بالوطنية .

وأكثر النديم من الحفلات المدرسية ، وقام فريق التمثيل بالمدرسة بتقديم المسرحيات القومية والوطنية ، وقد نجحت المدرسة نجاحاً كبيرا فى تقديم مسرحية (الوطن وطالع التوفيق) على مسرح زيزينيا بالإسكندرية ، فى حضور الخديو وكبار رجال الدولة . وأعجب جمهور المشاهدين بتمثيل

الطلبة لاسيما وقد نبهت المسرحية الأفكار وفتحت الأنظار لنقد العيوب الاجتماعية والسياسية .

أما رياض باشا رئيس مجلس الوزراء فى ذلك الحين ، لما أحس بخطر النديم وأفكاره المناوئة لأسلوب حكمه ، فلم يلجأ إلى النفى والسجن كما هى عادته لردع خصومه وناقديه ، بعد أن كسرت شوكة طغيانه وخفقت من استبداده حركة الجيش المعروفة « بحادث قصر النيل » التى قامت فى فبراير سنة ١٨٨١ ، أثر اعتقال ثلاثة من كبار ضباطه المصريين : أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى لاجترائهم على تقديم مذكرة تطالب بإصلاح الجيش والحد من طغيان عثمان رفقى وزير الحربية الشركسى[1] . . . وأجبر الجيش رياضاً على إقالة عثمان رفقى وتعيين محمود سامى البارودى ، وفقدت الحكومة هيبتها حين فقدت السيطرة على الجيش ، ومن ثم لجأ إلى أسلوب المؤامرات فى محاربة معارضيه وأعدائه .

وفى ذلك يقول النديم :

« قد أوجس رياض خيفة منى ، بما بلغه من أحد الذوات عنى . فعزم على فض الجمعية وتشتيت العصبية ، ووسوس إلى بعض الذوات من الأعضاء وجعلهم لى أعداء ، يعارضوننى فى كل موضوع ويتظاهرون بغير المشروع ، لأضيق برجال أنسى ، وأترك الجمعية بنفسى » .

وحين ظهرت رائحة الخلاف ، وعلم الناس أن رياض باشا سلط على النديم أعوانه ليخرجوه من الجمعية ، تشيعوا للنديم ، وبدأت موجة من التحمس تجتاح المركز الرئيسى للجمعية ، وتبارى الخطباء فى مدحه والثناء عليه ، ونظموا القصائد فى تكريمه، وأطلقوا عليه اسم « مؤسس الجمعيات » و « رائد الدعوة إلى الإصلاح بالتعليم والتعاون والاتحاد » : ثم استقال

النديم بعد ذلك من الجمعية بعد أن ضيق عليه الخناق ، خصومه من أنصار رياض .

مجلة التنكيت والتبكيت :

قبل أن يستفحل الخلاف بين النديم ورياض ، أدرك بخبرته أن رياض لن يدعه يمضى فى طريقه الإصلاحى ، ولن يبقى على نشاطه فى الجمعية ، إذا ماتعرض فى محافلها الخطابية لنظام الحكم أو انتقاد ماتئن منه البلاد من استبداد ، وتعسف وخضوع لقنصلى انجلترا وفرنسا اللذين استنزفا دم البلاد لسياستهما المالية ، وما أن أحس بوادر العاصفة تهب عليه وعلى جمعيته حتى عزم على إصدار مجلة تحمل إلى الناس رسالته وتصله بجمهوره إذا مامنع من الخطابة سماها « التنكيت والتبكيت » .

وصدر أول عدد منها فى ١٨٨١/٦/٦ تحمل اسم « التنكيت والتبكيت » وخرجت إلى عالم الصحافة العربية بطابع جديد غير مسبق ، فقد أرادها النديم أن تكون صحيفته إلى الخاصة والعامة من أبناء الأمة) وسوف نتحدث عنها بإفاضة فى الفصل الخاص (بأثر النديم فى الصحافة) .

ثم أخذ النديم يطوف بالبلاد ويرتقى منابر المساجد ويجلس إلى الفلاحين فى مجتمعاتهم يبذر فى نفوسهم بذور الثورة ويشعل نارها فى قلوبهم ، ويحدثهم فى دمياط والرحمانية ودسوق وزفتى والمنصورة وميت غمر عن حياة البذخ التى يحياها الأغنياء والحكام ، يرفلون فى ثياب العز ويتمتعون بأسباب المدنية وينعمون بالمراقص والغانيات والمغنيات ، وينفقون الأموال عن اليمين وعن الشمال ، وما هى فى الحقيقة إلا أموالهم هم ، أموال الفلاحين البؤساء ، ودعا فى هذه الخطب إلى الوحدة القومية بين الأقباط والمسلمين ، ونقد المساوىء الاجتماعية والتذكير بمجد مصر السابق والثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية .

وقد اتصل به رجال الثورة العرابية آنذاك ، وسار على فهمى إلى ميت غمر ، حيث كان النديم يواصل جولته فى البلاد ، وأخبره بما حدث بينه وبين رياض ثم عرض عليه أن يدعو علانية لحركة الجيش بقلمه ولسانه ، وبسط له الخطة الكاملة التى يعدها الجيش لتصل البلاد إلى ماتريده من حرية ومساواة بين المصريين والأتراك ، ومن حكومة دستورية تظلها الشورى ، تخلص الأمة من الطغيان والنفوذ الأجنبى . ولاقت الخطة استجابة كاملة وتأييدا تاماً من النديم ، وبدأ يعلن على الأشهاد ـ انضمامه إلى منظمة الجيش ، وينادى فى الناس بالاجتماع حولها حتى تخلصهم من حياة العبودية والظلام ، ومما قاله :

« وأعلنت حب العسكر والتعويل عليهم ، وناديت بانضمام الجموع إليهم ، وأوغلت فى البلاد ، ونددت بالاستبداد ، وتوسعت فى الكلام ، وبينت مقالب الحكام الظلام ، لاأعرفهم إلا بالجهلة الأسافل ، ولا أبالى بهم وهم ملء المحافل » (١) .

ولم يلبث النديم حتى سافر إلى القاهرة ليلتقى قائد حركة الجيش ، وأحمد عرابى الذى أحله منزلة قريبة من نفسه ، وأصبح من أنصاره ، واتخذه مستشارا يستنير برأيه فى كثير من الأمور ، وقويت الحركة الوطنية بانضمامه إليها .

ثم أشار عليه أحمد عرابى لتغيير إسم المجلة فغيره ، وسماها « الطائف » وظهر أول عدد منها فى ١٨٨١/١١/٢٠ ، وأصبحت الطائف جريدة الثورة ولسان مجلس النواب وأكبر وأقوى الجرائد فى عهدها ، وأصبحت الصحف تنقل عنها ماتكتبه حتى « الوقائع المصرية » . ثم انتقل بها إلى ميدان القتال لتحريض الجنود وإشعال حماستهم .

---

(١) تاريخ مصر ص ٥٦

وانتهت الثورة العرابية بالهزيمة المعروفة ، ووقعت البلاد بأسرها فى محنة عظيمة ، وحين أيقن العرابيون من هزيمتهم بعثوا بعريضة مع وفد منهم إلى الخديو بالإسكندرية يتوسلون بها إلى عفوه ، ثم أشار النديم إلى تعديلها بما لا يتنافى مع الكرامة الوطنية فبعثوا بعريضة أخرى بعدها ، وأوفدوا بها عبد الله النديم فلما وصل إلى كفر الدوار ، نمت إليه أنباء العريضة الأولى من رفض الخديو لها وقبضه على مقدميها ، فقفل راجعاً فى نفس القطار إلى القاهرة فوصلها فى الرابعة من صباح ١٨٨٢/٩/١٤

لقد ظل النديم يؤدى واجبه نحو أمته ونحو الحركة الوطنية التى قامت لتخلص الشعب من الاستعباد حتى آخر لحظة من لحظات الخطر ، وهنا لم يفكر فى الأشخاص كما فعل غيره ليحفظوا أرواحهم ، وإنما فكر فى الأمة وفى مستقبلها وفى جهادها الذى قامت به على هذا الطريق ، فلم يوافق أعضاء المجلس على الاستجداء والإقرار بأن ماقامت به الأمة وما قام به عرابى وهو قائدها كان ذنباً وعصياناً .

الثائر الهارب

سلمت القاهرة فى ١٨٨٢/٩/١٥ ودخلها القائد الانجليزى ومعه نائب الخديو سلطان باشا الذى أصبح صاحب الحول والطول فى العاصمة ، وقبض على جميع زعماء الحركة الوطنية حتى الذين فروا إلى الخارج ما عدا عبد الله النديم ، وجندت الحكومة كل قواتها للقبض عليه وبثت الجواسيس والارصاد فى كل مكان ، وحين ذهبت جهودها هباء ، أعلنت عن مكافأة قدرها ألفامن الجنيهات لمن يقبض على النديم حياً أو ميتاً ، وقررت عقوبة الإعدام لمن يخفيه أو يعلم بمكانه ولا يخبر عنه . ونشر ذلك فى الوقائع المصرية تباعاً ، وفى جميع الصحف وفى منشورات وزعت على المديرين وعمد البلاد .

كان النديم يعرف حق المعرفة أنه العدو اللدود للخديو ولقوة الاحتلال ولسلطان باشا ورياض باشا وللسلطان نفسه ، وأن هؤلاء جميعاً سوف يجتمعون على الانتقام منه وتلفيق التهم التى تودى به ، جزاء هجومه عليهم وسيكون أفظع إنتقام .. ولذلك قرر الهرب وكانت قصة هربه وتنكره قصة بطولة وثقة بالنفس وإعمال حيلة وتدبير خطة ، بل مغامرات أشبه بالقصص البوليسية ، استمرت تسع سنوات ظل فيها مختفياً والبوليس يجد فى أثره ، وكانت قصص الذين آووه وأخفوا أمره ، تفيض برموز التضحية فى سبيل الوطن .

فبعد أن عاد النديم من كفر الدوار « قرب فجر ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ذهب إلى منزله بحى العشماوى ، ثم اصطحب خادمه حسين محمد ووالده مصباح وركبوا عربة « حنطور » إلى ساحل بولاق ليودع أباه ، الذى استقل

مركباً إلى الاسكندرية هرباً من الاضطهاد ، وكر النديم راجعاً هو وخادمه إلى دار صديق له يسمى الشيخ مصطفى ببولاق وظل مختفياً بها عشرة أيام حتى طالت لحيته وشعره ، ثم غير زيه من الملابس الأفرنجية فلبس ثوبا من الصوف الأحمر الخشن المسمى « بالزعبوط » واعتم بعمامة حمراء ، شأن مشايخ الطرق الصوفية الرفاعية ، وغطى عينيه بمنديل وأعفى شاربه وأطلق لحيته ، وخرج ليلا يتوكأ على عكاز طويل يأخذ بيده خادمه قاصداً ساحل بولاق ، حيث وجد مركباً شراعياً مقلعة إلى بنها،فاستضافه ملاحوها تبركا به ، فركبها هو وخادمه ، وقبل أن تصل المركب إلى بنها علم الركب أن الكوبرى بها مغلق على غير العادة . وفكر النديم فى الأمر فهداه إحساسه الداخلى أن إغلاقه فى غير موعده ، إنما قصد به حجز المراكب حتى يتسنى لرجال البوليس تفتيشها فأخذ يتمتم بالمسبحة ويذكر الله بصوت مرتفع زيادة للتنكر ، ونزل رجال البوليس إلى السفينة وفتشوها وسألوا ملاحيها عن (النديم) فقد رآه شاهين فؤاد المفتش بالمصرف العقارى ومن مماليك عباس باشا منذ عشرة أيام متجهاً إلى ساحل بولاق ليستقل منه مركباً ، فنفوا علمهم به أو رؤيتهم له ، ولم يتعرفوا عليه وهو على بعد خطوات منهم ! وبعد انصرافهم انتقل إلى سفينة أخرى ترسوا إلى الجانب الآخر من الكوبرى متجهة إلى دمياط .

وفى طريقه علم من الصحف أن حامية « دمياط » سلمت فنزل إلى « ميت النصارى » وفى الصباح ركب مركباً آخر إلى المنصورة ومكث مع خادمه فى مسجدها ثلاثة أيام ، يستضيفهما الناس ويرسلون إليهما الطعام تبركاً بشيخ الطرق الصوفى ، ثم واصلا السفر براً حتى وصلا منية الغرقا (بمركز سمنود ـ على الشاطىء الغربى لفرع دمياط) ولم يكن ينوى الإقامة طويلا إلا ريثما يستعد لمواصلة خطته للهرب إلى الشام ثم إلى أوربا ، ونزل عند صديق له « عالم أزهرى » ذى مكانة فى القرية ، فآواه وخبأه وكان

بالقرية أحد مشايخ الطريقة الصوفية الصاوية يسمى الشيخ شحاته القصبى ، وكان ذا نفوذ واسع فى هذه المنطقة ، وكان النديم قد أخذ عليه أيام طوافه بالبلاد عهداً وأصبح من مريديه ، فأرسل إليه يخبره بمخبئه وعزمه على الهرب إلى الشام ولكن الشيخ منعه من مبارحة البلاد ، وأمره بالتستر ، وكون الشيخ مع الصديق الأزهرى جهازاً لحمايه النديم والإشراف على إخفاء أمره عن الحكومة . وقد مكث النديم فى منزل صديقه الأزهرى زهاء أربعة أشهر ، ولقد ضاق خادمه بالاختفاء ووسائله ، وحن إلى أهله فأخذ يبكى ويطلب العودة إليهم ، وفى هذا خطر كبير على النديم ، إذ لو سمح له بأن يذهب إلى أهله ، فلن يضمن أن لا يتصل بالبوليس ويكتشف أمره ، وإن أبقاه على هذا الحال فضحه ببكائه ، فتصنع اقتناعه بطلبه ، وطمأنه ووعده بالعوده ، واستعمل النديم ذكاءه وحيلته ، فاشترى الجريدة الرسمية وأخذ يقرأ بصوت مرتفع ، ثم تصنع الفزع وضرب كفاً بكف ، وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم » ولما سأله الخادم عما أفزعه قال له : لقد جاء بالجريدة خبر خطير جداً ، وهو أن الحكومة جعلت لمن يرشد عنى ألف جنيه ولمن يأتيها برأسك خمسة آلاف ، فخاف الخادم وأخذ يبالغ فى التنكر أكثر من سيده ، وقد غير له اسمه وسماه صالحاً حتى يتم تنكره فاستراح من تلك الناحية ولازمه الخادم طوال مدة الاختفاء .

كانت فترة الاختفاء الأولى من أقسى الأيام التى مرت بالنديم ، فهو لم يتعود الحياة فى السكون والظلام والوحدة ، وهو الحركة الدائبة والشعلة المتقدة وزاد من ضيقه أنه كان يقيم هو وخادمه فى حجرة مظلمة يتساوى فيها الليل والنهار ، ويصل إليها الضوء من سرداب طويل شديد الظلمة ، وكانت أرضها ترشح بالماء لانخفاضها وقربها من خليج يمر بالقرب من البلدة .

وكان لا يتمكن فيها من الكتابة أو القراءة إلا على ضوء مصباح صغير

يضاء بالكيروسين الكثير الدخان ، وقد شغل وقته بتعليم خادمه القراءة والكتابة ، وعلمة ما يلزم لمثله من أنواع المعارف ، مكافأة له على ملازمته إياه وخدمته له .

وفى ذات يوم جاءه فى مخبئه « الشيخ محمد الهشرى عمدة (العتوة القبلية وهى إحدى قرى مديرية الغربية) - بخطاب من الشيخ القصبى - لأنه أحد أتباعه — يقول فيه للنديم « قم معه ولا تبرح من عنده حتى يأتيك إذنى » وأطاع النديم وخرج مع الرسول ، ولما خرج ليرى النور لم يستطيع الأبصار، لطول ماأمضى من وقت (أربعة أشهر) فى ظلمة حالكة ، ولم يمض على مغادرته مخبئة فى منزل الشيخ الأزهرى بضع ساعات ، حتى اقتحم رجال الشرطة الدار ، وفتشوها ودخلوا هذه الحجرة المظلمة ، ولكن العصفور كان قد طار ... ؟!!

ومكث النديم ضيفاً على الشيخ محمد الهشرى مدة كبيرة تبلغ عدة سنوات ورغم أن بيت العمدة كان يقيم به حين ذاك أكثر من أربعين شخصاً ، فلم يكن يعلم عنه أحد شيئاً ، سوى أنه رجل من أشراف جروان ، يقيم بالبيت ليعلم بعض العلوم الشرعية ، ولم يكن يخرج من الحجرة المخصصة له ، بدعوى أنه من المتصوفين الذين يؤثرون العزلة وقد نعم بمنزل العمدة بنوع ما من الاستقرار ، لأن مضيفة رجل من رجال الحكومة ولا يتطرق الشك إليه لأنه هو نفسه مكلف بالبحث عنه !! وقد تسلح النديم بسلاح القراءة والتأليف لقتل رقاب الفراغ والوحدة .

ولنتجول خارج عالم النديم بعيداً عن مخبئه ، لنتسمع ما يدور بشأنه من أحاديث وإشاعات ، فقد أصبح أسطورة من الأساطير ، فالحكومة بقواتها ورجالها لم تستطيع القبض عليه ، فأطلق رجالها الإشاعات يبررون عجزهم ، بهربه إلى الخارج وحيناً آخر يشاع عن القبض عليه وإيداعه فى سجن دمنهور ثم قتله جزاء ثورته على الخديو .

أما جمهور الأهلين فقد نسجوا حوله القصص ، وأصبح فى نظرهم بطلا من أبطال المغامرات ، بل جعله خيالهم قادرا على كل شىء كالأولياء وأصحاب الكشف ... ؟ ألم تعجز الحكومتان المصريه والإنجليزية عن القبض عليه ، لقد صارت القصص المنسوجة حول اختفائه حديث المجالس يسمرون بها ، فى الندوات والمقاهى والاجتماعات المختلفة ومما جاء فى بعض هذه ، أنه هرب مع العرب وخرج إلى الصحراء العربية ومنها إلى المغرب الأقصى حيث يعيش هناك ، وآخرون قالوا أنه مات شهيد الوطنية فى معركة التل الكبير ومنهم من قال إنه لاجىء فى بيت أحد قناصل الدول الأجنبية .

ثم قصة أخرى تدعى أنه كان مختفياً فى بيت رياض باشا وزير الداخلية نفسه الذى أصدر أمرا بالقبض عليه ، وقد سهل له طريق الفرار بعد ذلك.

وأعجب قصة يرويها النديم نفسه ، أن رجلا دخل المضيفة فى منزل صديقه الهمشرى ، وقال أن عبد الله النديم عند السلطان الآن ، ولما سئل كيف تم ذلك ؟ قال :

« إنه توجه من دمياط إلى الشام بمراكب البرتقال ، ثم سافر من يافا إلى استانبول ، فلما صار فيها ، صعد إلى مئذنة بالقرب من سراى السلطان بين العصر والمغرب ونادى بالآذان ، فلما سمعه السلطان استحضره وسأله عن هذا الآذان ، فقال له : أنا أذنت ليسمع مولانا السلطان ويدعونى إليه ، عبدكم عبد الله النديم المصرى ، فقام السلطان وأخذه بالحضن وقال له :

الحمد لله على سلامتك يا ابنى ، ما أصل حكايتكم ؟ وكيف انكسرت العساكر المصرية ، فقص عليه الخبر من أوله لآخره ، ففرح السلطان به وأكرمه ، وأمر أن يلحق بوظيفة كبيرة ، فلم يقبل الخدمة وقال :

أنا أحب أن السلطان يبعث معى عساكر لمصر ومراكب لتتخلص لنا البلاد من أيدى الإنجليز .

وكانت أخبار الجواسيس المنتشرين فى طول البلاد وعرضها ، للبحث عنه تقض مضجعه،وتجعله فى قلق دائم،متوتر الأعصاب ، مهدداً فى كل لحظة بالقبض عليه ، لذلك كلف أنصاره بإطلاق إشاعة هربة من البلاد ، وبالفعل أطلق صديق أجنبى من أصدقائه (سيرته فيما بعد) إشاعة هربة إلى ليفورنو بإيطاليا ، ومنها إلى فرنسا ، ونشرت الخبر جريدة الأهرام ، وانتقدت رجال الأمن إهمالهم وعدم إحكام رقابتهم على الثائر الهارب ، حتى تمكن من الإفلات من قبضه الحكومة ، وبلغ الأمر كبار رجال وزارة الداخلية ، فقرروا إرسال مندوب خاص إلى ليفورنو للقبض عليه ، فذهب وعاد بخفى حنين ، ثم أرسلت الحكومة من يبحث عنه فى الشام ، وزعم آخرون أنه فر إلى طرابلس الغرب ، وقال آخرون أنه عقب هروبه ، سارع بالسفر إلى سيلان للاجتماع بعرابى ، وقالت إحدى الجرائد السيارة أن النديم ذهب فى الأيام الأخيرة إلى باريس ونشر فيها مقالات عن الثورة العرابية وأسباب إخفاقها ، وندد بالمصريين ونسب إليهم الضعف والجبن والاستسلام لقوات الاحتلال ،

كان من نتيجة هذه الإشاعات أن خف البحث عنه نوعاً ، وصدقت الحكومة أنه هرب من البلاد ، وكان صديقه الأجنبى آنف الذكر يملك عزبة قرب « العتوة القبلية » وهو المسيو فيلكى ، لم يهاجر إلى بلاده مع من هاجر إلى الخارج من الأوربيين ، بل ظل يرقب الأحداث ويكتب عنها شاهد عيان، وقد انقطعت صلاته بهذا الصديق منذ هربه بعد هزيمة الثورة العرابية ، ورغب فى أن يتصل به ، ففكر بأن يبعث له رسالة يدعوه فيها (لزيارته ، حتى يستعين برأيه فى بعض ما يصادفه من مشكلات ، ويطلب منه بعض المؤلفات يعالج بها الفراغ القاتل الذى يعانيه ، واختار لذلك الشيخ محمد الهمشرى الذى ارتاع من هول هذه المغامرة ، التى ستجر الأنظار إليه ،

وفيها ما يتهدد مصيره هو أيضاً ، وكيف يأتمن سر حياته شخصاً أجنبياً وهو لم يفشه إلى أقرب المقربين إليه ؟ .

ولكن النديم شجعه وطمأنه ، وبعد جدال دام ساعتين ، قبل الشيخ الهمشرى أن يحمل رسالة إلى الأجنبي صاحب الضيعة ، وأن يخبره بمكان النديم ، وذهب العمدة حاملا الرسالة يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، يدفعه الأمل فى وفاء الأجنبي وتؤخره وساوس نفسه من أنه حامل حكم إعدامه ، وأعياه التفكير على أول حدود الضيعة وتنازعته أمور كثيرة ، وهم أن يعود راجعاً على أعقابه ، لولا بضع من جرأة جعله يستمر فى السير ، حتى وصل إلى بيت الخواجه ، ولما دخل وجد عنده بعض الأجانب وثلاثة من مشايخ البلاد المجاورة ، وبعد التحية قدم له الرسالة فقرأها الفرنسى وهو منفعل غاضب ، ولما فرغ من قراءتها ، أعطاها لزوجته فقرأتها بدورها وأعادتها إليه ، فما كان منه إلا أن مزقها إرباً ورمى بها ، وقد وجف قلب العمدة لما رآه ، وأخذ يدق قلبه دقات الاضطراب والخوف وينتظر كلمات الموت أو الحياة من بين شفتى الخواجة ، وأخيراً ظن أن ما تخوفه قد تحقق فقد نظر إليه شزراً وقال بلهجة عنيفة : (قل له أنا لم أعطك هذا المبلغ لتتصرف فيه لزيد أو عبيد ، ثم تعتذر بالضرورات ، فاحفظ لى حقى عندك حتى آتيك ونتحاسب ، وإياك أن تمد يدك إلى بنك أو خواجة غيرى ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت فى شرك المحاكم ، وحكمت عليك بما لا ترضاه) ثم انصرف يتحدث مع ضيوفه الأجانب ، وظن العمدة أنه سيخبرهم عن النديم ، فامتلأ قلبه خوفاً ، وانحى باللائمة على نفسه ، لإقدامه على مثل هذا العمل ، وأخرجه من تفكيره صوت الخواجة يقول له : « تفضل انت وقل له ما سمعت » ،

وخرج العمدة وهو لا يكاد يرى الطريق مما يدور فى ذهنه ، وما يحتمل

فى نفسه من اضطراب ، وسار مهموماً مكروباً تدور به الدنيا ، لا يفهم من الموقف إلا أن الخواجة غاضب وأن السر قد ذاع وأنه لم يحفظ الأمانة التى أودعها إياه شيخه شحاته القصبى ، وحينما عاد العمدة إلى النديم لم يجده بأسعد حال منه إذ أنه كان يفكر أيضاً فى الأمر ، وفيما إذا كان العمدة سيخفق فى مهمته أو ينجح ، ولما قص عليه ما حدث سرى عنه ، ولم تخب فراسته فى الصديق القديم، وأوضح للعمدة أن الخواجة التزم هذه اللهجة معه فى حديثه ، ليصرف أفكار الحاضرين .

وحدث ما لم يكن فى الحسبان ، فبينما النديم والعمدة ينتظران ما تخبئه لهما الظروف على يدى الخواجه ، جاء مأمور المركز ونزل بمضيفة العمدة ، وسرت الهواجس من جديد فى قلب العمدة ، ولعبت به المخاوف ، فلعل الخواجة اتصل به وأخبره بمقر النديم ، وقد جاء للقبض عليهما معاً ، وخرج إليه العمدة ورجلاه لا تكادان تحملانه ، وبين لحظة وأخرى كان ينتظر أن يفاتحه المأمور فى الأمر أو يصدر أمراً بتفتيش المنزل ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ولم يشر إليه من قريب أو بعيد ، وأخذ الاطمئنان يعاود قلب العمدة قليلا قليلا ، إلا أن مفاجأة جديدة حدثت ! ! أضافت إلى الموقف رهبة جديدة،فقد ظهر على باب المضيفة رجل فى هيئة مشايخ القبائل ، يلبس جبة وقفطاناً وعمامة ومتلفعاً بحرام أبيض، وما أن رأى المأمور حتى عاد أدراجه ودخل قاعة أخرى ، وذهب العمدة ليرى الزائر الغريب ولشد ما كانت دهشته عندما وجده الخواجة ، فانتابه شعور غريب هو شعور الفرح بصدق الخواجة وكتمانه سره ، وشعور الخوف من أن يرتاب المأمور فى الزائر فيسعى إلى معرفة الخبر ، وعاد العمدة إلى المأمور فلم يجد لديه أثراً للشك أو الريبة ، فقاد الخواجة إلى باب الحريم ، ثم دخل به إلى حجرة النديم ، فما أن رآه حتى عانقه عناقاً طويلا يتخلله ضحك وبكاء ،

ثم جلسا وأخذ النديم يروى له ما مر به من ظروف وأحداث ، وقد أدى هذا الخواجة للنديم خدمات كبيرة ، فكان يطلعه على أخبار السياسة فى البلاد الأجنبية ويشترى له الملابس والسجاير وأدوات الكتابة والصحف ، ويؤنسه فى وحدته ويناقشه فى السياسة والدين ويعاونه فى التأليف ، وقد بعثه النديم إلى أصدقائه القدامى وأقاربه ليتعرف على أحوالهم وظروفهم ، خصوصاً إخوان المعركة وزملاء السلاح ، وقد جاءه الخواجة ذات يوم يخبره أنه قرأ فى الصحف الإنجليزية أن مجلس العموم البريطانى استطاع أن يصدر قراراً بإعادة مناقشة أسباب الثورة العرابية وتدخل إنجلترا المسلح ، وأن المعارضة البريطانية قدمت من القرائن والمستندات ما يثبت خطأ الحكومة البريطانية فيما أقدمت عليه ، وأن ما قام به عرابى كان ثورة وطنية حقيقية تعبر عن آمال الشعب المصرى ، وقد أنبأه أيضاً أن الجواسيس ورجال الحكومة يضايقون أباه مصباح وأخاه عبد الفتاح ، وقد اتهموا الأخير بتأليف جمعية سرية تسمى (الجمعية الإعدامية) ومن أغراضها اغتيال الأشخاص الذين ناصروا الاستعمار الإنجليزى ، ومن ثم حددت إقامته .

وكان من الشخصيات الأخرى التى يستخدمها النديم فى الاتصال بالعالم الخارجى صديقه الشيخ الأزهرى الذى آواه أول أمره فى منية الغرقا ، فكان يكتب له خلاصة الأخبار وجميع ما يجرى فى مصر ، ويزوره فى مخبئه عند الشيخ الهمشرى ومعه الكتب العلمية وكان يشترك هو والشيخ شحاته القصبى ، والشيخ مصطفى كأعضاء فى جهاز إخفائه كما ذكرنا آنفا ، وكان هذا الجهاز يعمل على الوقوف على ما تبيته الحكومة بشأنه ويطلعه عليه أولا بأول حتى يكون على بينة وحذر .

وكان الشيخ محمد الهمشرى رسوله الدائم إلى رئيس الجهاز شيخ الطرق

الصوفى محمد شحاته القصبى ، يذهب لتلقى التعليمات منه ، وفى ذات مرة طلب إليه النديم أن يسأل شيخه إلى متى يظل فى محنته ، لعل الشيخ بصفاء قلبه وكثرة عبادته يكشف الحجب عن المستقبل ، فيجيبه الشيخ على لسان الرسول : (دع عنك هذه الوساوس والأوهام ، واشتغل بطاعة الله تعالى ، وأكثر من ذكر الله ليلا ؛ فإنه ينير الباطن ويصفى القلب ، ولا تعلق أملك بخروجك فى هذا العام أو الذى بعده أن الأمد طويل وعلمه عند الله) .

مكث النديم عند الهمشرى أكثر من عامين وفاجأه موت مضيفه ؛ فكانت فجيعته فى صديقه شديدة . وفقد بموته الأمان على نفسه ؛ فقد أصبح مصيره معلقاً فى يد القدر إذ لا يعلم بأمره فى المنزل إلا زوجة العمدة المتوفى، وحتى أولاده الكبار لا يعرفون شيئاً عن حقيقته وأقل هفوة منهم . أو من أحد من أهل المنزل وعددهم يربوا على الأربعين قد تكشف سره ، ولكن صاحبة الدار حسمت الأمر بسرعة ، وكانت على مثال زوجها مروءة وشهامة، فجاءت بأكبر أبنائها صاحب المسئولية الأدبية عن الأسرة بعد أبيه، وكان شاباً لم يتجاوز الخامسة عشرة وأخبرته أن ضيفهم المختفى عندهم هو عبد الله النديم الزعيم الوطنى الذى جعلت الحكومة لمن يدلها عليه ألف جنيه . ثم قالت : « أفتريد أن تكون كأبيك فى حفظ الجار وحماية الذمار فتؤويه وتكرم مثواه . أم ترغب فى حطام الدنيا فأكون بريئة منك إلى يوم الدين؟» فقال لها : « حاشا لله أن أخفر ذمامى فسترين أنى أحافظ عليه محافظتى على عرضى. ولن يصل إليه أحد بسوء ما دمت حياً » فباركته والدته وأكرمت فيه شهامته وحزمه . وقد أحست المضيفة وابنها بالفراغ الذى تركه موت العمدة صديق النديم وجليسه وبالوحدة وبالوحشة التى يقاسيها فى وحدته ، فتخيرا له الشيخ خليل مأذون القرية وأخاه الحاج شاذلى حلاق الصحة

يزورانه من وقت لآخر للحديث معه ومسامرته متعرضين للخطر بالدخول عنده وإخفاء سره رغم المغريات على إفشائه .

— ٨ —

ولقد كان فى حاجة ماسة إلى من يقوم على شئونه الخاصة فى مختبئه ، وإلى قلب حان يعطف عليه ، ويسرى عنه عذابات المحنة ومضايقاتها التى يعيشها طوال هذه الأيام ، وبلغ من كرم أسرة الهمشرى منتهاه، فزوجوه ابنة صديقه العمدة المتوفى، وزوجوا خادمه بواحدة من أتباع الأسرة . وعلى مر الأيام تسرب إلى بعض من أقارب الأسرة،أن هناك هارباً من الحكومة — لا يعرفون من هو — ، مختبىء فى بيت الهمشرى ، وحين نشبت خلافات وحزازات بينهم وبين هؤلاء الأقارب ، أجمعوا أمرهم على إبلاغ الحكومة وجاء رسول الخير يحمل إلى أسرة الهمشرى نبأ مابيت الخصوم لها ، وما أجمعوا عليه أمرهم ، فأسرع النديم بالهرب . وخرج ليلا من الباب الخلفى للمنزل حتى لا تراه العيون الراصدة ، وخرج معه الشيخ خليل مأذون القرية ليدله على مسالك الطريق فى الظلام ، وسارا يضربان فى الليل على غير هدى حتى ابتعدا عن منطقة الخطر .

ومرة أخرى يحالف الحظ النديم — وما أكثر ماحالفه أيام الاختفاء — فلم يكد يبتعد عن قرية (العتوة القبلية) حتى جاءها البوليس وهجم على بيت الهمشرى يبحث عن ذلك الهارب المختبىء فلم يجد له أثراً . وطير الخبر إلى الشيخ القصبى فأخذ أتباعه ومريدوه يرقبون النديم وهو يجوس الديار ويعترضون طريقه ، ويقدمون إليه فى خفية ماهو فى حاجة إليه من طعام وكساء ومؤونة الليلة والليلتين ، وكانت هذه الفترة، من الظروف العصيبة المشحونة بالمفاجآت والأزمات ، لاسيما وقد انتشر فى هذه المنطقة الجواسيس

وزادت دوريات البوليس بعد البلاغ الذى تلقاه المسئولون عن الهارب المختفى ! ! !

شهامة ضابط

وذات مرة أثناء سيره أبصر من بعيد ضابطاً ومعه قوة من الجند تقوم بدوريتها على ظهور الجياد ، فانحرف إلى طريق آخر ظناً منه أنه سيكون بعيداً عن أنظار القوة ، ولكن الضابط أبصر به ولاحقه ثم ترك أفراد القوة بعيدا وجاءه بمفرده ، ثم أمره بالوقوف ، فلم يمتثل وظل مستمراً فى سيره ، أخيرا ضيق عليه الخناق وهدده بإطلاق النار عليه وقال له قف ولا تخف أنا أعرفك أنك النديم الثائر الهارب . . فلم يكن له بد من التسليم ووقف وأخذ يتمتم قائلا (الأمر لله . لله الأمر . لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) ونزل الضابط من على صهوة جواده وسار معه إلى مكان بعيد عن الأنظار حتى لاتفطن القوة إليه ، والنديم صامت حزين لايعرف أين مصيره . واستمر برهة ثم فاجأه الضابط بأن طمأنه على حياته وقال له إنى أعرفك أنك النديم رجل الثورة العرابية ، وأنا ممن يقدروك ولن أعرضك للخطر ولن أساعد الذين يرغبون فى إيذاءك ، رغم أن هذا سيحرمنى من مكافأة كبيرة ، وترقية ومستقبل عظيم لى ، وأنى أهب لك الأمان وهذا كل مامعي ـ وأخرج من جيبه ثلاث جنيهات كانت فى محفظته وساعته ثم أردف قائلا (ولو أنى شركسى الأصل ولكنى عربى المروءة والشهامة ، ومحال على أن أستغل فرصة لقاءك وأقبض عليك) ـ ثم أرشده إلى طريق أمين ، يستطيع به أن ينجو من دوريات الجنود والجواسيس التى تبحث عنه وحياه وطلب دعوته وانصرف .

وفى هذه الفترة كان النديم دائم التغيير والتبديل فى هيئته التنكرية وقد استغل فى ذلك خبرته القديمة فى التمثيل واتقانه فن التنكر ، ومقدرته على التحدث

بلهجات عربية مختلفة . فكان يدخل كل بلد بلباس مخصوص ويتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواه التى يدعيها،سواء ادعى أنه مغربى أو يمنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى ثم يصلح لحيته إصلاحا يوافق دعواه ، فيطيلها حينا عند دعوى المشيخة ويقصرها حيناً آخر حين دعوى السياحة ، ويبيضها فى بلد ويحمرها فى قرية ويسودها فى عزبة .

وكان انتشار الجواسيس ، وتراتر الأراجيف سبباً فى فتور بعض إخوانه وأصدقائه ، فقد داخلهم الخوف والرعب ، وقعد بهم عن معونته ، ولكنه واجه ذلك كله بثبات وتجلد للمحن ، وقابل الأعاصير بقلب عامر بالإيمان لا يرهب النوائب .

ولقد بلغت الأسماء التى انتحلها أكثر من عشرة . منها يوسف المدنى ، محمد الفيومى ، على اليمنى ، سى الحاج على المغربى ، والسبكى ، والغزى ، والتاجى ، والمصرى والشرقاوى والنجدى .

وقد ساعده على إجادة التنكر ، حسن حديثه ولطف مسامراته وحلاوة ملقاه ، وبلاغة قوله ، وذلاقة لسانه مما جذب إليه القلوب ، فلم يبال أحد من الذين استضافوه من معارفه ، بما كان يتهدده فى هذا السبيل الشاق من مخاطر جسيمة ، والوقوع تحت طائلة العقوبات التى فرضتها الحكومة على من أخفاه .

لقاء مع رجال المباحث

وفى ذات مرة بينما كان على رصيف محطة طنطا معتزماً السفر إلى المحلة الكبرى ، تنبه رجال المباحث إليه فاقتربوا منه يراقبونه ، فسرعان ما أعانته قريحته المتوقدة أن يبدأ بسؤالهم عن ميعاد القطار وأسئلة أخرى ، ثم استطرد فى الحديث معهم حتى أخذهم بسحر حديثه وطلاقة لسانه ، وأخذ

يتطرق معهم إلى الحديث فى أمور الدين والمعاش حتى أدخل فى روعهم أنه من كبار أئمة الدين ، وأخلى من نفوسهم كل شك من ناحيته وتبدل شعورهم إلى احترام وإجلال نحو رجل الدين الكبير ، ولما حان موعد القطار انحنوا على يديه يقبلونها ثم حملوا أمتعته ووضعوها بجواره فى القطار وودعوه وداعاً كريماً جليلا .

وكان النديم دائماً يستعين بذكائه وسرعة بديهته ، يسعفانه إذا ألمت به مصيبة أو أحاط به مخبرون ، دون أن يظهر عليه أى أثر للارتباك .

مساجلات أدبية مع مدير الغربية

ظل كذلك حوالى ثلاثة شهور بعد أن ترك منزل الهمشرى عمدة العتوة ، ثم ألقى بعصا الترحال فى قرية (الكوم الطويل) من قرى مديرية الغربية وأقام بها على أنه رحالة أقبل من المدينة المنورة ويدعى الشيخ يوسف المدنى .

وأخذ يدرس الفقه والتوحيد فى مسجد القرية ، ويخطب الناس يوم الجمعة . وصار الضيف إمام القرية يتكلم بلهجة أهل المدينة فيقبل عليه الناس ويبالغون فى إكرامه تبركا به وللمكان الذى جاء منه ، ونعم فى هذه البلدة ببعض الاستقرار ، وكان دائماً يجلس فى مندرة العمدة ليحدث الضيوف حديثاً ممتعاً فى الشئون الاجتماعية والدينية والأدبية حتى أنس له الجميع وأحبه الجميع وعاش بملابسه التنكرية حياة عادية لاخفاء فيها ، ولحق به خادمه ، ولكن زوجته الهمشرية لم تلحق به ومرضت ولحقت بالرفيق الأعلى فحزن عليها حزناً جماً ، لما أولته من حب وعطف وحنان .

أقام بهذه البلدة ثلاث سنوات ولم يداخل أحد الشك فى شكله وهيئته أو لهجته ولم يعرف حقيقته إلا جهاز الإخفاء .

وذاعت شهرة الشيخ المدنى كعالم وواعظ وفقيه ومحدث ، وصار يدعى إلى مجالس الأعيان والشيوخ فيها ، وزار البلدة مصطفى باشا فتحى مدير الغربية وقتذاك ، فاجتمع به فى منزل العمدة ، ودارت بينهما مناقشات طويلة وأحاديث متنوعة فقال : مصطفى باشا لجلسائه على أثرها :

(لولا علمى بأن النديم قد مات وانقضت أيامه لقلت أنه هو هذا الرجل بعينه ولكن جل من لاشبيه له) ولم يكتشف المدير من أمره شيئاً .

فى ضيافة أحمد باشا المنشاوى

وأحس جهاز الاختفاء أن شهرة النديم قد ذاعت ، والشهرة غالباً ماتجلب وراءها البحث والتقصى والحسد ، وزيارة المدير وتعقيبه على المناقشات بينه وبين النديم قد يثير فى النفوس بعض الشكوك فجاء الأمر إلى النديم بالرحيل ، فانتقل إلى المحلة الكبرى ومكث فيها نحو ٣٠ يوماً ثم عاد إلى منية الغرقا (مركز جهاز الاختفاء) وأقام بها ثلاثة شهور ثم قصد سنهور ، والعجورين ثم القرشية ونزل ضيفاً على أحمد المنشاوى باشا فى زى يمنى وادعى أنه عالم يدعى الشيخ اليمنى وكان المنشاوى باشا من أعيان مديرية الغربية ، وكان من أنصار الثورة العرابية أمدها بالمال والمؤن والرجال ، وعفت عنه سلطات الاحتلال بأسباب حمايته للأوربيين والأجانب المقيمين فى طنطا من فتنة دينية كادت أن تنشب رحاها . وفى الغالب أن شخصية النديم كانت معروفة للمنشاوى باشا وكتم أمره وتظاهر بتصديق تنكره من أنه عالم يمنى .

وكان مجلس المنشاوى مجلس علم وأدب يؤمه الأدباء والشعراء ، ومن بينهم محمد التميمى صديق النديم ، وبدأ الشيخ اليمنى يأخذ مكانه بينهم ، يناقش العلماء ويناظر الأدباء ، ويتغنى بالشعر ، وأخذ صيته ينتشر حتى وصل

القاهرة وسمع عنه رياض باشا رئيس الوزراء وأرسل إليه الشيخ سعد زغلول (سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصرى) ليسأله عن مثل يمنى مشهور قرأه فى أحد الجرائد اليومية آنذاك».

فى البكاتوش

قضى النديم فى ضيافة المنشاوى باشا خمسة شهور. تزوج خلالها بزوجته[1] الثالثة بنت مصطفى أفندى منى من أهالى المحلة الكبرى.

ثم رحل من القرشيه زاعماً التوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولكنه كر راجعاً إليها، متخفياً فى زى أهل المغرب وادعى أنه من أهلها وسمى نفسه (سى الحاج على المغربى) ونزل ضيفاً على صديقه القديم الشاعر محمد التيمى وأقام عنده شهراً ثم انتقل إلى الدلجون إحدى قرى مديرية البحيرة ومكث بها شهرين ثم قصد البكاتوش وكان يقيم تارة عند عمدتها الشيخ ابراهيم حرفوش أحد أنصاره الوطنيين وتارة أخرى عند جاره أحمد جوده الذى أصبح دليله فى الليل يصحبه إذ أراد الانتقال من بلد لآخر، ويتجشم معه السير فى أضيق المسالك لقوة بنيته.

ثم جعل النديم إقامته بين البكاتوش وشباس الشهداء، يقيم عند محمد معبد الحلاق فيكرمه، ثم انتقل عند صديقه الأديب الشاعر محمد شكرى وكان وقتذاك كاتب مركز دسوق (فى زى حجازى) على أنه ابن عمه جاء زائراً من الحجاز، ولحقت به زوجته هناك وعاش فترة فى كنف صديقه، ثم انتقل إلى «بريئة المندرة» حيث أقام هو وزوجته فى منزل بعيد وسط الحقول وحدهما لايشاركهما فيه أنيس أو أليف، وكان أقرب بيت إليهما

---

(١) الزوجة الأولى تزوجها عندما كان عاملا بالتلغراف بينها والثانية بنت العشرى عمدة العتوة القبلية والثالثة بنت مصطفى افندى منى.

على مسيرة نصف ساعة ، أما خادمه وزوجته فكانا يقيمان فى قرية الجميزة وكان النديم قد جعل لهما راتباً شهريا يعيشان منه .

وفى أثناء وجوده فى قرية المندرة ، ذاق طعم العوز والفاقة ، وساءت أحواله الاقتصادية ، ولما زاره صديقه العالم الأزهرى وعلم بحاله ، أرشده إلى صديق له (وهو شريف إدريسى) ليكتب له ، فلما كتب له شارحا ظروفه بعث له رسالة من جميع مواد التموين التى يحتاجها هو وعائلته عدا الملابس المختلفة بكمية كبيرة تفيض عن حاجته .

القبض عليه

أمضى النديم فى المندرة ما شاء الله أن يمضى فيها ، ثم عاد إلى البكاتوش ولحقت به زوجته هناك ، وكانت زوجته هذه تسىء إليه وتغاضبه فجمعت عليه مع محنة الاختفاء سوء المعاشرة وضاق بها ذرعا مرة ، وهم أن يظهر نفسه للحكومة ثم تراجع وأصلح أمره معها ، ولعلها كانت هى الأخرى تضيق بالاختفاء والوحدة ولذلك طلبت أن تذهب إلى الجميزة فأذن لها ، وما أن استقر بها المقام هناك حتى تشاحنت مع زوجة خادمه ، وكاد يفتضح أمرهما ، وأسرع الخادم إلى سيده بالبكاتوش مستغيثا ، فذهب النديم إلى الجميزة متنكراً تحت اسم « الشيخ إبراهيم الشهاوى » وبقى هناك شهرين استأنس به العمدة وأعجبه حديثه فتغاضى عنه ، وكان يخرج ليتنزه معه دون تنكر ، على غير عادته .

وفى الجميزة التى نزلها النديم كان يقطن رجل اسمه حسن الفرارجى وكان سابقا من جند البوليس السرى ومن الذين اشتركوا فى الحملة التى كانت تبحث عن النديم ، وكان للفرارجى هذا حقل خارج القرية ، ذهب إليه يوما ليرعى شئونه فوجد رجلا يقرأ فى كتاب وقد جلس معه مأذون القرية ، فاشتبه

فى أمره ، ووجد فى مراقبته إلى أن تأكد من شخصيته أنه عبد الله النديم الذى تبحث الحكومة عنه ، فذهب إلى القاهرة واتصل بالمسئولين فيها .

وفى قصر الخديوى ، أنهى إليهم بمعلوماته ، وكتب عريضة يطلب فيها الألف جنيه قيمة المكافأة .. ولكن الواشى لم يجد جزاء وشايته بالنديم لأن المكافأة كانت موقوتة بعام واحد ، واليوم قد مضى على اختفاء النديم أكثر من تسع سنوات وحين تبين لأهل الجيزة فيما بعد وشايته ، قاطعوه ، فعاش مكروها منبوذا طول حياته .

وصدرت الأوامر بالقبض على النديم ، وكلف وكيل حكمدار الغربية بالقبض عليه (محمد افندى فريد) الذى تنكر فى زى تاجر من تجار القطن ، وذهب إلى الجميزة فى ٢ أكتوبر سنة ١٨٩١ ليلا على رأس فرقة من الجند طوقت العزبة وطلب وكيل الحكمدار من العمدة أن يدلهم على البيت الذى يقطنه الشيخ إبراهيم الشهاوى فأنكر وجود هذا الإسم فى قريته ، واستعان البوليس بالفراجى ليدلهم عليه ، وأحس النديم بحركة غير عادية خارج الدار ، وتوجس خيفة فى نفسه وأراد الانتقال إلى دار أخرى فصعد إلى سطح المنزل ولكنه فوجىء ببنادق الجنود مصوبة نحوه من الدور المجاورة ، فاضطر إلى أن يعود أدراجه ، وتيقن أنه مقبوض عليه لا محالة وفتح باب الدار وواجه البوليس بشجاعة وسلم نفسه .

وقبض عليه وأرسل إلى مركز السنطة ولم يوضع فى السجن بل فى حجرة خاصة وبدأ البوليس فى استجواب خادمه واستعملت معه وسائل العنف مما اضطره إلى الإقرار ببعض أسماء من آووا سيده وأكرموه فى الاختفاء .

وفى صباح اليوم التالى نقل إلى طنطا لتجرى النيابه التحقيق ، وكان رئيسها آنذاك المرحوم (قاسم بك أمين) وقال له : أنت حر فى كلامك

فقل ما شئت ، وأمر بأن يوضع فى حجرة نظيفة وأن يقدم له القهوة والدخان من جيبه الخاص ، وقبض على الذين أدلى خادم النديم بأسمائهم واعترف بأنهم آووه وساعدوه فى الاختفاء .

أما زوجة النديم فقد أرسلت إلى أهلها بالمحلة الكبرى .

أحدث القبض على عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية وأحد زعمائها دوياً فى الصحافة والمجتمع وشغل الدوائر الحكومية فى مصر وانجلترا ، وبدأت الصحافة تكتب مطالبة بالعفو عنه حتى ينتفع الميدان الصحفى بعبقريته وأعاد الذكرى إلى قلوب المصريين — ذكرى الثورة التى كانت تبغى لمصر الاستقلال والحرية والكرامة ثم فشلت !! .

وفى ١٢-١٠-١٨٩١ — قرر مجلس الوزراء برئاسة حسين رشدى باشا إبعاد النديم إلى الشام — والإفراج عن جميع الذين قبض عليهم وسجنوا بتهمة معاونته على الاختفاء مع منحة إعانة مائة وخمسين جنيهاً ليستعين بها فى غربته

الذين عاونوه فى الاختفاء :

هؤلاء النفر كثيرون ، نخص بالذكر منهم فى هذا المقام بعض البارزين منهم ممن لم يضعف من عزائمهم وعد الحكومة ووعيدها ، وعرفوا للتضحية حقها ، وآمنوا بالقيم الاجتماعية والإنسانية وأن الوفاء من شيم الكرماء .

(١) الشيخ شحاته القصبى : من مشايخ الطرق الصوفية ، له أتباعه ومريدوه وهو شيخ ينفق عن سعة ، على نفسه وعلى أتباعه ومريديه ، ومن هنا أحبه هؤلاء وأخلصوا له ، يأمرهم فيطيعون ، ويدعوهم فيستجيبون ، يصف عبد الله النديم هذا الشيخ فيقول : « هو أستاذنا الكامل المولى الفاضل ، الورع التقى ، السيد شحاته القصبى ، وهو شيخ من الصالحين المنقطعين إلى الله تعالى ، ولكنه يأكل من كسبه ، ويقيم ببيته ، ولا يطالب

من الناس شيئا ، ولا يأخذ فوائد من مريديه ، كما يفعل أشياخ الطرق ، بل بيته مفتوح للصادر والوارد ، وكرمه زائد ، وفضله مشهور » .

وكان النديم يستشهد برأيه ويستشيره فى كل أموره ، وخصوصاً ما اتصل بأمر هربه من البلاد إلى الشام ، فكان يثنيه عن ذلك دائما » .

حدث النديم قال : « لم أتقابل معه إلى الآن ، وإنما بعثت إليه من أخبره بمكانى الأول ، وكنت عازما على السفر إلى الشام ، ومنها إلى أوربا ، فمنعنى من الخروج من البلاد ، وأمرنى بالتستر حتى يقضى الله تعالى بالفرج ، وقد رأيت بركة رأيه ، فإن السيد حسن موسى العقاد وسليمان بك سامى ، قبض عليهما فى بلاد الدولة وأنا الآن فى هذا المكان ، معتقداً أنه لا يصيبنى إلا ما قدره الله تعالى وأراده (١) .

وحدث أيضاً قال : « وهذا الذى أخبر صديق محمد الهمشرى بمكانى الأول ، وبعث لى جواباً يقول لى فيه : قم معه ولا تبرح من عنده حتى يأتيك إذنى (٢) » .

وظل الشيخ القصبي راعى النديم وحاميه أول عهده بالاختفاء ، فكان النديم يرسل إليه ، الفينة بعد الفينة — من يطلب منه النصح والمشورة ومن ذلك أن النديم أرسل إليه الهمشرى يوما فجاءه الهمشرى يقول : « إن حضرة الأستاذ الأكبر رضى الله عنه يسلم عليك ، ويقول لك دع عنك الوسواس والأوهام واشتغل بطاعة الله تعالى ، واكثر من ذكر الله فإنه ينور الباطن ويصفى القلب ولا تعلق أملك بخروجك هذا العام أو الذى بعده ، فإن الأمد طويل وعلمه عند الله تعالى ، والشىء الذى استأثر الله

---

(١) كان ويكون ص ١٤٨ ، ٢٤٩ .
(٢) كان ويكون صفحه ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

بعلمه ، لا تشغل نفسك به ، بل اشغل وقتك بما ينفعك ، ولا ينفعك إلا الالتجاء إلى الله تعالى »

(٢) الشيخ محمد الهمشرى ، عمدة العتوة القبلية بمديرية الغربية وكان يأوى النديم لأن شيخه الشيخ شحاته القصبي قد طلب منه ذلك لأنه فى حدقول النديم (يعصى الحكومة ولا يعصى الشيخ لأن عصى الشيخ من عصى الرحمن) .

وكان الهمشرى رسوله إلى الشيخ القصبي والى صديقه الفرنسى . وقد أكرم مثواه ورعاه فى منزله ، مقيما بين أفراد عائلته كأنه أحد أفرادها ، زهاء ثلاث سنوات حتى لقد تزوج فى هذا البيت وأنجب بنتاً وماتت ولم يشعر به أحد : حتى إذا مات الشيخ محمد الهمشرى رب العائلة ، وكانت زوجته مثله فى المروءة والشهامة ، استحضرت ابنها الأكبر ، مشفقة حزينة حازمة رفيقه . وقالت له : « يا بنى إن المرحوم والدك كان كريما برا بالضيف المقيم بيننا السيد عبدالله النديم ، أسكنه معنا وأصبح فرداً من أفراد الأسرة لم يعطف عليه كمسكين غريب لا مأوى له ، بل عامله كضيف عظيم يشرف اكرم بيت باستضافته ، وقد اعتبر والدك ان هذا هو أقل واجب يؤديه نحو زعيم من زعماء الوطن ، أضير فى سبيل مبادئه ، وحكم عليه ان يظل هكذا هائماً طريدا لأن الحكومة الاستعمارية حاربته ، ورصدت مبلغ ألف جنيه لمن يدل عليه ، وهكذا ترى يا ولدى مقدار ما أحاق بهذا المجاهد النبيل من ظلم واضطهاد ، ومنذ طورد وهو لم ينعم بظل وارف يأوى إليه ، وكفاه أن سلب طمأنينة البال ، واستقرار النفس ، فهل تقبل يا ولدى أن ترعى الذمار وتحافظ على عهد المرحوم والدك ، أو تكون ضمن هؤلاء الذين أغراهم المال عن الوفاء ، وخدعتهم الحياة الدنيا وزخرفها عن الحياة الآخرة ، وهل تريد أن تخسر جزاءك عند ربك وجزاءك من وطنك ...

فتأثر الإبن من هذا الحديث وتحمس نحو الاحتفاظ بعبد الله النديم

وأخلص نحو عهد والده ، وظل النديم مقيما مطمئناً بمنزل هذه العائله ، ولعمرى فإن ما أتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وعلو الهمة لما يندر مثله فى ذلك الزمن .

فى المنفى

اختار النديم « يافا » من ثغور فلسطين مقراً له فى منفاه . فسافر إليها من الإسكندرية على صورة من التكريم والإجلال ، وشيعه أهله ومحبوه من أهل الثغر وجمع غفير من المواطنين ومنهم محافظ الأسكندرية عثمان باشا عرفى ونقلت الصحف والبرق خبر إبحار النديم إلى « يافا » وحين وصل إليها فى ١٥ / ١٠ / ١٨٩١ ، استقبله على الميناء عدد كبير من العلماء والأدباء والأعيان ثم استضافه السيد على أبو المواهب مفتى يافا وأقام عنده النديم شهراً ، ثم اتخذ لنفسه داراً خاصة أصبحت منتدى عاماً لأدباء الثغر وعلمائه ، وصارت تعقد فيها الجلسات العلمية والأدبية .

ولم يلبث النديم طويلا حتى جاءه خبر وفاة الخديوى توفيق وتولى الخديو عباس الثانى الحكم وعفا عنه فى ١٨٩٢/٢/٣ ، وأباح له العودة حين يريد ، وكان قد استهواه حديث جلسائه من أهل فلسطين عن الأماكن المقدسة فعزم على زيارتها قبل أوبته إلى وطنه ، وبالفعل خرج مع صديق له من أعيان يافا فى مارس سنة ١٨٩٢ وسارا حتى وصلا جبل الطور المسمى جبل جارزيم واتصل بالسامريين . وزار قبور أنبياء بنى إسرائيل ، ثم مرا بعدة قرى ، إلى أن وصلا نابلس فلبثا فيها يومين بين حفاوة علمائها ، وبعدها زارا قبر يوحنا المعمدان ، ومدينة الخليل وبيت لحم والمسجد الأقصى ، واحتفى به متصوف القدس الشريف وقتذاك إبراهيم حقى باشا ، وختم رحلته بزيارة قبر النبى موسى فى مايو سنة ١٨٩٢ .

ولقد كتب إلى صديق له (عزمنا على الحضور بعد العيد إن شاء الله تعالى ، فإن موسم سيدنا موسى الكليم يعمل فى نصف شوال ، ولن أحضر حتى أزوره مرة ثانية فإنه صاحب الأمر بالعفو عنى - وذلك إنى عند دخولى حضرته الشريفة أنشدته فى الحال :

رجوتك يا كليم الله حاجا   أرجيها وقد حققت فضلك
فقل لى مثلما لك قبل أوحى   إله الخلق قد أوتيت سؤلك

عودته إلى مصر

كانت الظروف التى تولى فيها عباس ظروفا دقيقة ، فقد دعى من فيينا ليتولى الحكم فى مصر فى الثامنة عشر من عمره ، والاحتلال قد أرسى قواعده فى البلاد ، وتمكن الإنجليز من وضع أيديهم على كل شىء ، ولكن عباس شاب وطنى لقن آراء الاستقلال والشعور بالوطنية ، وقد عزم على استرداد حقوق البلاد فقد كان ناقماً على جده إسماعيل إسرافه وعلى أبيه توفيق استسلامه وشعر أن شباب الأمة يجاريه هذا الشعور .

وفى ذلك الوقت كانت فرنسا تشعر بخطئها فى سياستها الماضية التى آلت إلى ضعف نفوذها فى مصر فأخذت تبحث عن طريقة لاسترداد بعض ما فقدت فرأت أن يكون من هذه السبل الالتفاف حول عباس ، وتركيا كذلك تأسف هذا الأسف وتتجه هذا الاتجاه - وكل هؤلاء يطالبون بالوفاء بوعد الإنجليز بالجلاء .

والحكومة الإنجليزيه تلوح من طرف خفى للخديو أن يتبع سياسة والده فى مسالمتهم .

وأخذ الخديو عباس يتصل بالشعب ويقوى نفوذه عن طريق الرحلات إلى المديريات ومقابله الأعيان وزيارة المعاهد والمدارس كما أخذ يميل إلى

مباشرة الأعمال بنفسه ، بالاتصال بالمديرين وتكليفه المختصين كتابه التقارير عن حالة التعليم والجيش ونحو ذلك .

وعند ذلك بدأت تظهر فى البلاد تيارات مختلفة وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفة وبدأت تتجلى بوضوح اتجاهات الصحف .

هذه تؤيد الحركة الوطنية وتناصر الميول الخديوية وهذه تؤيد السياسة الإنجليزية إما رغبة فى الاستفادة وإما عن عقيدة أيضاً .

وفى هذا الأفق الملبد بالسحب ظهر « عبد الله النديم » ثانية وقد سمح له الخديو عباس بدخول مصر فمكث قليلا يدرس ما فاته من شئون مصر مدة غيابه ثم عزم على استئناف جهاده الصحفى وأنشأ جريدة « الأستاذ » وظهر العدد الأول منها فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ ، يتولى هو تحريرها ويتولى أخوه إدارتها . وقد كتب فى أول عدد منها أنها لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية أما السياسة من حيث هى فن فإنها تدخل فى موضوعها العلمى .

وكانت تعد فى أول أمرها امتدادا لجريدة « التنكيت والتبكيت » من حيث موضوعها وأسلوبها لعنايتها بنقد العيوب الاجتماعية فى المجتمع المصرى ثم هى بعد ذلك لا تنفك عن تناول الموضوعات السياسية والتعليق على كل ما يحدث فى الأفق السياسى من أحداث .

ثم ارتفعت نغمتها شيئاً فشيئاً فى الميدان السياسى ومناصرة الحركة الوطنية ومؤازرة الخديو عباس ومناهضة الاحتلال حتى بدا ذلك واضحاً فى العدد الصادر فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ فيفتتح العدد بمقال جرىء عنوانه « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وهى كلمة تتردد على لسان بعض الأوربيين يخاطبون بها الشرقيين ويقع المقال فى ست وعشرين صفحة من أقوى ما كتب ، يصف فيها حالة الغرب وحالة الشرق ووسائل الاستعمار ، ويندد بالغربيين فى أساليبهم وبالشرقيين فى غفلتهم ثم يدعو إلى الالتفاف حول الخديو ومطالبته بالمحافظة على حقوقه .

واستمر على هذه النغمة فى الأعداد التالية . فقد كانت مقالاته صدى لما يحدث من أزمات ،وفى تلك الأيام بعينها ، اشتد الجفاء بين الخديو واللورد كرومر لأنه فى ١٥ /١/١٨٩٣ أقال مصطفى باشا فهمى منتهزاً فرصة مرضه وعهد إلى حسين فخرى باشا فى تشكيل الوزارة فعارض اللورد فى إقالة مصطفى فهمى دون أخذ رأيه ، واشتد الأخذ والرد ، وأنذرت انجلترا الخديو إنذاراً شديدا ، وانتهت المسألة باستقالة حسين فخرى وتعيين رياض باشا حسب إشارة اللورد كرومر ، وانتشر الخبر بين أفراد الشعب فأقبلت الوفود على الخديو فى ٢٨ يناير تلقى الخطب فى تأييده فى موقفه ، وظهر أثر ذلك واضحا فى الجرائد التى تناصر الحركة الوطنية .

وبصفة عامة فإن مقالاته بالأستاذ كانت صرخة مدوية أخرى حاول بها إيقاظ مصر كى تتنبه لما يحدق بها من أخطار ، وعالج فى هذه المقالات موضوعات اجتماعية وسياسية ، وخلقية، لم تخطر على بال أحد من قبل ، فتراه يتكلم عن التعليم وأثره فى الحضارة والعمران ، وما يجلبه الجهل من الآفات الاجتماعية والعلل الأخلاقية ويعدد هذه المثالب ويبين أثرها فى تأخر الأمة ، وتارة يحث أبناء مصر على الاتحاد والتآزر والالتفاف حول الوطن والأمير والسلطان والتنكر للأجانب مهما كان شأنهم وذلك فى مقالة « هذه يدى فى يد من أضعها » .

ولما أخذت نغمة النديم فى الأستاذ تعلو بنقد الانجليز صراحة فى سياستهم الاستعمارية فى الهند وفى غيرها من البلدان طلب اللورد كرومر من الخديو عباس نفيه فأطاع ولم يستطع حماية من كان يحميه ويدافع عنه ، وودع الأستاذ قراءة فى آخر عدد صدر فى ١٨٩٣/٦/١٣ فكان عمره أقل من عام ، ولم يذكر فى وداعه السبب الحقيقى الذى من أجله أوقف الأستاذ عن الصدور وقال فى خاتمة وداعه .

وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من غصمة وجلال وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما دواع تعددت فالسلام عليكم

فى منفاه الاخير

خرج النديم إلى يافا حيث كان قبل عفو الخديو عباس عنه ، ورتبت الحكومة المصرية له معاشاً قدره خمسة وعشرون جنيها شهريا ، ليعيش منها على شرط أن يلتزم الصمت ويمتنع عن نشاطه الصحفى السياسى ، ولكنه ما لبث فى منفاه زهاء أربعة شهور حتى وشى به الوشاة بأنه يطعن فى سياسة الدولة العثمانية ، ويلمز السلطان فصدر الأمر بأبعاده أيضا .

فأخذ يذرع الأرض لا يعرف أين يستقر ، فلا مصر تقبله ولا أى أرض من أراضى الدولة العثمانية تقبله ، ونزل الاسكندرية أياما حتى تحل مشكلته ،

ولقد درج كثير من أحرار الأتراك على السفر إلى أوربا وإنشاء الجرائد التى تنقد سياسة السلطان وتطالب بالدستور وإصلاح شئون الدولة ، فكان من سياسة عبد الحميد فى بعض الأوقات استرضاء هؤلاء الناقمين وإغرائهم بالإقامة فى الآستانة تحت سمعه وبصره ، مجرياً عليهم الأرزاق ، موفراً لهم أسباب الراحة والطمأنينة مع إسناد الوظائف لهم فى بعض الأحيان ـ لذلك احتشد فى الآستانة عدد كبير من أعلام القلم والبيان والسياسة ، ومنهم السيد / جمال الدين الأفغانى وغيره من أدباء الترك وشعرائهم وساستهم وقد قام المندوب السلطانى بمصر الغازى مختار باشا بالاتصال بالدولة العثمانية والتوصية

بمعاملة عبد الله النديم هذه المعاملة . فقبلت ، وسافر إلى الآستانة وعين بها مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى بمرتب ٤٥ جنيها مجيدياً ، مضافة إلى المعاش المقرر له من مصر — ويأبى كرمه إلا أن يصرفها جميعاً مع ما كانت تجود به مكارم عبد الحميد من الإحسانات الخاصة ، فى سبيل الخير والبر بالأهل والأقارب والأصدقاء .

وفى الآستانة عاش النديم حياة هادئة خاملة . فقد عطلت كل مواهبه ، وأوقف نشاطه — والصوت العالى قد سكت ، والقلم الملتهب قد سكن فى غمده ، وأصبح فى وسط يكاد يختنق منه ، لا متنفس له إلا باجتماعه بأستاذه العظيم جمال الدين الأفغانى يحادثه ويسامره — ولكن رغم هذا كله تأبى الظروف إلا أن يصطدم بشخصية عظيمة النفوذ فى بلاط السلطان عبد الحميد ، تلك هى شخصية أبو الهدى الصيادى .

وللصيادى تاريخ عجيب ، فهو سورى من حلب ، نشأ فى فقر وإملاق ، ودفعته المقادير إلى الآستانة . وسرعان ما توصل إلى الخليفة ينادمه حتى أصبح أقرب المقربين إليه (وسوف نفرد لترجمته فصلا خاصاً فى هذا الكتاب) .

ولم يخش النديم صولته . وانتقد تصرفاته ، وأطلق فيه لسانه ، ولم يعن لهيبته ، وهكذا وقف الزعيم المصرى الحر مرة أخرى يواجه طاغية من طغاة عبد الحميد ، وكم عودنا النديم هذه المساجلات بين الأحرار والطغاة !! وكأن القدر العجيب جعل من حياته صفحة من مكافحة الطغاة ومحاربة الظالمين — فكما اصطدم فى أول حياته بخليل أغا رئيس قصر والدة اسماعيل ، فهو يختم حياته منازلا جباراً مارداً من أعوان السلطان وكتب فيه « كتاب المسامير » ابتكر فيه أسلوباً عنيفاً من أساليب الهجاء المقذع واصطنع فيه أسلوباً عنيفاً من أسالب الهجاء ، والقذع الشديد فى شخصية الصيادى ، وما كان ذلك كله إلا تعبيراً عن صدر يحتجن فيه الغيظ وقلب يمور بالغضب .

وبلغ أبا الهدى أمر هذا الكتاب المخطوط ، فأبلغ السلطان عبد الحميد بأمره ، ومافيه من تعريض شديد به . وبحث عنه طويلا من غير جدوى ، واستطاع أحد أصدقاء النديم « جورج كرتشى » أن يحتفظ به ويخفيه ويفر به إلى مصر ثم يطبعه .

وقد ذكر ولى الدين يكن فى كتابه « المعلوم والمجهول » صورة من الخصومة الشديدة بين الصيادى من جهة ، وبين جمال الدين الافغانى والنديم من جهة أخرى قال :

« لما كان المرحوم السيد/ جمال الدين الأفغانى والمرحوم عبد الله النديم على قيد الحياة ، كانا يغيظانه حتى تتبادر شئونه من عينيه ، ولقد أطالا سهاده وضاعفا همه ، فما كنت تسمع له إلا صخباً وعويلا متصلا ، وشكايات أثر شكايات ، يطرق بها باب السلطان .

ولما ألف فيه النديم كتاب المسامير ، قامت له قيامته ، وجعل يهدر كما يهدر الفحل إذا هاج ، ولو مد الله فى أيامهما لعاجعلاه بما يلتى به حتفه ، ولكن لكل أجل كتاب . . . . وكان السيد /جمال الدين إذا ذكره فى مجلس السلطان لم يسمه إلا أبا الضلال ، ولقد استشاط عبد الله النديم غضباً ذات يوم ـ وكان دعى إلى قصر السلطان وسئل هناك أن يكف عن هجاء أبى الصيادى ـ والسلطان مطل عليه من كوة يسمعه ويراه ـ فصاح النديم بأعلى صوته قائلا : « لقد قلد مولانا السلطان أبا الضلال وسام الافتخار ، فلألبسنه أنا وسام العار ، يلازمه فى حياته ويصحبه إلى قبره وبعد مماته » .

فخاف من بالقصر من وعيد النديم وأخذوا يتلطفون فى اسكاته ، ولم يستطيعوا ذلك إلا بعد جهد أضناهم » .

ولقد حدث له أثناء إقامته بتركيا ، أن وشى به إلى السلطان ونسبت إليه

أمور كثيرة ، هو منها براء ، وكاد الأمر يصدر بنفيه إلى بعض الولايات البعيدة ، لولا أن الخبر وصله وهو فى إحدى ضواحى القسطنطينية فأرسل برقية يتبرأ فيها مما اختلقه الوشاة ـ وختمها بالعبارة الحماسية التالية :

(إنك ياأمير المؤمنين القادر على الانتقام والعقاب بلا معارض أو منازع ولكننا سنقف بين يدى عادل وقاهر يقضى بيننا بالحق وهو خير الحاكمين) فأعجب السلطان بجرأته وشجاعته وثباته على مبادئه. وأعجب بقوة نفسه ، وإبائه فرضى عنه وعدل عن قراره . وكان يحن إلى الوطن حنينا شديدا ـ هذا الوطن الذى أحبه ، وأفنى فى سبيله بدنه وقواه ، موطن أحبائه . وأصدقائه وذوى قرباه ، هذا الوطن الذى ألم بكل شئونه ، وظروفه ، فلما سافر الخديو عباس حلمى إلى القسطنطينية عام ١٨٩٤ طلب استدعائه ، فقابله المترجم عدة مرات ، كان يسر فيها الخديوى من طلاوة أحاديثه وجميل أسماره ، فلما أزمع الأوبة إلى القطر المصرى استمر النديم فى منادمته إلى مضيق الدردنيل « جناق قلعة » ولا نعلم بدقة ماذا كان من أحاديثه معه ، ولكن مما لاشك فيه ، أنه أفضى إليه بما يساوره من شوق وحنين إلى الوطن ولا بد أنه استرجاه فى هذا الأمر ، وطلب شفاعته لدى السلطان .

ولقد كان حقاً من أعز أمنياته أن يعيش ليرى الوطن مستقلا ، وأن يقوم من نكسته بعد هزيمة الثورة العرابية ، نتيجة الخيانة التى تسربت إلى صفوف الخونة من المواطنين ، ونتيجة دسائس السياسة الانجليزية التى لعبت دورها لاستكتاب السلطان قرارا يصم المواطن العظيم والزعيم الوطنى أحمد عرابى بالتمرد والخيانة وتلك لعمرى ، كانت أقوى وسيلة قام بها الاستعمار لتشتيت القلوب الضعيفة وصرف الجماهير عن نصرة الوطن فى شدته . . .

كان يود لو أتيحت له الظروف، ليعود إلى وطنه الحبيب، يبذل فى سبيل أبنائه آخر قطرة من دمائه ، ويصعد بين إخوانه آخر زفرات صدره الثائر ضد أعداء الوطن والعروبة جمعاء ، ولعل أشد ما يحز فى النفس، أنه لم يعش ليرى ويسمع تلميذه العظيم مصطفى كامل ، الخطيب المصرى المفوه ، وخليفته فى الزعامة الوطنية الرشيدة وخليفته فى التوسع فى الخطابة الوطنية والاجتماعية ، خطابته بالعربية وخطابته بالفرنسية فى محافل أوروبا ، حين أسمع العالم الغربى فى حواضره الكبيرة صوت مصر ، وكسب أنصاراً عديدين للقضية المصرية ، يؤيدون دعوته الخالدة بالجلاء التام عن مصر والسودان ، مظهراً بجلاء مدى ما يتهدد السلم العالمى من مخاطر نتيجة لبقاء قناة السويس تحت قبضة انجلترا ، مطالباً انجلترا باستنجاز وعودها العديدة بالجلاء .

لم يعش ليرى مصطفى كامل يبلغ ذروته فى قضية دنشواى ، وكيف فضح الانجليز وحاكمهم أمام محكمة الرأى الإنسانى العالمى . . وانتصر عليهم ، مما اضطر انجلترا أن تعزل حاكمها العاتى اللورد كرومر ! !

ولقد بذلت بعض الجهود الرسمية لعودة النديم إلى وطنه ، بعد ما استبدت ببدنه الكليل الأدواء والأوصاب ، وكان الأمل كبيراً فى ذلك بدليل ما جاء بجريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١٨٩٥/١١/٦ وقد جاء بالنص « كتبت الحكومة المصرية رسمياً إلى الآستانة العلية تستقدم حضرة الفاضل عبد الله أفندى نديم الذى ينتظر قدومه إلى القطر فى آخر هذا الأسبوع أو فى الأسبوع القادم . ونحن نهنىء حضرته وسائر صحبه وخلانه تهنئة خالصة » .

هذا ماورد فى جريدة الأهرام . . ولكن هل تحقق هذا الزعم ، كلا لم يتحقق . .

نعم . . حرمه الدهر أعز أمانيه ، وصاحب هذا القلب الرهيف ، أخذ يحترق كمداً وحزناً فى غربته ، ولم يحتمل بدنه الكليل آثار الآلام النفسية مع العلل الجسدية التى كان يعانيها ، فاستفحل داء السل الرئوى الذى أصابه فى منفاه ، حتى بلغ حداً لم ينفع معه نطس الأطباء . وظل يحتمل آلام المرض المستشرى فى بدنه بصبر وإيمان إلى أنه حم القضاء . . وانتقلت روح ـ المجاهد العظيم إلى الرفيق الأعلى ليلة الأحد العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ .

وعندما علم السلطان بذلك ، أمر أن يكون مشهده على جيبه الخاص ، وسارت أمام نعشه فرقتان من الجيش ، وفرقة من الشرطة ، وطلبة المكتب السلطانى وسار خلفه رهط كبير من رجال الفكر والعلم فى الآستانة وغيرهم من الوجهاء والكبراء ، منهم أستاذه العظيم جمال الدين الأفغانى ، والسيد عبد الرحمن الجزولى وهو الذى توفى الفقيد فى بيته ، وأودع جثمانه الثرى ، فى مقبرة مجهولة بمدفن يحيى أفندى فى باشكطاش ؟ ؟

بالأمس كان غريباً فى ديارهم واليوم صار غريب اللحد والكفن

ولقد كانت ظروف منفاه ومرضه الأخير وموته وحيداً دون أنيس أو رفيق ، من أبلغ المآسى التى خطتها يد القدر ، فالخطيب الذى حرك قلوب الجماهير ، والسمير الرقيق الظريف ، الذى كانت احاديثه مصدر غبطة وإعجاب المواطنين جميعاً جماعات وأفراد ، أمراء وفقراء ، حرم من يؤنسه فى آخر ساعات حياته ، ومن يواسيه فى أحرج أوقات مفارقته دنياه !!

وكانت أمه وأخوه قد علما بمرضه فسافرا إليه، ولكن وصلا بعد أن تم قضاء الله واختطفه الموت ، ووجدا متاعه وأثاثه قد نهب، فعادا وليس فى يدهما إلا الحزن والأسى .

وقال عنه أحمد تيمور باشا :

« ومن تأمل بعين الاتعاظ فى تقلب الأحوال بالمترجم وما ذاقه من حلو الزمان ومره ، وما قاساه مدة الاختفاء ثم النفى حتى مات غريباً حق له العجب وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيه » .

ومما يؤسف له أنه لم يعرف قبره إلى اليوم ولم يفكر أحد فى الذهاب إلى تركيا للتنقيب عن قبره لتحديد مكانه وإقامة شاهد عليه ، ولو كان تم ذلك،لكان من السهل فى العهد الحاضر بعد ثورة الجيش العظيمة،أن ينقل جثمانه إلى وطنه ويكرم ذكره ويحاط بكل مظاهر الاجلال والاعتبار التى تليق بتاريخ جهاده المجيد ، ولقد أحسنت حكومة الثورة المجيدة إلى ذكراه ، وأقامت تمثالا له ، فى حديقة الخالدين ، قريباً من ميدان محطة الرمل ، بالاسكندرية مسقط رأسه ، والبلد الذى قضى فيه أيام شبابه .

أبو الهدى الصيادى

طاغية من طغاة عبد الحميد ، نازله عبد الله النديم فى منفاه الأخير

من الرجالات الذين لعبوا دوراً خطيراً فى حياة السلطان عبد الحميد الثانى وكان لهم شأن يذكر فى سياسة الدولة العثمانية . السيد أبو الهدى الصيادى :

وقد ولد سنة ١٢٦٦ هـ فى خان شيخون . من أعمال حلب ، وعاش فى كنف أبيه الشيخ حسن وادى الذى يتصل نسبه بالإمام الرفاعى ، وقد كان أبوه من مشايخ الطرق الذين يقيمون الأذكار ، ويستعطفون أهل الجود والكرم ، ونشأ الفتى نشأة أبيه ، فلم يكد يشب عن الطوق ، وتظهر عليه علامات النجابة والذكاء ، حتى ترك خان شيخون إلى حلب ، جاءها كطالب علم ، فانتسب إلى إحدى مدارسها الدينية ، وتتلمذ على مشايخها يأخذ عنهم الفقه والتفسير والحديث والأدب والأصول وكل ما يزيد فى ثقافته الدينية .

وبدأ حياته الأدبية ينظم الشعر ، وظهر فى الأوساط الحلبية كشاعر مداح ، وشعره بالنسبة لاتجاهات الشعر فى القرن التاسع عشر ، على جانب من الرقة والجزالة ، فمن قوله فى الغزل :

ما هب نشر الصبا إلا فؤادى صبا
والتفتت همتى لريم ذاك الخبا
يا ساكنا مهجتى صيرتها كالهبا
رفقاً بذى لوعة رأى الهوى مذهبا
لأجل خديك قد يعشق ورد الربى

واتخذ أبو الهدى الشعر وسيلة للظهور ، وفرض شخصيته على المجتمع الحلبي ، فكان ينظم قصائد المدح . ويطوف على البيوتات الكبيرة ، يمدح رجالات الدولة وأعيان البلد .

وإذا كان من المنتسبين إلى السيد الرفاعي ، فقد أجازه والده بطريقة أسلافه « وألبسه الخرقة الشريفة بإذن ابن عمه الشيخ على أفندي آل السيد خير الله الصيادي الرفاعي شيخ مشايخ حلب . ثم أتم السلوك على يد شيخه الأجل السيد بهاء الدين الصيادي الشهيد بالرواس »[1] .

وعرف أبو الهدى، بعد أن لبس جلباب التصوف . بأنه «شيخ طريقة» و « دقاق مزهر » وإذا كان للوظائف الدينية مقامها فقد طمحت نفسه للتولية على « خان شيخون » ـ مسقط رأسه ـ وسعى إلى ذلك حتى وجهت إليه توجيهاً شرعياً بحكم محكمة ولاية سوريا . وذلك سنة ١٢٨٥ هـ وعمره يومئذ تسعة عشر عاماً .

ولم يكن خاصة حلب ورجالاتها ينظرون إليه أكثر من « شيخ طريقة » و « دقاق مزهر » و «شاعر مداح » يستجدى أهل الجود والكرم ، ولكنه كان يرى نفسه فى القمة نسباً وحسباً ، وكان له من فرط ذكائه هذه الطمحات الواسعة ، ومدينة حلب لن تطمئن له هذه النزعات .!

ثم فكر فى السفر إلى إستانبول . ولم يكن السفر فى ذلك العهد من السهولة كما هو اليوم ، ولكن ماهى مشاق السفر بجانب ما كان يحلم به من السيطرة والمجد .

ويصفه الأستاذ الكبير محمد كرد على فى مذكراته نقلا عن أبيه بقوله:

---

(١) « الدر المنتظم » مختصر براهين الحكم ص ٢٩٩ .

كنا بضعة تجار من الشاميين فى استانبول فى خان من خاناتها، وكان يزورنا درويش، شاب أسمر اللون، جهورى الصوت، تبدو إمارات الذكاء عليه وله جدائل يرخيها على ظهره، يعتم بمئزر ويكتسى عباءة وقفطاناً، ويضرب بالدف، وينشد أشعاراً على طريقة القوم، وما كان يشاركنا فى النفقة، ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة، وهذا الفتى هو محمود بن حسن وادى المعروف بأبى الهدى الصيادى الرفاعى.

ثم شخص بعد ذلك إلى استانبول. وأخذ يتصل بالمرموقين من كبار الرجال، فرأوا فيه فتى ألمعى الذكاء، يفيض جنانه بنفحات التصوف، فما كان منهم إلا أن عملوا على تحقيق بعض رغباته، فوجهوا إليه «نقابة أشراف قضاء جسر الشغور» كما نال رتبة مولوية أمير، وسنه يومئذ ثلاثة وعشرون سنة، ثم ولى قاضياً على جسر الشغور مع احتفاظه بنقابة اشرافها وفى سنة ١٢٥١ هـ عين «نقيب أشراف» عموم ولاية حلب، وكانت سنه حينذاك الخامسة والعشرين من عمره.

هنا فى هذه الفترة بدأت العيون تتجه نحوه، وأخذ الناس يتقربون إليه ويلتفون حوله، ويزجون إليه التهنئة، ويلتمسون منه العطف والرعاية، ولا سيما بعد أن خصه السلطان عبد العزيز خان، براتب خاص، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل فوضه نقيب أشراف دار الخلافة، النظر إلى نقباء ولايات سوريا وديار بكر وبغداد والبصرة، بل فوضه أيضاً أن يعطى منشور النقابة لجميع نقباء ولاية حلب.

ولقد اتخذ بعد ذلك المدائح النبوية وسيلة لتحقيق مآربه. ولما كانت النزعات الدينية هى السائدة فى عصره، وكان للدين قداسته وتأثيره، فقد استغل هو هذه الظاهرة للوصول إلى أرفع مرتبة فى الدولة التى كانت لا تغيب الشمس عن أطراف مملكتها.

لقد كان السلطان عبد الحميد ، خليفة للمسلمين ، فلم لا يكون الصيادى شيخه وصفيه ؟ فهو ذو نسب ، وهو من الأشراف ، وهو من المتصوفة ، إلى كل هذا شاعر ذلق اللسان ، من أذكياء البشر ، ولكن كيف الوصول إلى الأعتاب السلطانية ؟!!

لقد أعد قصائد المديح ليهنىء السلطان بعد أن وجهت إليه « باية الحرمين الشريفين » ولكن السلطان قد اعتادسماع هذه النغمات من كثيرين غيره وثمنها أعطيات وأوسمة ، وقدقبض الثمن ، وكان المفروض أن يرجع إلى موطنه ، ولكن مصالحه وأمنياته أوسع من هذا ، فما هو السبيل إلى بلوغ هذه الأمنيات ؟

لقد شاء القدر أن يحقق أمانيه عن طريق المرأة، نعم ، عن طريق المرأة أتيح له أن يكون أقرب المقربين إلى قلب السلطان .

والحادثة التالية تكشف لنا هذا السر ،فقد أصيبت زوجة ناظر الضبطية بمرض أعجز الأطباء ، وكان يحبها حباً جماً ، فتذرع بكل ما فى وسعه لشفائها ، ولما يئس من علاجها ، وصفوا له أبا الهدى الصيادى، وما يكتب من حجب وتمائم ، وما يقرأ من أدعية وعزائم ، فاستدعاه ليطبب حبيبته بما عنده من بضاعة المشايخ ، وقد شاء القدر أن تبرأ زوجة ناظر الضبطية ، فعظم مقام الشيخ فى عين ناظر الضبطية ، وشاع بذلك ذكره فى دار الملك ، وكثر قصاده والمعتقدون به ،وجمهور الترك يحسنون ظنهم بمن يأتيهم من طريق الدين بما يلائم عقليتهم ، ويسارعون إلى تصديق من يعتقدون فيه الخير ، ولم تمض أيام حتى أصيبت إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثانى بعارض يشبه عارض زوجة الناظر ، فعلم الوزير بالأمر، فعرض على مولاه ما كان من الشيخ أبى الهدى مع زوجته ، وقال فيه كل خير ، حببه إلى السلطان ، فاستدعاه إلى مداواة حظيته بأدعيته ، فجاء يداويها بما داوى به

امرأة الناظر فشفيت الجارية بعد أيام وأعقب ذلك اتصال أبي الهدى بالسلطان عبد الحميد[١] .

وبعد هذه الحادثة ، وبعد قصائد المديح ، دعى لشرف الحضور الأقدس السلطانى بواسطة نافذ باشا المشير - السرقرناء يومئذ - وهى أول مرة فاز فيها بشرف المثول بين يدى جلالته وسنه وقتئذ ثمان وعشرون سنة ، وقضى حوائجه وتعطف عليه وأمره بملازمة خدمة أعتابه ، مرة أو مرتين فى كل أسبوع « وأغدق عليه نعمته ، وبعد أن أقام مدة ، استأذن جلالته فى السفر . فمنعه ونصبه رئيس مجلس المشايخ فى نفس دار الخلافة ، وبموجب الإرادة حررت له التذكرة الرسمية من شيخ الإســـلام خليل افندى[٢] .

* * *

لقد كانت سياسة السلطان عبد الحميد ترمى إلى اجتذاب الشخصيات الدينية الكبيرة إلى حظوته ، لتكون عماده فى السيطرة وبسط نفوذه، وبلغ مسامعه ما يتميز به الشيخ أبو الهدى من صفات ومزايا ففتح له الباب على مصراعيه وسرعان ماولجه الشيخ باطمئنان .

من قرية خان شيخون إلى الآستانة ، من الضعة إلى المجد ، من الفقر إلى الغنى ، من الهاوية إلى القمة ، من التمرغ على الأعتاب إلى التربع فى دست القصور ونعيم الملك والسلطان . . وهكذا كان . . . . . وهنا أنشد قصيدته الشهيرة التى يفتخر بها :

---

(١) « المذكرات » محمد كرد على ص ١٤١

(٢) التاريخ الأوحد ص ١٤١ .

كيف لا تزدهى بنا العلياء ولنا المجد طينة ورداء

وعاد الناس يتساءلون ، ولا سيما فى وطنه . عن السر فى بلوغ الرجل هذه المكانة الساحقة . لقد تخطى كبار الشخصيات من العظماء وكبار رجالات الدولة ، وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان ، وبعد أن كان الصيادى فى نظرهم من « الحواة المشعوذين » أصبح من « الدهاة المرموقين » وهنا أى بعد أن صدرت الإرادة السنية بتعيينه رئيساً لمجلس المشايخ ، فى المملكة العثمانية ، خرست الألسنة عن ذكر نشأته وماضيه، لا تذكره إلا بالتكريم والتعظيم .

وقضى الشيخ سنوات طويلة إلى جانب السلطان ، ومكانه فى صعود متوال ، وكان خلالها ملجأ القاصدين، وكان قصره فى بشكطاش بغية الرواد من مختلف الأقطار والأمصار ، وكانت كلمته فى المملكة العثمانية تجرى فى نفوس الحكام مجرى السحر ، وإذا وصل إلى هذه المكانه السامقة ، كثر حاسدوه وشانئوه وخصومه والمنتقصون لقدره ، وبينما كان يسمع مدح الشعراء كانت الدسائس تحاك له من وراء الستار ، فكان يبتسم لهؤلاء وأولئك ولا يظهر الحقد لأحد ، حتى إذا تمكن من الفرصة ضرب ضربته ، فقد كان خصومه من كبار الرجال وأهل الخطوة عند السلطان ، فما زال بهم حتى بذهم واحداً واحداً ، وبقى مكانه كالطود الراسخ ، لا تزعزع قواعده الصروف ، ولا تترقى إليه الهمم .

وقد مشى وراء خطواته الوزراء والكبراء ، وقبل يديه أعيان القصور والأمراء ، وانفرد عن الأشباه . والنظراء ، فظل فى حياته فى حماية عبد الحميد ، باقعة السلاطين من آل عثمان، زهاء ثلاثين سنة فى صعود متوال ، ورفعة مكان، ولم ينل أحد من الأمة العربية بل التركية ما نال عنده من المنزلة

الرفيعة والحظوة السنية ، وكانت حضرته يومئذ فى القسطنطينية قبلة ذوى الآمال من القصاد ، ومثابة الغرباء على اختلاف الأجناس من أقصى البلاد. فكنت ترى أبناء الهند والصين والأفغان ومراكش ومصر والسودان ؛ إلى غيرهم من أجناس الأمم الإسلامية المنتشرة ، بل كثير من عظماء الفرنجة يؤمون تلك الحضرة للتحدث عنه فى بلادهم ، ومشاهدة الرجل الذى طبقت شهرته سائر عروش الممالك[1] .

وقد خصه شعراء البلاد العربية . من ذوى الحاجات ، بالكثير من المديح ، واستعانوا بمدحه على قضاء حوائجهم ، فأخذ بناصرهم وأكرم وفادتهم ، وأدنى منه مجلسهم ، فكان منهم من يؤلفون الأشعار ويعزونها إليه ، ومنهم من ينظمون الأشعار ويروونها عنه ، فتناقلت الألسن ما بدا من فضله المتزود ، وسهت الأفكار عن نقصه الكامن فيه .

وكلما ازداد رفعة عند السلطان وزاد جاهه ، كثر حاسدوه وعظم مناوئوه ، ولكن الخصومات الشخصية التى حدثت بينه وبين كثير من كبار رجال السلطان ليست بذات شىء أمام خصومته مع جبار من جبابرة الفكر ، وتيار من تيارات العبقرية ظهر فى الفترة التى لمع فيها نجم أبى الهدى ، ذلك هو الحكيم جمال الدين ، فقد ظهر فى المجتمع الإسلامى كسياسى كبير ، ومصلح دينى عظيم ، له أثره ، وقد أوردنا فى هذا الكتاب فصلا خاصاً عنه .

وقد دعاه السلطان لزيارة الآستانة ، وأعد له قصراً منيفاً ، وأجرى عليه راتباً ضخماً ، وجعله من خواص رجاله ، واستخدمه كأبى الهدى فى توطيد نفوذه وسلطانه .

---

(١) أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر .

ولكن أهداف جمال الدين كانت غير أهداف أبى الهدى ، ولم تكن المظاهر المادية ، لتغرى جمال الدين للسعى وراءها ، لقد رغب إليه السلطان فى دعوة المسلمين كافة إلى الاعتصام بعروة الخلافة وجمع شتات المسلمين فى مختلف بقاع الأرض فى حوزة دولة إسلامية واحدة ، أما هو فمقاصده غير ذلك ، فهو يدعو إلى النهوض بالأوطان الإسلامية وتحريرها من عبودية السلطان الظالم وعبودية الأجنبى المتحكم ، وتوثقت الصلات بين جمال الدين وأبى الهدى . . وسرعان ما توترت ، فقد اعتقد أبو الهدى أنه جاء ليزاحمه على مقامه الخطير لا سيما بعد أن عرض عليه السلطان مشيخة الإسلام ، وهنا انقلب أبو الهدى على جمال الدين وأخذ يتهمه بالكفر والزندقة والإلحاد ، وأنه جاء ليفسد العقائد ، وقد عثر على رسالة كتبها إلى الشيخ رشيد رضا صاحب المنار جاء فيها :

« إنى أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة ، وقد تدرجت به إلى الحسينية التى كان يزعمها زوراً ، وقد ثبت فى دوائر الدولة الرسمية أنه (مازندرانى) من أجلاف الشيعة ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » .

وهكذا أخذ فى مناوأته حتى قضى عليه ، ومات الأفغانى فى ظروف تعسة (سنتحدث عنها فيما بعد) .

ولكن لم يكد يتخلص من نفوذ الأفغانى حتى ظهر له خصم جديد ـ خصم له قوته وسلطانه هو عزت باشا العابد ، أحد كبار دهاقنة العرب فى عصره ، هذا الرجل الذى تقرب إلى السلطان فجعله قرينه وكاتبه الثانى فى المابين ، وظل خادمه الأمين نحو ثلاث عشرة سنة ، فضاق به أبو الهدى ، كما ضاق عزت العابد بنفوذ الشيخ ، وأخذ كل واحد يكيد للآخر ، وانقسم عامة

الناس فى تركيا إلى حزبين : أحدهما هدائى وثانيهما عزتى ، وظل العداء والخصومة بينهما مدة طويلة ، ولم يستطع أحدهما أن يزيح الآخر عن مكانه ، إلا أن الغالبية آثرت عزت العابد بالزعامة وساروا تحت رايته، وعملوا برأيه حتى كادوا يغلبون الصيادى ويزيحونه من طريقهم .

وبالرغم من كل ذلك ظل عبد الحميد يعتمد على أبى الهدى فى الملمات ، وقد آثره بمحبة واتخذه مستشاره الأمين ، وسلاح أبى الهدى فى مناوأة خصومه قداسة الدين ، وللدين أثره وسحره فى نفوس السلاطين ، وكان الشيخ يزود مولاه كل يوم بعجيبة من العجائب فآونة يبلغه سلام النبى وحينا يقص عليه رؤيا يزعم أنه رآها ويفسرها له على ما يلائم هواه ويرضيه ، ثم يدعى لأبيه ولنفسه كرامات لا وجود لها ، وكان عبد الحميد محبا لهذه الأشياء ويظن أنها من أقرب الوسائل لاستدامة ملكه .

وبهذه الوسائل قويت سيطرة أبى الهدى الصيادى على عبد الحميد ، وتمكنت منهما الألفة الروحية . حتى أن خصوم الصيادى لما صارحوا السلطان بأن بضاعته ليست إلا نوعا من الخزعبلات قال لهم :

(عجبت لهؤلاء الخونة يحسدون شيخى ، وليس فيهم من يليق به أن يكون من خدامه ، يكتب إلى الواحد منهم كتاباً يطلب فيه بدرة مال أو رتبة لا تكاد تذكر ، وهو مع ذلك يتعسف الحيل ، ولا يهتدى إليها سبيلا ، أما أبو الهدى فإن سألنى فعن ثقة وظرف ، ولا يتدنى بقدره إلى إلى طلب ما ، يكون مشاعا يمكن أن ينازعه فيه غيره)

وقد جاء فى تاريخ الأستاذ الإمام[1] أن ابا الهدى لم يكن يقنع بما بلغه من مقام سام عند السلطان ، بل كان يطمح فى الخلافة ، وسواء صحت

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ص ١١٣ .

الرواية ام لم تصح . فإن من يرجع إلى تاريخ ابى الهدى ، ويقارن بين نشأته الأولى . وبلوغه ما بلغه من المقام العظيم فى الدولة لايستبعد ان تطمح نفسه إلى الخلافة ، ما دامت الخلافة فى قريش وهو من المنسوبين إلى آل البيت ، وظل نفوذه يمتد فى كل بقعة من بقاع الأمبراطورية التركية إلى ان وقع الانقلاب ، فكان مصيره كمصير سيده عبدالحميد . فسبحان من له الدوام !!

٤ — تأثره وتأثيره

يولد الإنسان حاملا معه صفات ابوية ، مكتسباً عنهما كثيراً من الصفات الجسمية وحتى بعض الأمراض المستعصية تصل إلى الجنين من الوالدين — فالإنسان كالحيوان ابن الوراثة ثم تبدأ المؤثرات المحيطة تؤثر فيه منذ طفولته حتى يشب يافعا وهكذا تعمل كل من الوراثة والبيئة عملها معاً فى تكوين الإنسان وإنشائه . ويتأثر نشاطه وسلوكه فى المستقبل بهما . والتربية والبيئة ينميان فيه الملكات الموروثة ويساعدانه على اكتساب خلائق جديدة ، فقوى الإنسان الذهنية إذاً موهوبة ومكسوبة . فالوراثة تتحكم فى الخلق والخلق وتفرض إرادتها على أجيال الناس فيخضعون لناموسها .

والوراثة الجسمانية هى التى تضرب أبناء الأسرة الواحدة على قالب واحد فيتشابهون سمات وقسمات فى القبح والجمال . ووراثة القوى العقلية تسير على غرار واحد هى ووراثة الصفات الجسمانية ، تنتقل من جيل إلى جيل من السلف إلى الخلف فى الأسرة الواحدة ، حتى تطبع كل أسرة . بطابع خاص من تلك القوى والصفات ، وربما تنكبت الوراثة فى تسلسلها ، الخط الموصول ، فأفلت من تأثيرها جيل أو أكثر بل ربما توارث عدة أجيال ، قبل أن تنتقل سمات العبقرية من فرد إلى فرد ، فى الأسرة الواحدة .

ذلك عمل الوراثة ، أما عمل البيئة فعمل القين ، الذى يجلو فرند السيف أو عمل الجوهرى الذى يصقل الدر ويثقبه ، أو عمل الصائغ الذى يصنع من خسيس المعادن أنماطا بديعة من الدمى والحلى مصقولة لامعة مزخرفة .

وأثر البيئة فى صقل المواهب وإبرازها ، واكتساب الفرد صفات جديدة وأساليب من الأخلاق والتفكير معينة ، أمر مسلم به حتى لقد تسرب هذا القانون إلى الأمثال السائرة كقول الغربيين (قل لى من تعاشر أقل لك من أنت) وحتى ذهب فيلسوف فرنسى إلى القول ، أن قيمة الإنسان من قيمة البيئة التى يعيش فيها ، وذهب فيلسوف آخر إلى إرجاع كل عمل أدبى إلى عناصر ثلاثة هى العرق والبيئة والزمن .

وحينما نطبق هذه القاعدة على عبد الله النديم ، لنربط بين تأثير كل من الوراثة والبيئة على حياته ، ونتتبع عملهما فيه فى جميع مراحل حياته منذ طفولته نجد أن طريق البحث غير معبد ، فنحن لا ندرك تاريخ أسرته بوضوح ، ولا حتى تاريخ أقرب جدوده - وليست هناك أدلة واضحة على أن والده كان يفوق عامة الناس فى شىء سوى أخلاقه وتقواه فقد كان شخصاً فقيراً عاديا فى كل شىء — هاجر من سقط رأسه بالشرقية للاسكندرية ابتغاء الرزق ، واشتغل عاملا بدار الصناعة (الترسانة) بالاسكندرية ثم تركه وافتتح مخبزا صغيرا ، يصنع فيه الخبز ويبيعه ، عاش على هامش الحياة فى محولة وجفاف ، تقتير وحرمان لا يكاد يتبلغ هو وزوجته وولداهما بما يتكسب به . والفقر هو الفقر فى كل شىء ، فقر فى الطموح ، وفقر فى المدارك . والأسرة الفقيرة آمال أفرادها محدودة ، وحتى لو تأثرت بطموح ما ، فلن تسعى لتدرك مستوى طبقة أعلى منها .

وكان فقر الأسرة عائقاً عن إتمام دراسة الطالب الصغير « عبد الله »

بالأزهر رغم تفوقه فى الكتاب فأرسل إلى المسجد الأنور قرب منزله، يدرس فيه المشايخ ما يدرس فى الأزهر ولكن سرعان ما ضاق الفتى ذرعا بدروس المسجد وعاف ذهنه تناولها ، فهرب من المسجد بعد أن أمضى فيه بضع سنوات من عمره .

ويحك يافتى ... أضلك الرأى ... واضطرب بك الفكر ... وخرجت عن الطريق السوى... كان لوالدك مأرب فى تعليمك .. أن تخرج من معهدك إلى الدنيا شيخاً معمما وعالما مفخما يتقرب الناس إلى الله بتقبيل يده ، ويستخيره الناس فى أمور دينهم ودنياهم ... ولكنك خرجت إلى الدنيا صفر اليدين - لا علم . . ولا مال ولا مهنة ! ! ؟

ولكنه رغم ضيقه بطريقة الدرس بالمسجد وعزوفه عنها ، وهربه منه إلى العالم الفسيح يستكمل منه علمه ، فإنه لن ينسى أستاذه البر الشيخ محمد العشرى ، لأنه من الشخصيات ذات الأثر فى توجيهه ، أخذت بيده فى الاتجاه الذى يتفق واستعداده الفطرى ومواهبه الأدبية ، لقد اكتشف فيه الميول الفنية نحو نظم الشعر وقول الزجل ، فاصطحبه إلى ندوات الأدباء بالإسكندرية ، وأخذ يناشده الشعر ويكاتبه، ويبادله الملح والنكات الأدبية ، وكما قال النديم (وما زال يغمسه فى ألوان الفنون حتى انصبغ ، وينشده الجد والمجون حتى نبغ ، وجرى خلفه فى ميدان الفكاهة ، وصار إلفه فى العفة والنباهة) .

وكان هذا الشيخ من الأثيرين بمحبته وإعزازه ، وظل يذكر فضله عليه دائما ويشير فى كتاباته إلى مكانته الكبيرة من نفسه وأثره القوى فى حياته ومن ذلك قوله فى إحدى رسائله إليه : (ربيت فأحسنت، وغذيت فأسمنت ، مؤدبا ليثا ، ولنت فسددت ، وجدت فعودت مهذبا غيثا ، وعلمت فأفهمت ، وأشرت فألهمت ، غرض سهمك ، وقد نلت ما أملت فيمن عليه عولت ، غلامك الشهير بالنديم ، من صار فى البيان كالنسيم . . . . الخ) .

أجتذب هذا الطريق عبد الله النديم ، فهرب من حلقات العلم إلى دكاكين التجار المتعشقين للأدب ، يتطارح معهم الشعر ، ويتبادل معهم نوادر الظرفاء وإلى المقاهي يستمع إلى شاعر الربابة ، يروى الأساطير الشعرية والقصص الخرافية ، وينشر لروادها زجله ، وفى الليل يصحب شيخه العشرى إلى مجالس الأدب فى بيوت الأثرياء يسمع المباريات الأدبية فى سائر أنواع الأدب من شعر وزجل وخلافه .

وهكذا على هذا المنوال ، أخذت تنضج مواهبه الأدبية شيئاً فشيئاً من ناحية الإجادة الإنشائية ، ولعلنا ندرك مما تقدم أثر البيئة القوى فى نشأته فلو لم يأخذ نفسه على سجيتها ، لما استطاع أن يكتشف مواهبه الأدبية ويجد من يعاونه على صقلها . ولكنه وقد أتقن صناعة الأدب وتدرب على فنونه ، لابد له من جو المعانى التى يلبس بها كتابته ، فما الكتابة والشعر بشىء بدون المعانى الرائعة التى تعبر عنها ، فهى بمثابة الروح والألفاظ كساءها .

إذا كيف توفرت للنديم الينابيع الخالدة من المعانى التى سمت بكتاباته ؟ وجعلت منه الكاتب الخالد الذى رسم للشعب أحلامه المقبلة ، وعبر عن أفرا.ه جميعاً ، وعرض مشاكل المجتمع عرضاً لم يسبقه فيه كاتب من قبل ؟

كانت نشأته فى صميم الأحياء الشعبية مع رهافة حسه ، ويقظة نفسه ، وفقرة وبؤسه أول مدرسة مكنته ، أن يحيط إحاطة واسعة بلغة الشعب وأدبه من أمثال وحكايات ووجوه معاملات ، وصفوف تصرفات ، ورسم ذلك كله فى نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر فى حياته .

وكانت أول حرفة احترفها النديم لكسب رزقه هى حرفة إرسال البرقيات (تلغرافجى) بينها ثم نقل إلى قصر الوالدة (بجاردن ستى) . وقد تأثر النديم بالجو الذى يعيش فيه أصحاب هذا القصر المنيف وألم بكل مافيه

وأدرك مبلغ ما يحيط بالأمراء والحكام من نعيم وما يعيش فيه الفقراء وهم غالبية الشعب من بؤس وإملاق !!

فحفظ على هذه الطبقة من المترفين ، وحقد عليها لا سيما أن ما تتمتع به من ضروب الترف والاستمتاع إنما على حساب هذا الشعب ومن امتصاص دمه ثم أصبح الثائر الأول على بيت محمد على ؟

وقد اصطدم أثناء عمله فيه ، بخادم كبير ذى نفوذ عظيم فى البلاد وهو خليل أغا أراد أن يفرض عليه بطشة وسلطانه ، ولكن النديم ثار لحريته وكرامته لأول مرة فى حياته وأبى الأذعان لطغيان هذا الرجل فطرد من القصر - وهذا ما أحفظه أكثر ، لأنه إذا كان هذا مدى ظلم الخدم والأغوات فكم بالأحرى يكون ظلم الأمراء . . .

وأثناء عمله بالقاهرة ، اتصل بمجالس الأدب بها وبصفة خاصة مجلس البارودى كما ذكرنا آنفا ، وقد استمد من هذا المجلس أحسن توجهاته فى الأدب والشعر ويعد النديم من تلاميذ مدرسة محمود سامى البارودى الأولى فى الشعر .

ثم أخذ يطوف بالقرى والأقاليم ، ويستزيره الأعيان والأغنياء رغبة فى تعليم أولادهم حيناً ، ورغبة فى أدبه وسمره حينا آخر ، وتوفر له فى هذه الجولات أن يلم إلماما كافياً بأحوال الريف المصرى ، وأساليب وعادات سكانه فى ظروف حياتهم المختلفة ، وقد وقف على ما يعانيه الفلاحون من ظلم واستعباد ، فى المزارع الواسعة التى يملكها الحكام والأمراء . وكيف يسامون فيها سوم الخسف والهوان .

وكانت هذه الفترة من حياته ذات أثر بالغ على كتاباته وأدبه فيما بعد ، فقد سجل تلك المشاهد بدقة وأمانة ، ووجه دعوته للإصلاح على أساسها .

ثم حط رحاله يوماً فى طنطا أثناء المولد الأحمدى سنة ١٢٩٤ ﻫ ثم كان من أمر مساجلته بعض الزجالين ، ووصول أمره إلى شاهين باشا . مفتش الوجه البحرى واستدعائه له وإعجابه بأدبه وتنظيمه حفلة أدبية رائعة فيها ساجل المترجم كبار « الأدبتاية » ، وانتصر عليهم فنال من هذا الحادث شهرة ـ طبقت الآفاق ـ فى الزجل والأدب .

ثم عاد أخيراً إلى مسقط رأسه بالإسكندرية سنة ١٨٧٩ م ، وهو أكثر خبرة بالدنيا فيما لقى من عظماء ووجهاء وأدباء وفيما رأى وسمع وعمل فى القصر العالى أيام كان موظفاً فى (مكتب البرقفيه) وفى التجارة أيام تاجر وأفلس وبأخلاق الفلاحين . . . متأثراً بهذه الحوادث والخبرات المكتسبة من هذه البيئات المتعددة وقد قال عن نفسه :

أخذت عن العلماء وجالست الأدباء وخالطت الأمراء وداخلت الحكام وعاشرت أعيان البلاد وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة وأدركت ما هم فيه من جهالة ومم يتألمون وماذا يرجون خالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين والممت بما انطبع فى صدورهم عن أشعة الغربيين ، ورأيت أفكارهم عالية وسافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم واختلطت بأكابر التجار وسبرت ما هم عليه من السير فى المعاملة أو السياسة وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها والحكمة والتاريخ والأدب وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة واستخدمت فى الحكومة المصرية وقتاً وبالخطابة والجرائد آونة ـ واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت إليه بعناء كسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا . وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين) .

ولا بد لنا فى سبيل تحرى المؤثرات التى تأثرت بها كتابته وأدبه أن نشرح نوع الثقافة التى أعانته على مهمته وإن كانت هذه الثقافة ليست ثمرة مدرسة أو جامعة ولكن ثمرة الحياة التى كان يحياها هذا المغامر الحر .

حدثنا أحمد سمير فى ترجمة حياة النديم قال :

« وله ـ أى النديم ـ من المؤلفات الكبيرة والصغيرة ما يعد بالمئات منها ديوان شعر يشتمل على نحو ثلاثة آلاف بيت وروايتا « الوطن » و « العرب » ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدى جامعى السلافة منها إلا إلى أربعة عشرة رسالة بعد السعى الكثير ومكابدة العناء ، (وكان يكون) وهو الذى طبع بعضه فى الأستاذ) وواحد وعشرون كتاباً فى فنون مختلفة قطع لأجلها أيام حرب الاختفاء ، رقاب الفراغ بسيوف الأقلام ، منها ديوان شعر يحتوى على ما يقارب عشرة آلاف بيت وكتاب النحلة فى الرحلة ـ الاحتفاء فى الاختفاء ـ والشرك فى المشترك وكتاب المترادفات ـ وآخر فى اللغة سماه موحد الفصول وجامع الاصول ـ والفرائد فى العقائد ، اللآلىء والدرر فى فواتيح السور ـ البديع فى مدح الشفيع ـ أمثال العرب ... الخ .

ثم قال أحمد سمير :

(ولضياع أغلب مؤلفاته بواعث شتى منها ، أنه كان إذا سود شيئا جاء إليه منى يستعيره منه ثم لا يرده . ومنها احتراق بيته الذى كان يسكن فيه فى الدقهلية فى حادثة ، واحتراق ما كان فيه من كتبه ـ وسرقة كتبه وبعض متاع بيته أثناء مقامه بالمنصورة للاتجار — ومنها أن والده هاجر من الاسكندرية إلى القاهرة فيمن هاجر يوم الحرب الأخيرة (الثورة العرابية) فأحضر معه كتبه جميعها ، وملأ بها وبباقى أمتعته عربة نقل من عربات للسكك الحديدية ، فلما وصل القطار إلى كفر الزيات وازدحم المسافرون من المهاجرين

وغيرهم ازدحاما هائلا لم يسع رجال المحطة إلا أن رموا جميع ما بتلك العربة في النيل ليركب الناس فيها) .

ونحن إن لم نطلع على هذه الكتب التي ألفها النديم فإننا نستطيع أن نقول أن أهم موضوعاتها الشعر والتمثيل والأدب واللغة والفقه والتصوف والبديع والظاهر أنها لم تكن تعدو ذلك فثقافته إذاً ثقافة لغوية أدبية دينية في أكثرها .

وحبذا لو تعددت ثقافة هذا الرجل وكان ملما بلغات أجنبية ، متعلما على الطريقة المنظمة ، لكان لنا من بعده تراث ضخم ، نفاخر به الدنيا ونباهي به أدب العالمين !!

وكان يطالع أثناء استخفائه تفسير القرآن لأبي السعود وقاموس الفيروزابادي — و « الوافي » في المسألة الشرقية لأمين شميل وجغرافية ملطبرون الذي ترجمه الشيخ رفاعه .

* * *

ومن أعظم المؤثرات على شخصيته كوجه شعبي عظيم ، وبوصفه خطيب مصر الأوحد وكاتبها الأول في عصر الثورة العرابية ، اتصاله بالزعيم العظيم وفيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغاني - فقد اتصل به في القاهرة وفي الإسكندرية وتلقى عنه في مدرسته الغير نظامية ، وفي اجتماعاته ، جميع مبادئه السياسية والاجتماعية ويعد النديم من أوفى تلاميذ الأفغاني له ولمبادئه أن لم يكن أنبغهم ، وقد أخذ الأفغاني على تلميذه العظيم الشيخ محمد عبده(١)

(١) كان يرسل خطاباته لأستاذه الافغاني غفلا من التوقيع خوفا وجبناً كما أنه اتخذ سياسة مهادنة الانجليز وصداقتهم بدلا من محاربتهم وهذا مخالف لمبادىء الإفغاني وكان لذلك خصما لمصطفى كامل .

تردده فى تنفيذ مبادئه وجبنه ، وعلى محمود سامى البارودى باشا(١) خيانته له أما النديم فقد أخلص للأفغانى ولمبادئه حتى النفس الأخير . وكان سميره الأثير فى المنفى ، وحينما زار الخديو عباس تركيا اجتمع بالإثنين فى متنزه (الكاغدخانة) باسطنبول وكان الأفغانى أول من شيع النديم إلى مقره الأخير حين وفاته .

لذلك نرى لزاما علينا أن نكتب فصلا عن تاريخ ذلك الزعيم الجليل وبصفة خاصة عن نشاطه فى الفترة التى قضاها فى ربوع وادى النيل ينشر تعاليمه ويعلم حوارييه ومريديه لأن النهضة الوطنية فى مصر مدينة له .

---

(١) كان نفى الافغانى بقرار من مجلس الوزراء وكان محمود باشا سامى البارودى ناظر الاوقاف فى ذلك الحين واشترك فى هذا القرار .

جمال الدين الأفغانى أستاذه الأول

فى اليوم التاسع من شهر مارس ١٨٩٧ قضى السرطان فى عاصمة الخلافة على الحكيم الثائر المصلح السيد محمد جمال الدين الأفغانى ، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ومسح عن عيون الشرقيين ما فترها من همود الكرى .

وجلا عن قلوب المسلمين ما غشاها من صدأ الجهل فاطمأن الاستبداد وأمن الاستعمار وظن الذين ينقضون أوطانهم ليقيموا عروشهم ، والذين يزيفون أياديهم ليملأوا كروشهم ، إن الصوت قد خفت ، وأن المشعل قد انطفأ ، ولكنهم نسوا أن الرسل يبلغون والله يثبت وأن المصلحين يبذرون والدهر ينيب وأن جمال الدين إنما كان صيحة الحق وإشراقة الهدى انبعثتا فى يومهما الموعود كما ينفجر المكظوم فيدوى ، ويحلولك الليل فيصبح ، وهل كانت الثورات الديمقراطية التى شبها العرابيون ثم المهدويون ثم السعديون ثم الفهلويون إلا إقباساً من تلك الشعلة المباركة التى حملها الافغانى وتنقل بها فى ممالك الشرق يحرق ويضىء ، وينضج ويحمى ويقبس ويشعل وساعده مرفوعة لا تكل ، وعزيمته ماضية لا تكل .

لقد ظل الشرق قرونا عديدة ، رازحا تحت نير الجمود الفكرى والتأخر العلمى والاستعباد السياسى وبقى فى سبات عميق إلى أن قيض له الحكيم الافغانى جمال الدين فنفخ فيه روح اليقظة والحياة وأهاب بالنفوس أن تنهض ، وبالعقول أن تستيقظ وبالامم والجماعات أن تتطلع إلى الحرية فكانت رسالته إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة .

ولد الافغانى سنة ١٨٣٨ فى أسعد آباد من بيت طويل النجاد ، رفيع العماد، يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين ، سؤدد الإمارة على بعض الاقاليم

الأفغانية ، كما درج فى بيئته على روح الإعتزاز بطباع البداوة من حرية وحمية ، وأريحية وأنفه ، وقد درس فيما بين الثالثة والثامنة عشرة من عمره علوم الدين والدنيا ، وفنون اللسان والعقل على منهاج محيط شامل وحذق فى مراحل حياته ، ومواطن رحلاته ، اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية وألم بالإنجليزية والروسية فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب فى القديم والحديث وقد طوف ماشاء الله أن يطوف فى أقطار الهند وإيران والحجاز ومصروتركيا وانجلترا وفرنسا وروسيا فازداد بصرا بأحوال الدول وأخلاق الشعوب ومن بلاده أفغانستان التى تقع بين الهند وإيران ماأمكنه من أن يرى ميادين الاستعمار المدل المذل ، تتواثب عليها قوى الإنجليز والروس ، ظاهره وباطنه ، فهاله منذ شب ، عدوان الأجنبى على استقلال أمته وجيرته . وكل ماذكرنا من كرم المحتد وشرف المولد ، وبراءة البيئة وعمق الثقافة وحذق اللغات وإدمان الرحلة ومعاناة الاستبداد ومكابدة الاستعمار لم يخلق وحده الرجل المصلح فى جمال الدين . وإنما كان مساعدا لسر العبقرية الذى أكنه الله فيه ، على أن يظهر مهيأ الأسباب مستكمل الوسائل .

كان رضى الله عنه ، متواضع النفس لأنه عظيم ، جرىء الصدر لأنه حر ، ندى الراحة لأنه زاهد ، ذرب اللسان لأنه قرشى، أبى الضيم لأنه أمير ، حاد الطبع لأنه مرهف ، صريح القول لأنه رجل ، ولم يبتغ من وراء هذه الصفات كما قال - إلا سكينة القلب . وكان يحمد الله على أن أتاه من الشجاعة مايعينه على أن يقول مايعتقد ويفعل مايقول .

ومن نماذج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه ، اتسعت حوله الأرض وامتد أمامه الأفق وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامى كله والشرق الإنسانى كله . فجعل هدفه إنهاضها بالوحدة

الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر وبالحكومة الدستورية لتقمع شره المستبد .

وقد آمن بهذه الدعوى إيمانه بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شهادة .

تولى الوزارة وهو فى ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم . فجمع نفسه على الإستقلال وأدار أمره على الشورى فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة ومزق الكلمة وطرد الأمير وخرج السيد إلى الهند يبتغى السكينة عند تاجر صديق فاستقبله الإنجليز على الحدود وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة فسألهم الإقامه شهرين ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه وإصغاءهم الشديد له قصروا هذه المدة وأمروه بالخروج وكادت الأعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال للزعماء الهنود وهو راحل :

« وعزة الحق وسر العدل . لو أن ملايينكم مسخت ذبابا لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند ولو انقلبت سلاحف ، وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية ، لجذبتها إلى القاع » .

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة ، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة ثم عين عضواً فى مجلس المعارف . فرأى فى التعليم رايا وخطب فى الصناعة خطبة أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم وأخوان الضلال من شيوخ الدين . وتولى قيادة الأرجاف شيخ الإسلام لحاجة فى نفسه . فافترى على الرجل بالأباطيل وبث حواليه الأرصاد فلم يجد الأفغانى بدا من النزوح إلى القاهرة .

الحالة فى عهده :

أسرفت حكومة اسماعيل فى القروض ، وبدأت عواقب هذا الإسراف

تظهر للعيان رغم مابذلته الحكومة لإخفائها بمختلف الوسائل ، وأخذت النفوس تتطلع إلى نظام الحكم بعد ، إذ أحست مرارة الاستبداد وهالتها فداحة القروض التى كبلت البلاد بقيود تدخل الدول .

ويمكننا أن نحدد أواخر سنة ١٨٧٥ وأوائل سنة ١٨٧٦ كمبدأ للتدخل الأوربى إذ حدث من مظاهره وقتئذ ، شراء انجلترا أسهم مصر فى القناة ثم قدوم بعثة المستر «كيف» الإنجليزية لفحص مالية مصر ثم توقف الحكومة عن أداء أقساط ديونها وما أعقب ذلك من إنشاء صندوق الدين فى مايو سنة ١٨٧٦

فهذا التدخل كان من الأسباب الجوهرية التى حفزت النفوس إلى التبرم بنظام الحكم والتخلص من مساوئه لأن سياسة الحكومة هى التى أفضت إلى تدخل الدول فى شئون البلاد ، وامتهانها كرامتها واستقلالها .

ومن هنا جاءت النهضة الوطنية والسياسية ووجدت مبادىء حكيم الشرق وتعاليمه سبيلا إلى النفوس فكانت من العوامل الهامة فى ظهور هذه النهضة التى شغلت السنوات الأخيرة من عهد إسماعيل وكانت من أعظم أدوار الحركة القومية .

أثره العلمى والأدبى :

أقام المترجم فى مصر وأخذ يبث تعاليمه فى نفوس تلاميذه ، فظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العلم والعرفان ، وارتوت من ينابيع الأدب والحكمة ، وتحررت عقولها من قيود الجمود والأوهام ، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة فى مصر خطوات واسعة ، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجالسه على طلبة العلم بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان وغيرهم .

وكان للأفغانى الأثر البالغ فى نهضة العلوم والآداب فى مصر ولا يفوتنا

القول بأن البيئة التى نهض بها كانت مستعدة للرقى صالحة لغرس بذور هذه النهضة وظهور ثمارها ، ولولا هذا الإستعداد لقضى على هذه الدعوة فى مهدها ، ولأخفق فى مصر كما أخفق فى الآستانة ـ وهذا يبين لنا جانبا من مكانة مصر وسبقها الأقطار الشرقية فى التقدم العلمى والفكرى والسياسى .

ويزيد هذه الحقيقة وضوحا ، أنك إذا استعرضت حياة جمال الدين الافغانى العامة وما تركه من الاثر فى مختلف الاقطار الشرقية التى بث فيها دعوته ، وجدت أثره فى مصر أقوى وأعظم منه فى أى بلد من البلدان الاخرى .

ولقد جاء المترجم مصر يحمل بين جنبيه روحا كبيرة ونفسا قوية ، تزينها صفات وأخلاق عالية ، أنبتتها الوراثة والتربية الاولى ، وهذبتها الحكمة والمعرفة ومحصتها الحياة الحربية التى خاض غمارها فى بلاد الافغان ، والتجارب التى مارسها والشدائد التى عاناها .

جاء وفيه من الشمم والإباء ماصدفه أن يطأطىء الرأس أو يقيم على الضيم ، وفيه من الثبات ماجعله يتغلب على العقبات التى اعترضته فى أدوار حياته .

فهذه الاخلاق التى جاء بها جمال الدين كانت بلا مراء أقوى مما عرف عن المجتمع المصرى فى ذلك العهد ، من خفض الجناح ، والصبر على الضيم ، والخضوع للحكام وليس يخفى ما للشخصيات الكبيرة من سلطان أدبى على النفوس وما تؤثر فيها من طريق القدوة . فأخذ السيد يبث فى النفوس روح العزة والشهامة ، ويحارب روح الذل والاستكانة ، فكان بنفسيته ودروسه ، وأحاديثه ومناهجه فى الحياة مدرسة أخلاقية رفعت من مستوى النفوس فى مصر ، وكانت على الزمن من العوامل الفعالة للتحول الذى بدا على الامة وانتقالها من حالة الخضوع والإستكانة إلى التطلع إلى الحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه ، والسخط على تدخل الدول فى شئون البلاد .

طريقته فى نشر دعوته

نشاطه التعليمى :

كان نشاطه التعليمى ذا شعبتين :

(ا) دروس علمية منظمة يلقيها فى بيته فى « خان الخليلى » على طائفة من مجاورى الأزهر وبعض علمائه، أمثال الشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ إبراهيم اللقانى والشيخ سعد زغلول والشيخ إبراهيم الهلباوى يشرح لهم فيها كتب المنطق والفلسفة والتصوف والهيئة، ثم يتخذها الأفغانى تكأه يستند عليها فى شرح أفكاره وآرائه والتبسط فى مناحى الفكر .

(ب) دروس غير منظمة : —

١ — كان يلقيها على زواره فى بيته .

أو ٢ — يلقيها على عظماء الرجال عند زيارته لهم فى بيوتهم .

أو ٣ — يلقيها على خاصة المفكرين والمثقفين عند تحلقهم حوله فى (قهوة متاتيا) بميدان العتبة الخضراء وجمهور الناس عند اجتماعهم به فى المناسبات .

وفى هذه المدرسة تلقى دروسه لفيف من المفكرين الذين أصبحوا قادة الرأى فيما بعد أمثال محمود سامى البارودى وعبد السلام المويلحى وأخيه إبراهيم المويلحى ومن الشباب أمثال محمد عبده وعبد الله النديم وسعد زغلول وإبراهيم اللقانى وعلى مظهر وسليم نقاش وأديب إسحاق وغيرهم .

المحافل الماسونية :

ولقد أفاد دعوته اشتراكه فى المحافل الماسونية التى كانت تجمع النخبة

من المفكرين والناهضين المصريين وقد اشترك أولا فى المحفل الماسونى الاسكتلندى آملا فى أن يبث عن طريقه آراءه ولكنه أخفق فاستقال ، وأنشأ محفلا ماسونياً آخر تابعاً للشرق الفرنسى وسرعان ما بلغ أعضاؤه ، أكثر من ثلثمائة عضو من خيرة النابهين،وقد كان له مطلق الحرية فى تنظيمه فنظم نشاطه لعدة شعب ، وجعل لكل وزارة من الوزارات شعبة تدرس شئونها وتقترح الآراء الصائبة ، ثم تتصل كل شعبة بالوزير المختص وتبلغه رغباتها فى أسلوب حازم صريح وكان ذلك سنة ١٨٧٨، وهكذا اتسعت دائرة نفوذه وأعماله ، ثم ها هو ذا يريد أن يسيطر على الوزارات ومصالح الحكومة بمحفله .

آثار هذه الدروس :

١ — شجع بعض الكتاب من تلاميذه على إنشاء الجرائد ، وكان يكتب فيها ويستكتب من يتوسم فيه المقدرة ، فأنشأ أديب اسحق جريدة « مصر » ثم جريدة « التجارة » بالإسكندرية وقد استكتب لهاتين الصحيفتين الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقانى .

٢ — وجه الكتاب من أنصار مبادئه للكتابة فى الوقائع المصرية وأمثالها بإرشاده وتوجيهه فربى بذلك طائفة من الكتاب تحسن الكتابة وتحسن اختيار المواضيع التى تمس حياة الأمة فى صميمها ، وتنبذ السجع المملول وتتحرر من قيود الصناعة اللفظية .

٣ — تكونت من دروسه الغير نظامية مدرسة تجيد السمر والحديث وتشقيق الكلام وحسن الاستطراد وعلاج كل الموضوعات الوطنية والاجتماعية بأسلوب واضح وتفكير منطقى سليم أمثال محمد عبده وسعد زغلول والهلباوى وعبد الله النديم .

قال الشيخ محمد عبده فى وصف حال مصر قبل مجىء « جمال الدين » .

« إن أهالى مصر قبل ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة بل الخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى أومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيها صلاحاً لأمته : . ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا ، وتعلم فيها فى عهد محمد على لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ولا فوائد تلك المعارف . ومع أن اسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ هـ وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأناً فى مصالح بلادهم وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل ، ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة غير التى يوجهه إليها الحاكم، لما أمكنه ذلك فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن أو إزهاقا للروح أو تجريداً من المال » .

فكان الأدب ظلا لهذا الموقف ، وصورة صادقة لهذا المنظر — فأدباء مصر أمثال السيد على أبى النصر والشيخ على الليثى وعبد الله فكرى باشا تتصفح آثارهم فماذا ترى — غزلا فى حبيب أو رسالة إلى صديق أو مدحا لأمير أو استعطافا له أو وصف سفينة أو شكراً على هدية . أما مصر وحالة شعبها وبؤس قومها وظلم حكامها وحقوق الناس وواجبات الحكومة فلم نعثر منها على شىء . فكان من آثار مدرسة الأفغانى تحول مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال ، وتسخيره فى خدمة الشعب والمطالبة بحقوقه ورفع الظلم عنه ومهاجمة من يعتدى عليه كائناً من كان ، وكان يبعث فيهم الجرأة ،

ويحرضهم أن يخرجوا من الظلماء إلى النور ولا يخشو بأس الحاكم ، وأن يلحوا فى طلب حقوقهم المغصوبة وسيادتهم المسلوبة فخرج على الناس بأدب جديد ينشد الحرية ويخلع العبودية ويفيض فى حقوق الناس وواجبات الحاكم ويجعل من الأدب مشرفا على الأمراء لا سائلا يمد يده للأغنياء » .

قال سليم بك عنحورى : —

« كان من ديدن « جمال الدين » أن يقطع بياض نهاره فى داره حتى إذا جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه إلى مقهى قرب ازلأبكية وجلس فى صدر هيئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ، ينتظم فى سمطها اللغوى والشاعر والمنطق والطبيب والكيماوى والجغرافى والمهندس والطبيعى فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه وبسط أعوص الأحاجى لديه فيحل عقد أشكالها فرداً فرداً .... » .

ويقول فى موضع آخر « أنه فى خلال سنة ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً لأنه تدخل فى السياسة وأخذ يقرب العوام ويقول لهم فى أثناء كلامه : —

إنكم معشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك والرعاة حتى اليوم ، وأنتم محتملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين تسومكم حكوماتكم الحيف والجور وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم صامتون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كرات حيوية ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ، تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان ثم الفرس ثم العرب ثم الأمراء والمماليك وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .... » .

نفيه من مصر

ولقد كان الخديو توفيق من أصدقائه وأنصاره ، واجتمع به مراراً فى المحفل الماسونى وعاهده على العمل بنصائحه وتوجيهاته ، التى كان منها تدعيم النظام النيابى فى البلاد ثم إقصاء حاشية والده الخديو اسماعيل وقال له فيما قال « إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب فى حكم البلاد عن طريق الشورى » ولكنه لما تولى الحكم تحول ضده بما سعى إليه الساعون ، فاجتمع مجلس الوزراء وقرر نفى السيد جمال الدين الأفغانى ، وجاء فى حيثيات قراره « لأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدنيا والدين » .

وقبض عليه وعلى خادمه الأمين أبى تراب فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وأودعا باخرة سارت بهما إلى بمباى ، وكان هذا آخر العهد بالأستاذ فى مصر ، على أن روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها فى المجتمع المصرى وبقيت النفوس ثائرة تتطلع إلى إصلاح نظام الحكم وإقامته على دعائم الحرية والشورى ، فجمال الدين من الوجهة الروحية والفكرية هو أبو الثورة العرابية وكثير من أقطابها من تلاميذه ومريديه ويقول سليم بك عنحور فى هذا الصدد « وفى خلال سنة ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً وسما مقامه لأنه تدخل فى السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية مثل محمود باشا سامى البارودى الذى نفى أخيراً مع الزعيم أحمد عرابى إلى جزيرة سيلان ، وعبد السلام بك المويلحى النائب المصرى فى دار الندوة وأخيه ابراهيم المويلحى كاتب الضبطية وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ويعلون بين الناس مناره من أرباب الاقلام ، مثل الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقانى وعلى بك مظهر والشاعر الزرقانى وأبى الوفاء القونى وسليم النقاش وأديب اسحق وعبد الله النديم فى الاسكندرية .

وبعد أن أقام بالهند حتى انقضاء الثورة العرابية سافر لأوروبا وانتقلت الشعلة إلى باريس وسطعت فى العروة الوثقى وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض فى جنبات الشرق كما تومض المنارة فى ظلمات المحيط . حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة .

وكانت له بحوث قيمة مع الفيلسوف ارنست رينان وجهاد سياسى فى إيران سنة ١٨٨٩ فقد استقدمه الشاه واستوزره فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه ، واستزاره قيصر وروسيا واستخبره ، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه ، واستدعاه خاقان الترك واستشاره فلما نصح له بالشورى وتقسيم الأمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون زوى عبد الحميد بين عينيه ، ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين، حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدور . . .

وهكذا كانت حياة جمال الدين كلها جهاداً مضنياً فى سبيل الله والعلم والحرية والشورى ، كان أينما حل تنفس الصبح واستيقظ الهجود ، وأينما رحل ارتجفت العروش واضطربت القيود . . طيب الله ذكرى هذا الإمام العظيم . . . ! !

(٣) صورته الجسمانية والنفسية

كان متوسط القامة نحيل الجسم حنطى اللون ضعيف ، البدن على وجهه تبدو علائم التعب والكد ، وكان وجهه إلى الدمامة أقرب ـ وقد رسمت الآلام والأشجان ـ خطوطها على صفحته ، وربما كان لضعف جسمه وكثرة علله ، موت أطفاله جميعاً فى طفولتهم ، فقد رزق قبل الاستخفاء بمحمد وعثمان

وإلياس وفاطمة وعائشة وسكينة وخديجة كما رزق أيام الاستخفاء بحنصه وريا وكلهم لم يعش طويلا ومع هذا فهو على مرضه - فقد بذ أقوياء الجسم فى نشاطه الدائب وشدة إقباله على أى عمل يوكل إليه لا يعتريه كلال ولا يصيبه ملل ، يود أن يخلد اسمه بالعمل بعد أن حرم تخليد اسمه بالولد .

ومع أنه لم يكن وسيم المظهر فإن طلاقة لسانه وخفة روحه وسرعة بديهته قد غطى على قبح منظره فأحبه الناس وأصبح نديم الملوك والعظماء .

كان فى حياة النديم شىء من التهريج ، فليس هو جاد فى كل أمر بل اتسمت بعض تصرفاته بالبساطة حتى أنه بعد ما كان يرتدى فى أول أمره الثياب الأفرنجية غدا بعد اختفائه ، يظهر مرتديا الجبة والقفطان معتما بعمامة خضراء ،مدعيا أنه شريف ادريسى ينتسب إلى الحسن بن على ولم تكن دعواه الأخيرة على جانب كبير من الصحة . وما دفعه إلى ذلك سوى معرفته أخلاق الناس وطباعهم وتمجيدهم ذوى الأنساب العريقة والثروات العريضة وقد كان عاطلا من هذا وذاك .

كان من دعائم شهرته قوة لسنه وذكائه . قال عنه المرحوم أحمد تيمور باشا (كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز لقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس وفصاحة سحبان وقبح الجاحظ أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا) .

وقال عنه المرحوم جورجى زيدان بك :

(أما أخلاقه فكان بارا بوالديه وذوى قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم ، فما أقرض شيئا وطالب به ، ولا رد يوما سائلا ولا خضع لعظيم قط وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأواسطهم وكان ذكيا فطنا قوى الحافظة فصيحا جريئا شاعرا مطبوعا وكاتبا ثائرا) .

وقال عنه الزعيم العظيم جمال الدين الأفغانى :ـــ

(إنه ما رأى مثل النديم طوال حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكما بإزاء معانيها إذا خاطب أو كتب)

وكان كريماً بالناس من كافة الطبقات براً بالفقراء لا يضن عليهم بماله أو جهده ، وفياً شهماً إذا أقرض أحداً لا يطالبه بقرضه ، غير مقتر ، فكلما أتاه من المال أنفقه على الناس وكان طاهر القلب عف الضمير وقف قلمه ولسانه للحث على الأخلاق والفضائل الوطنية ونشر على الناس عن الرذائل المتفشية فيهم بكل جراءة وصراحة .

وقد اتسع صدره للضعفاء والمظلومين من أبناء الوطن فكلأهم بعنايته واخفض لهم جناحه وأوسع لهم مجال عطفه وحدبه ولكنه تميز غضباً ومقتا من الظالمين والطغاة، فإذا غضب على أحدهم فهو يندفع لمساجلته شاهراً أسنان قلمه موجها ، كل قوته نحوه ، مشهراً به ناشراً صفحات ظلمه على الملأ فى غير ما خوف ولا تردد .

كان لطيف المحاضرة فصيح الكلام فإذا تكلم أنصتت إليه الآذان ، وشربت حديثه العذب ، كل الطباع اصطنع كل أساليب الأحاديث فى عهده ومرن عليها وأتقنها ، فلو تحدث مع العامة ومحدودى الثقافة استطاع أن يؤثر فيهم ويرشدهم ويوجههم ، وإذا تحدث إلى كبار الناس من الساسة وزعماء الرأى أرغمهم على الإعجاب به، بما أوتيه من ذخائر المعانى وناصع البراهين وقوة الأدلة وكذلك أتقن الحديث بجميع لهجات اللغة العربية فى أجزاء القطر ، وفى بلاد العروبة جمعاء وقد أعانه ذلك كثيراً فى وقت استخفائه .

تقلب فى حياته على صور مختلفة وتردد ذكره بين الناس ـ أثناء

استخفائه ـ محوطا بهالات من الأسرار ـ فهو فى أول حياته شخص فقير مغمور ، يختلط بالسوقة وغمار الناس ثم بعدها يظهر كأديب ملحوظ ، ذا قدرة فى صناعة اللسان ، ثم يوما يشتغل كمعلم ترمقه الأنظار بالتجلة والاعتبار ثم هو بعد ذلك صحفى مشهور وخطيب عظيم وموجه للرأى العام ثم فجأة يختفى فإذا هو أسطورة من الأساطير تختلف بأسبابه الظنون وتختلط عن شخصيته الأوهام بالحقائق ؟؟؟

وقد كان محبوبا من الشعب، كل من ذاق حديثه استعذب أن يدوم استماعه ولو طال الوقت ، لا تفارقه بسمته العذبة ولا شعاعة عينيه المتألقتين ـ ينساب حديثه حلوا هادئا كالجدول الرقراق يختال بين الزروع والأزهار ذا صوت جميل الوقع حسن الجرس .

وإذا ما اعتلا منصة الخطابة ووقف بين الجماهير فان لصوته هديرا كالموج وقصفا كالرعد لا سيما إذا ثار وزمجر وأكثر ما تكون ثورته على أعداء الشعب من الحكام والظالمين وعلى فوضى الجهل والمساوىء الاجتماعية ـ ثم يختلف صوته فى الخطابة كلما تغيرت معانيه فهو إذا هدأ فان صوته كعزيف الريح الرخاء حينما تهب هبوبا خفيفا فتحرك الغصون والاشجار أو هو كلحن هادىء قوى الرنين شديد الحنين ، كان خطيب مصر فى أعنف مرحلة من مراحل تاريخها الطويل، مرحلة الثورة على الاستعباد والظلم فكان لخطابته أعظم الاثر فى تنبيه الشعب .

لم تفارقه حلاوة حديثه فى كل ظروف حياته ، حتى أثناء هروبه حين كان مشردا هائما يطوف الفيافى والقرى عابرا بالدساكر والمزارع فكان الناس يندهشون من حديثه الذى يشبه حديث النديم وهم يعتقدون أنه شخص آخر ثم يقولون « لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » سبحانك اللهم على

قدرتك لقد مات النديم وذهب إلى رحمة الله ولكن هذا الشخص يشبهه فى كل شىء » .

وفى عهد الثورة العرابية انقلبت مصر مسرحاً للخطباء فى كل مجتمع وناد ، حتى فى المساجد ولم يبق مجلس للسمر أو الاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنيين بعد إقصائهم عنها ، حتى لقد اشتهر أن محمد عثمان المغنى المشهور إذا سئل — فى أى فرح تغنى الليلة — أجاب « فى الفرح الفلانى مع عبد الله نديم » فكان النديم جلوة المجتمعات وبهجة المنتديات كأنما لم يكتف الناس لاطرابهم فى أفراحهم بالموسيقى والمغنى والدفاف ، والزمار ولكن كان فى خطب النديم وسلاسة عباراتها وروعة معانيها ونفاذ تأثيرها فى الهاب شعور السامعين ، أبلغ غذاء روحى تسمو به النفوس الى ذرى الإحساس الوطنى الرفيع .

ونحن إذا شئنا أن نستكمل الصورة النفسية لذلك العبقرى ، قلنا أن الرجل كان رقيق القلب ، صاحب نفس متألمة معذبة ، فرقة قلبه تتمثل فى إنسانيته وتسيل على شباة قلمه ، فإذا قرأت كتاباته فى هذه الألوان مال قلبك إليه وأحببته وانعقدت بين قلبك وقلبه مودة أواصرها من نسيج السماء .

اقرأ كتاباته عن المعذبين سواء فى معسكرات التسخير فى مزارع الخديو والأمراء أو عن المظلومين بأى نوع من الظلم أو المحرومين من الحرية الجميلة حرية الأخلاق والفضائل، الذين يعيشون كما تعيش السوائم بلا حس ولا فكر أو الذين يرتعون فى نعيم الجهالة وغياهب الوخامة وبؤر الإدمان والمخدرات ، تحس أن الرجل يكتب بقلبه ومن قطع نفسه ومن زفرات صدره ، وأن معانيه تفيض أسى ولوعة وحسرة .

قال عنه الأستاذ أحمد أمين « طالما غذى الناس بقلمه . وهيجهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم ، وحير رجال الشرطة ، وأقلق بال الساسة ، ونازل

خصومه من رجال الصحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل ، وعلى أى حال كان ، حتى هدأه الموت الذى يهدىء كل ثائر ، ومهما أخذ عليه فقد كان عظيما ، وكانت جريدة « الأستاذ » هى الأستاذ لمصطفى كامل تعلم منها الاتجاه والنغمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والاسلوب بحكم الزمن والاحداث والظروف » .

ويقول العقاد عنه : كان عبد الله النديم خطيباً مطبوعا ، ومحدثاً ظريفاً من الطراز الاول كما شهد له عدوه وصديقه ، وكان إذا كتب فكأنما يرتجل الخطابة لسهولة منحاه ، وتدفق كلامه ، وتناسق عباراته ، ألا حين يكتب الخطب المنبرية أو المقامات المصنوعة ، وكان أعجب نموذج من نماذج الشخصيات فى تاريخ الادب المصرى الحديث » .

ومن أقوال أحمد عرابى عنه حينما كان مع الجيش يوم ثورة عابدين ، يشد أزر الرجال ويثبت قلوبهم :

« فجال صديقى الأعز الهمام ، صاحب العزة والعزم القوى السيد عبدالله نديم بين الصفوف ينادى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) ، فكان معى ثانى اثنين فى حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف ، وأخذ يردد هذه الآية الكريمة كأنهم لم يسمعوها إلا من فمه فى تلك الساعة(١)

---

(١) كشف الستار ص ٢٦٦

الفصل الثالث

آثار النديم الثقافية

١) أثره فى التعليم .

٢) المسرح المدرسى .

٣) إصلاح الأزهر .

٤) سعيه فى سبيل اللغة العربية ؟

٥) دعوته إلى إنشاء المجمع اللغوى .

اثره فى التعليم

الجمعية الخيرية الإسلامية (الأولى) تأسست سنة ١٨٧٨

ثم اتجهت هذه الجمعية السياسية الأولى إلى تغيير ظروفها من جمعية سرية إلى جمعية علنية ، لها أغراض عملية ظاهرة ، فتسمت باسم الجمعية الخيرية الإسلامية وآلت على نفسها متابعة أهدافها الأولى من السعى فى سبيل التحرر من نير الظلم والاستبداد ومقاومة استئثار الأجانب بمرافق البلاد الاقتصادية ثم عولت على تنفيذ برنامج إنشائى قومى ، فاستحدثت غرضاً جديداً لها وهو فتح المدارس لتعليم أبناء الشعب وتهذيب أخلاقهم فكانت بذلك أول جمعية خيرية تنشأ لغرض فتح المدارس الحرة وإرساء قواعد التعليم الحر فى البلاد، وكانت توالى نشاطها السياسى ، فكانت دارها بالمساء بمثابة ندوة كبيرة للخطابة السياسية والعلمية . وقد اختارت الجمعية عبد الله النديم ليكون مديرا لهذه المدرسة ، وقد شجعت الحكومة هذه الجمعية الناشئة فى غرضها العظيم فصادقت على قانون تأسيسها ، وأخضعت المدرسة لإشرافها وتفتيشها ،وكان من أعضاء هذه الجمعية العاملين : حسن منصور والدكتور حسن سرى ومحمد شكرى معاون ضبطية اسكندريةوالحاج أمين الكيال، الشيخ محيى الدين البنهانى ومحمود واصف والشيخ على ضيف وحسن المصرى وعبد المجيد عمر شويطر ورستم بك العلايلى وأحمد نبيه ومحمد باشا الناضورى ومحمد بك العدل وعبد القادر الغريانى بك — وكانت تشرف على المدرسة لجنة من أعيان الإسكندرية تحت رعاية الخديو توفيق ورئاسة محافظ الاسكندرية (وذلك من مذكرات المرحوم حفنى بك ناصف) وقد حصل شقاق فى هذه اللجنة فاستقال المحافظ من إدارتها وتولاها آخر . ومكثت المدرسة تؤدى رسالتها .

نبذة عن التعليم فى عهد إسماعيل :

لا بد أن نشير هنا إلى أسلوب التعليم فى عهد إسماعيل ، حتى نستطيع أن ندرك أهداف السياسة الجديدة التى اختطها الشديم لمدرسته وندرك كذلك مميزاتها .

كان عدد المدارس التابعة لوزارة المعارف فى عهد إسماعيل —١٢٠مدرسة ما بين عالية وثانوية وابتدائية ـ فقد جاء فى خطبة العرش التى ألقاها الخديو إسماعيل فى مجلس شورى النواب فى ٢٨ يناير سنة ١٨٦٩ أن المدارس التابعة للحكومة فى جميع القطر هى :

بالقاهرة ـ مدرسة المبتديان والمدرسة التجهيزية والمهندسخانة والأبنية والإدارة والألسن (الحقوق) والمساحة والمحاسبة والعمليات (الفنون والصنايع ومدرسة الرسم) .

وبالاسكندرية ـ المدرسة الابتدائية والمدرسة التجهيزية والمدرسة البحرية .

وبالأقاليم — مدرسة طنطا ومدرسة أسيوط .

نظام التعليم بمدارس الحكومة :

كان التعليم فى مدارس الحكومة فى مبدأ الأمر داخليا كله على نفقتها، مع المأكل والملبس ـ وكانت مواد الدراسة ـ التركية والفرنسية والانجليزية والألمانية والعربى ثم المواد العلمية الأخرى مثل الحساب والجغرافية والتاريخ والهندسة والرسم والخط العربى والخط الافرنكى ... الخ وكان أولو الأمر يهتمون بتعليم اللغة التركية بجانب تعليم اللغة العربية ـ وكان الإشراف العام على الطلبة من حيث دخولهم وانتقالهم داخل المدرسة وخارجها ذا صبغة عسكرية فكان ضباط المدارس يطبقون عليهم بما هو أشبه بالنظام العسكرى كما كان هناك بعض البروجية من السودانيين، للمساعدة فى تنظيم الخطوط على إيقاع البروجى أثناء السير

ويفهم من هذا أن النظام الذى كان يطبق على الطلبة كان أبعد ما يكون ، عن المنهج القويم للتعليم الصحيح والتربية ، بل هو نظام جاف قاتم ، لا يكون مواطنين صالحين قد تشبعوا بحب وطنهم وتهذبوا بالآداب القويمة المبنية على الحب لا على الرهبة ـ وقد زاد الطين بلة ، ما فرض من أساليب للعقاب ، فى غاية القسوة والعسف ، فكان المتبع أما أعطاءهم الخبز دون إدام ، أو الجثو على الركبتين أو استعمال سوط (الزخمة) من الجلد لضرب الطلبة على أرجلهم بواسطة (الفلقة) لشد أرجلهم بها ، وكذلك الحبس فى الزانزانة بالمدرسة وهى حجرة بها منفذ بسيط .

ثم أنشئت بعد ذلك الأقسام الخارجية بالمدارس ، وفرضت المصروفات فى أول الأمر على بعض التلاميذ دون نظام معين بل كانت بحسب مقدرة ولى أمر الطالب المالية ، وبدىء بتنفيذ ذلك النظام فى مدرسة المبتديان والمدرسة التجهيزية :

* * *

بعد أن استرجعنا من الماضى صورة الجو المدرسى فى ذلك العهد ، سنرى ماذا فعل ذلك المعلم الجديد ، الذى لم تخرجه جامعة ولم يتعلم فى أى مدرسة نظامية فى حياته . ذلك المعلم الفريد فى تاريخ مصر بل فى التاريخ بأسره ، لأن النظام الذى أقامه فى التعليم منذ حوالى قرن ، يتفق مع أحدث مبادىء التربية الحديثة المعمول بها فى أحدث المدارس فى العالم .

١ — تولى عبد الله النديم إدارة المدرسة فغير النمط الجاف الذى كانت عليه المدارس الحكومية إذ ذاك ـ وأضاف إلى تعليم مبادىء العلوم ، المواد التى تنبت فى النشء روح الوطنية والشعور القومى من تربية وأخلاق ودين وتاريخ .

٢ — كان يقوم هو بتعليم الإنشاء العربى والأدب .

٣ — استحدث فى هذه المدرسة مادتى التمثيل والخطابة علماً وعملا .

٤ — كان يعلم كثيراً من أبناء الفقراء والأيتام بدون مصاريف .

٥ — كان يعنى بتشجيع الطلبة وشحذ ملكاتهم وتحميسهم فى دراستهم بإثابتهم بالجوائز ، وكثيراً ما كان يشتريها لهم من جيبه الخاص لشدة اهتمامه وحرصه على منفعتهم .

ولقد بلغت المدرسة شهرة بعيدة ، وكانت أول مدرسة لها برنامج علمى وطنى وكانت أول مدرسة تعلم الخطابة تعليما على أسس دقيقة ، وتربى فى الطلبة روح الاعتداد بالذات والثقة بالنفس ، وتساعد على تكوين المواطن الصالح ، الذى يحب لغته ويتقنها ؛ وكان مراد النديم من تدريب الناشئة ، على أساليب الخطابة ، والجدل ، لبث روح النخوة ، والغيرة فى أفكارهم ، وليتمكنوا إذا بلغوا مبلغ الرجال ، من أداء مقاصدهم ، بلا حياء ولا خجل ، ولتقوى فى نفوسهم الثقة ، فيكافحوا فى حياتهم بعزيمة قوية وإرادة ذات مضاء ، لا يرهبون أحدا ، مهما كان شأنه .

وكانت الأمة فى أشد الحاجة إلى ذلك الأسلوب الجديد من التعليم لسبب ما قضى به الحكام على أذهانها ، من الجبن والخمول ، والضعف والاستكانة ، وقصور الناس عن التعبير الصادق الصريح عن آرائهم ، ضعفاً ورهبة ، حتى قال أحد الكتاب عن ذلك العصر (أن أعظم عظيم كان لا يقدر أن يحدث نفسه فى سرير نومه بشىء من دواعى الإصلاح ، خوفا من الطيف ، أن ينم عليه كأنما كل مصرى كان هذا المقصد) كما يقول أبو الطيب - (إذا رأى غير شىء ظنه رجلا) .

والتربية الحديثة تعمل على إزالة الخوف من التلميذ الصغير منذ طفولته منعاً من تكوين العقد النفسية فى هذا الطور من حياته العقلية ، لأنها إذا تكونت جعلت سماء حياته فى المستقبل ملبدة بالمتاعب والأمراض النفسية

ووقفت حائلا بينه وبين ما يرجوه من تقدم فكرى وعلمى ، وأوقفت سير ملكاته وأخمدت مواهبه ووقفت عقبة كأداء أمام طموحه وتحقيق مستقبله .

ولقد رأينا كيف كانت تسلك المدارس الحكومية مع طلبتها فى إخضاعهم لنظم قاسية جافة ، وقتل روح الكرامة والعزة فيهم وجعلهم آلات صماء بلا حس ولا تفكير :

وكان المدرس فى المدرسة ، بأساليبه فى معاملة الطلبه ، أبعد ما يكون عن المربى الصالح ، الأمين على ما وكل إليه ، الذى يعمل على تهيئة الجو الصالح لتلميذه وتعليمه الأخلاق ، والمثل العالية بالتعويد ، والقدوة والترغيب، لا بالقوة والعسف والتهديد .

فكان النديم بذلك من رواد التعليم فى مصر ، لأنه مهد للأسلوب التربوى الصحيح ، وحق لرجال التربية فى مصر أن يكرموا ذكرى هذا الزعيم الذى علم أبناء مصر على أحدث نمط تعمل على أساسه المدارس الآن فى العالم أجمع

وكان ينتهز كل فرصة لإقامة الحفلات ليخطب فيها . ويقتدى به تلاميذه فيخطبوا أيضاً إما من إنشائهم الخاص ، أو من تحضير النديم ، أو ارتجالا وذلك بعد تمرينه إياهم ، وإرشادهم ، فأسس بذلك نخبة من الطلبة يحسنون التحرير ويحسنون القول .

وقد عزل الخديو إسماعيل أثناء عمل النديم بالمدرسة ؛ وحل محله الخديو توفيق فاتصل النديم به ، واستزاره المدرسة فزارها ، واغتنم فرصة زيارته وطلب منه تشجيعاً آخر وهى زيارة ولى العهد وشقيقه للمدرسة ، فزارا المدرسة . وأعد حفلة ممتازة بمناسبة قدومهما ، فوقفوا بين أيديهما وألقوا ثمانية وعشرين مقالا مختصراً ، نظماً ونثراً أغلبها من إنشاء المترجم . وكان أيضاً يعد حفلات عامة ، فى بهرة المدرسة . يحضرها كبار

القوم وسراتهم ، فيسمعون المطرب والمغرب من تلاميذه ؛ وهكذا كون جيلا من الرجال ، يستطيع أن يعبر عن رأيه بصراحة غير هياب ـ وكان من تلاميذه (مصطفى باشا ماهر) .

جمعية التمثيل المدرسى :

تعد هذه الجمعية أقدم جمعية فى مصر ، أنشأها النديم فى مدرسته لتدريس التمثيل علماً وعملا ، من درس الروايات ، وطرق الإلقاء والفنون المختلفة المتصلة بالتمثيل ، وكانت هذه الجمعية تعليمية مدرسية وجاءت بعدها جمعيات مختلفة للهواة ، مثل جمعية البر الأدبى أنشئت بالإسكندرية ، وشركة التمثيل الأدبى ، وجمعية المعارف الأدبية سنة ١٩٠٠ وجمعية أنصار التمثيل والسينما وهى آخر وأهم جمعية أنشئت فى القاهرة سنة ١٩١٤ وما زالت حتى الآن .

وهكذا يجلى النديم فى ميدان آخر وهو المسرح المدرسى فى عصر كانت البلاد حديثة العهد بالتمثيل ، فعلم الطلبة أصوله وكان أول أستاذ له ، وحق لتاريخ المسرح المصرى أن يخلد فى سطوره الخالدة اسم أول مدرس أدخل مادة التمثيل فى الدراسة واستعمل المسرح ، فى الأغراض الوطنية والأدبية فمثل النديم مع طلبته روايتين أدبيتين وهما « الوطن وطالع التوفيق » و « العرب » فى (تياترو زيزينيا) حضرها الخديو توفيق ، وكانت الروايتان من تأليفه وإخراجه وتمثيله ـ فبلغ بهما إلى ذروة الشهرة ومنح الخديو توفيق الجمعية مائة جنيهاً تبرعا وتقديراً لها .

وهواية التمثيل تعتبر هواية نافعة كل النفع للطلبة ، وتعمل وزارة التربية والتعليم الآن على نشرها بمدارسها ـ فهى عدا أنها تصقل المواهب ، وتعود على الشجاعة والتعبير الصحيح السليم وتزيد الطلبة خبرة بعلوم مختلفة لها صلة بالتمثيل ، فهى تشبع الطموح وتسمو بالغرائز الطبيعية وتحل كثيراً من المشاكل النفسية كالانطواء والتردد والخجل .

يتضح مما سبق أن النديم كان رائداً من رواد التربية الحديثة فقد ألهمته عبقريته وذكاؤه ، أن يستحدث هذه الأبواب الجديدة فى مدرسته مما جعل نظام تعليمه يسبق الجيل الذى ظهر فيه .

وقد ذكر فى مقالة له فى مجلة التنكيت أن حوالى نصف طلبة مدرسته ، البالغ عددهم ٤٨٠ طالباً ، كان يتلقى العلم بدون مصروفات ، لأنهم ما بين فقير لا يقوى على الدفع ، أو يتيم لا يجد من يعاونه .

وقد رتبت له إدارة الجمعية مرتباً عن إدارة المدرسة مبلغ ٢٠ جنيهاً شهرياً فلم يقبل منها إلا ستة جنيهات وبعد ذلك زيد المرتب إلى عشرة جنيهات ثم لما مثل رواية الوطن وطالع التوفيق ، وحضرها الخديو توفيق ، كان قد اتفق على إعطائه ربع إيراد الحفلة لأنها من مجهوده الشخصى ولكنه لم يأخذ شيئاً .

إصلاح الأزهر

الأزهر مشكاة النور للعالم الإسلامى اجمع ، تشع منه أنوار الهداية والعلم لجميع الشعوب الإسلامية ، هو الجامعة العريقة الأثيلة ، ما لها قد تراكمت عليها غيوم الإهمال ورانت عليها أسباب الخمول والرتابة ! إنه يغذى أقطار العروبة جمعاء بالرواد والعلماء والمرشدين ، فلماذا لا تصلح أساليبه ، وتنقح طرق التعليم فيه ، بما يتناسب ومقتضيات الظروف والأحوال ، لأن جامعات الغرب وهى أحدث منه عهدا : وأقل منه مجداً ، كانت فى ذلك الوقت ، قد فرغت من أمر نظمها وطرق التدريس فيها ، لأنها بلغت الغاية فى هذا المضمار .

كان ذلك حال الأزهر فى عهد النديم بعد عودته من منفاه ، ومصداقنا على حالته ما ألقاه مندوب مصر فى المؤتمر الثالث عشر من مؤتمرات علماء اللغات الشرقية المنعقد بمدينة همبورج فى ١٩٠٢/٩/١ عن حا التعليم بالأزهر .

« إن الغاية التى يرمى إليها الأزهر ، هى تخريج قوم عالمين بالأحكام الشرعية والعلوم العربية محافظين على التعاليم الدينية ، والآداب والنصائح العربية قادرين على نشر تلك الأحكام والآداب ، ذوى سلطان على قلوب العامة والتأثير فى نفوسهم حتى يسلكوا بهم المحجة الواضحة الموصلة إلى أغراض الشرع الإسلامية الحقة .

وهى فائدة عظمى لو أتيت من بابها ، واتخذت لها وسائلها . ولكن حصل انحراف فى السير ، لخلو التعليم من كثير من الوسائل الموصلة إلى ذلك الغرض الأسنى ، والمقصد الأقصى إذ العناية بعلوم اللسان العربى ، قاصرة على معرفة القواعد والمناقشات فى الألفاظ والتوسع الزائد فى ذلك وهو ما يضل الطالب ، ويحيد به عن الجادة الموصلة إلى الغاية . لذلك كانت هذه الطريقة عقيمة . لا يترتب عليها تقوية الملكة فى تلك العلوم ولا البراعة فى الأساليب وفصاحة التراكيب ، خصوصاً مع إهمالهم معرفة مفردات اللغة ، ضبطا ووصفاً وخطب العرب واشعارها ، ولذا ترى دراسة اللغة العربية مع استغراقها زمناً كبيراً ما بين تعلم وتعليم لا تمكن الكثير من الوقوف على أسرارها ، واستخراج ما فيها من كنوز الدقائق .

وكذلك تدريس العلوم الشرعية لم تراع فيه ثمرة تلك العلوم من حفظ أحكامها ، ومعرفة براهينها ، ووجهة العدالة فيها وما يترتب على العمل بتلك الأحكام من انتظام عقد أفراد الأمة ، وإصلاح شأنها ، وتهذيب نفوس أبنائها . وتقويم أودهم فى معاشهم ، وتوثيق الارتباط بين الأفراد ، وإيقاف كل ، على ما يجب عليه بالنسبة لنفسه وعائلته وجيرانه وبلده الخ .

ولو روعى تحسين طرق التعليم ، وتعهدت أذهان الطلبة ، بالعلوم الرياضية ، والطبيعية والاجتماعية ، من جغرافية وتاريخ واقتصاد لتخرج من الأزهر مصاقع الخطباء وفرسان البلاغة وأساطين الحكماء ، يستولون على الأفئدة

بذلاقة ألسنتهم ويملكون العقول ببراعة أساليبهم ويحولون القلوب بتعبيرهم ويقتدرون بما لهم من المعارف الواسعة بالعقائد والأحكام الدينية وارتباطها بالحوادث الزمانية والانقلابات العصرية على توحيد مقاصد العالم الاسلامى وتبصيره فى معاملته مع الأمم » .

لقد تألم النديم حين رأى أساليب التعليم بالأزهر دون مكانته وجلال رسالته ينقصها النهج السوى والنظام السديد . فانتضى قلمه وعرض نواحى النقص فى النظام القائم بالأزهر فى عهده ، واقترح الحلول الضرورية ، فكانت بمثابة القبس الذى اهتدى به من جاء بعده من مصلحى الأزهر ، وأخذوا بها وارتقى نظام التعليم بالأزهر ، وأصبح جديراً بتحقيق رسالته العظيمة .

فقد نشر فى عدد الأستاذ الصادر فى ١٨٩٣/٢/١٤ بحثاً قيما يحتوى على أربعة وعشرين اقتراحاً للإصلاح مقسمة إلى قسمين ـ قسم للاصلاحات الداخلية وقسم للاصلاحات الخارجية .

الإصلاح الداخلى : وقد اقترح فيه :

١ ــ إدخال العلوم العصرية كالرياضيات والآلات (الميكانيكا والطبيعة) والهندسة والحساب والجغرافية والهيئة والحقوق والتاريخ واللغة العربية .

٢ ــ الكشف الطبى على الطلبة قبل الدخول ومراعاة الحالة الصحية لهم أثناء الدراسة .

٣ ــ ادخال علم الأخلاق ومبادىء الصحة الشخصية .

٤ ــ رعاية قواعد آداب المحاضرة أثناء تلقى الدروس ـ وكان الملاحظ أثناء إلقاء الدروس فى عهده (أن يرى أكثرهم نائماً على وجهه فى الدرس ويبقى كذلك ساعات ويستمر اليوم بعد الآخر حتى تنصب المواد فى عينه فتضعف أو يذهب نورها فضلا عن خروج هيئة قعوده عن حد الأدب) . (من أقوال النديم) .

٥ — الاهتمام بمواظبة الطلبة على تلقى دروسهم يومياً ، وعدم قبول الأعذار الواهية عن التأخير وتنظيم الامتحانات السنوية بحيث تكون نسبة الحضور وانتظام الطالب فى الدراسة أثناء العام شرطاً أساسياً لقبوله فى الامتحان (والطريقة القديمة كانت انقطاع الطالب عن الدراسة فترات طويلة - يحضر كما يحلو له ، ويتغيب إن أراد ، وفى نهاية الأمر يقدم عند الامتحان رسالة فى المبادىء التى تناول المطالعة فيها) .

٦ — العناية بالمناهج التطبيقية وتحسين قدرات الطلبة عملياً ، لأن معظم الطلبة كان إذ ذاك لايحسنون الإملاء والخط ولايقدرون على إنشاء رسالة أو تنسيق مقالة فى غرض مخصوص - وكما يقول النديم (عالم غير عامل) كمن يعرف علم العروض ولايستطيع نظم بيت لعدم محاولته ذلك -

٧ — توسيع مدارك الطلبة باتصالهم بالعالم الخارجى ، عن طريق قراءة الجرائد السيارة ، والمجلات السياسية أو العلمية الخ لأن منهم من سيكون قاضياً أو مفتياً وهذان هما أرقى وظائف السياسة القضائية آنذاك .

الإصلاح الخارجى : وقد جاء فيه :

أولا : أن تعتبر الدراسة فى الأزهر فى مستوى الدراسات العالية مدتها أربع سنوات ، تسبقها دراسة فى معاهد أزهرية إعدادية مدتها ست سنوات.

ثانياً : تخصيص العلما. لتدريس علوم معينة ، حتى يتقنها كل منهم وينبغ فى تدريسها .

ثالثا : تنظيم المناهج الدراسية وتوزيعها على سنوات الدراسة ، ويمتحن الطلبة فى نهاية كل عام دراسى .

وهكذا كان النديم أسبق الكتاب فى الدعوة لإصلاح الجامعة الإسلامية الأولى فى العالم وقد نجحت دعوته أيما نجاح ، وتحققت أمنياته فى الإصلاح

وأصبح الأزهر لامعهداً عاليا فحسب بل جامعة كبيرة تضم العديد من الكليات العلمية والدينية والفنية .

آراء النديم فى إصلاح التعليم العام بالحكومة :

١ — دعا النديم إلى تعميم التعليم الابتدائى واعتباره إلزاميا وبالمجان على أن تشمل مناهجه : تدريس اللغة العربية والدين والتربية الوطنية بصفة أساسية وتأتى مواد التعليم الأخرى بعد ذلك (من مقالته فى ١٨٨١/٧/٣٠) .

٢ — الطلبة المتفوقون فى المرحلة الابتدائية ، يتعلمون على نفقة الحكومة فى المرحلتين الثانوية والعالية .

٣ — أفسح صفحات مجلة « الأستاذ » لنشر البحوث التربوية لكبار رجال التعليم فى عهده (أمثال على باشا مبارك) والنظم الخاصة بالتعليم فى الخارج ، لتأخذ البلاد بما يتناسب ، منها .

سعيه فى سبيل اللغة العربية

لم يتوان النديم لحظة عن الذب عن لغة الضاد ، والدعوة لاستعمالها وإيثارها فى المعاملات عن غيرها ، وقد هاله أن رأى الشعب لايهتم بلغته ، والطبقة المثقفة تتفاخر باستعمال اللغات الأجنبية فى أحاديثها ، مفضلة التفاهم بها عن لغتها القومية ـ وكان ذلك من آثار موجة التقليد الجارفة التى أصابت البلاد وليس شىء أفعل فى تحطيم الروح الوطنى من احتقار لغة الوطن وعدم إجادتها علما وعملا ، وعدم تفضيلها عن أى لغة فى الاستعمال ـ والذين يسافرون إلى أى وطن عربى ، يرى تمسك الجميع بلغة البلاد الوطنية وتفضيلها عما عداها ، فيضطر الأجنبى لتعلمها حتى يستطيع المعيشة وقضاء أموره .

فكتب النديم فى مجلة التنكيت مقالا بعنوان (إضاعة اللغة تسليم للذات) وهى تعد من روائع مقالاته فى جودة السبك وقوة الإنشاء .

«أيها الناطق بالضاد — بم تستبدل لغتك وما لهامن مثيل، وإلى من تتركها وأنت لها كفيل . . . وما الذى استحسنته فى غيرها واستقبحت مقابله منها . . . وأى شىء طلبته منها ولم تجد له إسما . . .

لبيك أيها الأخ الشقيق — وإن لم تحمل فى بطن واحدة — اللغة سر الحياة والحد الفارق بين الإنسان والبهيم — بها يترجم اللسان خواطر القلب ويجلو بها بنات الافكار وبها يعشق المرء وإن كان ذميم المنظر . . . وهى التى جذبت قلب أمك واستعطفت جانب أبيك وتملكت فكر أخيك واستمالت صاحبك والفت جارك بها . . . فهى أنت إن كنت لا تدرى من أنت ، وهى وطنك إن لم تعرف ما الوطن . . . . أما كونها أنت فقد قدمت لك من عرفتهم بها ، وأنت إذا فقدتهم صرت وحيداً غريبا فى الوجود . . . لاترى من يقول لك من أنت . . . . . أما كونها وطنك فانه إنما يعمر ويسمى وطنا برجال يتعاونون على أحيائه . واظهاره فى الوجود محلا للسكن وداراً للإقامة . . . . وقد علمت أنك بمفردك لاتهتدى لشىء ولاتقوى على أى أمر كان . . . .

أسمعك تقول — إذا فقدت لغتى اعتضت عنها بأخرى .

أجل — إنك اعتضت عنها — ولكن بما أضاع منك الوطن والمعتقدات الدينية فإنك لا تخاطب بها إلا أجنبيا من البلاد ، مغايرا فى الجنسية . . . . إلى أن قال — فإنى لا أحرم عليك غير لغتك لضرورة تقضيها ،ونازلة تدفعها ومشكل تحله ، وإنما أردت تذكيرك بأن لغتك كان منطوقا بها ، من غير تعلم، محفوظة فى غير كتاب ، وبمخالطة الدخيل فسد بعضها ، وخيف عليها الضياع ، فدونت فى بطون الأوراق ، ولقيت قوتها فى اللفظ والكتابة » .

وقد دعا الأمة إلى الاكثار من الجمعيات لإنشاء المدارس الوطنية التى تجعل من أهم أسسها اتقان تعليم اللغة العربية ، والوطنية والأخلاق للنشء

وصرف ثلث وقتهم فى المدرسة لتلقيها .... إلى أن قال وإذا تمت هذه المبادىء رأيت بلادك نشأة جديدة ، وخلقا بديعا وعلمت بما تراه ، من جمع الكلمة ، وسر وحدة التعليم ، وانتظام الهيئة الاجتماعية ، إن اضاعة اللغة تسليم للذات .

وقد أعاد الحديث بهذه النغمة مرة أخرى فى صحيفة الأستاذ فدعا إلى العناية بأمر اللغة العربية باعتبارها لغة البلاد القومية ، واحترام هذه اللغة بالنسبة لمواد الدراسة الأخرى إذ أن الملاحظ آنذاك أن الاهتمام الذى توليه وزاوة المعارف للغة العربية أقل مما توليه للغات الأجنبية الأخرى - وقد هاله غمط حق مدرسى اللغة العربية وعدم معاملتهم أسوة بزملائهم مدرسى المواد الأخرى ، فنشر فى مجلة الأستاذ العدد ٢٥ بتاريخ ١٨٩٣/٢/٧ مقالا بعنوان (المساواة بين البنين) وجه فيه الحديث لوزارة المعارف ومثلها بالأب الكبير بالنسبة لجميع المدرسين ، وتفرض عليها هذه الأبوة أن تعامل الجميع بالعدل والمساواة وألا تفرق بين الأبناء حتى لا توغر صدور البعض وتبذر فى النفوس بذور الحقد والشقاق .

ثم دعا إلى مجاراة المدارس الأجنبية فى مصر فى اهتمامها ، بتدريس اللغة والدين والتربية الوطنية والتاريخ أولا ثم بعد ذلك باقى المواد . ورغم أن هذه المدارس تعلم فى غير وطنها ولكنها لا تنسى أشراب طلبتها فى سن طفولتهم معانى الوطنية والقومية بإيثارها تعليم لغتها الاصلية على لغه البلاد وتدريس دينها وتاريخ ملوكها فتثبت فى ذهن الطفل ، فى أول أطوار حياته الحب والإعزاز لوطنه ودينه وتاريخ بلاده ، فيظل متأثراً بهذه الثقافة طول مراحل حياته بعد ذلك - ثم ذكر أن هذه التربية هى التى رفعت ممالك أوروبا إلى أوج السعادة والرقى - وعجب النديم كيف أن العلماء فى الشرق يعيدون كل البعد عن الاشتغال بالسياسة وكيف أنهم قصروا أنفسهم على العلوم الدينية إلى أن قال :

فإذا عرض عليهم أمر سياسى أحجموا عن الخوض فيه لجهل طرقه، وإن تكلموا فيه بالجرأة ، كان الخطأ أكثر من الصواب لعدم اشتغالهم بمثله، ولذا أهملهم الامراء فى المجامع السياسية وأخذوا بآراء من هم دونهم فى التربية والتعليم (مقال تربية الأبناء) بمجلة الأستاذ .

مجمع اللغة العربية

دعا فى مجلة الاستاذ العدد الصادر فى ٢١/٢/١٨٩٣ إلى إنشاء مجمع للمحافظة على اللغة العربية والقضاء على الفوضى الناشئة من دخول ألفاظ ومصطلحات أجنبية بها .

وبذلك كان النديم أسبق المفكرين إلى تنظيم وحفظ اللغة سليمة لفظا ومعنى ، والدعوى لإنشائه ، وإن إنشاء المجمع الحالى سنة ١٩٣٤ بنظامه وأهدافه الحالية بعد تحقيقاً لدعوته التى دعا إليها قبل ذلك التاريخ بأربعين سنة مما يؤيد الرأى بأن النديم التمس لبلاده ووطنه كل أسباب الرقى الثقافى والقومى واهتم بكل ما يمس هذه الامور من صيانة اللغة وحفظها وتعريب الالفاظ الاجنبية المختلطة بها مما يعد من أقدس الاعمال الوطنية لأن اللغة تمثل الوطن .

كانت اللغات الأجنبية حديثة الوفود إلى البلاد منذ عهد محمد على ، وقدوم البعثات الأجنبية ، وإقامتها بمصر ومهاجرة الكثيرين من الاجانب اليها ، مما أدى إلى تأثيرهم بلغات تخاطبهم فى اللغة العربية ودخول كثير من الالفاظ الأجنبية فيها ثم انتشار المخترعات الحديثة بالبلاد ، بأسمائها التى وضعت لها بلغاتها الأصلية ثم تباهى المتعلمين من المصريين بالتحدث باللغات، الأجنبية أو باستعمال بعض المصطلحات والألفاظ الأجنبية فى اللغة العربية كل هذا أدى إلى ابتلاء اللغة العربية بكثير من الألفاظ والعبارات الدخيلة واختلاط الأمر على الكثير من الناشئة :

١ — أولا لأن أسماء المخترعات الحديثة تستعمل ، وتكتب كما هى بلغاتها الأصلية ، وترسم بالحروف العربية ، وتختلف وتتعدد طرائق كتابتها ونطقها وهذه تحتاج إلى تغيير جوهرى بمعرفة حقيقة الأسم الاجنبى ، ومعرفة مدلوله ومايتصل به من معنى ، ثم اشتقاق كلمة عربية تؤدى المعنى المقصود ، وهذا أمر يحتاج إلى خبرة جماعة من العلماء الواثقين .

٢ — كثير من الكلمات العربية قد تغير تركيبها وتغير معناها وأصابها خلل فى تكوينها الأصلى والنطق بها ، مما أبعدها كثيراً عن الأصل العربى الصحيح . . . . الخ .

لذلك كان من الضرورى العمل على أحياء اللغة العربية الصحيحة ، وإعادة استعمال التراكيب العربية السليمة ، واصلاح لغه المكاتبات الحكومية التى كانت آنذاك فى أشد انحطاطها ، ويرى النديم أن يحيط المجمع دواوين الحكومة علما ، بنماذج صحيحة من الخطابات الحكومية ، مدونة بلغة سليمة ، منتقاة الألفاظ ، واضحة التعبير ، خالية من السقم وكان من اقتراحات النديم تقسيم المجمع - فيكون عاما فيما يتعلق بالفنون العربية ثم يقسم الأعضاء حسب قواهم العلمية فيكون :

١ — قسم منهم خاص بالمواد اللغوية .
٢ — قسم يختص بالآليات كالنحو والصرف والبيان والبديع والمنطق .
٣ — قسم يختص بالتاريخ وتقويم البلدان .
٤ — قسم يختص بالترجمة .
٥ — قسم يختص بالرياضيات .

وتظهر فائدة هذا التقسيم عندما تقرر الحكومة اعتماده ، وتحيل إليه النظر فى المؤلفات الجديدة التى من هذا القبيل ، ليقرر منها الموافق لنشره ويمنع مايضر الاخلاق والدين والسياسة وربما اتسع نطاقه فأحيل عليه : امتحان الناس فى فنون مختلفة ، لاعطائهم الشهادات العلمية .

الباب الثالث

أثر النديم فى الصحافة

(١) أشهر الصحف فى عهد النديم .

(٢) أساليب النديم فى الكتابة .

(٣) النديم الصحفى .

(٤) المدارس الصحفية فى عهده .

(٥) صحف النديم .

(٦) نماذج من كتابته فى جريدة التنكيت والتبكيت .

(٧) نماذج من كتابته فى جريدة الطائف .

(٨) مقالات النديم عن الخديو إسماعيل .

(٩) نماذج من كتابته بمجلة الأستاذ .

(٢) أثر النديم فى الصحافة

أشهر الصحف فى عهد النديم :

١ — لم تظهر فى مصر على عهد عباس وسعيد من الصحف المصرية سوى «الوقائع المصرية» التى أنشأها محمد على وكانت الحكومة تتولى إصدارها، ولم تظهر غيرها من الصحف العربية ثم نشطت الحياة العلمية فى عهد إسماعيل فكان من مظاهرها تأسيس الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية وقد نهض بالصحافة فى ذلك العصر طائفة من العلماء والأدباء المصريين وطائفة من الأدباء السوريين ، واستمرت الوقائع المصرية تصدر فى عهد اسماعيل بانتظام وارتقى أسلوبها الإنشائى ، وكانت تأتى بأخبار الحكومة ، والأخبار الخاصة الخارجية وتنشر مضابط مجلس شورى النواب ، وتسهب فى وصف الحفلات العامة والحفلات العلمية ثم حفلات سباق الخيل ، وتعد الوقائع سجلا يصور لنا ناحية من حياة مصر السياسية والاجتماعية فى عصر إسماعيل .

الصحف العلمية والأدبية والحزبية

٢ — «اليعسوب» ظهرت سنة ١٨٦٥ وهى مجلة شهرية أنشأها الدكتور محمد على باشا البقلى وإبراهيم الدسوقى .

٣ — مجلة «روض المدارس» ظهرت سنة ١٨٧٠ وأنشأها على باشا مبارك وزير المعارف وكانت أغراضها إحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة ، ترأسها العلامة رفاعه بك رافع الطهطاوى وتولى تحريرها على بك فهمى رفاعه مدرس الإنشاء بمدرسة الألسن وصفوة من أعلام الأدب أنداك وكانت توزع مجاناً على طلبة المدارس ونجحت فى نشر العلم وتعويد الطلبة على البحث .

٤ و ٥ ـ « جريدة أركان حرب الجيش المصرى والجريدة العسكرية المصرية » ظهرا فى ١٠ / ٧ / ١٨٧٣ .

٦ ـ « الوطن » ظهرت سنه ١٨٧٧ أنشأها ميخائيل عبد السيد وهى مجلة سياسية وطنية .

٧ ـ جريدة مصر ظهرت سنة ١٨٧٧ .

٨ ـ التجارة بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ وهما من الجرائد السياسية وكتب فيها النديم فى أول أمره .

٩ ـ جريدة الاهرام ـ ظهرت سنة ١٨٧٥ أنشأها سليم وبشاره تقلا واستمرت حتى الآن .

١٠ ـ « مرآة الشرق » ظهرت سنة ١٨٧٩ وأنشأها سليم بك عنحورى وتولى تحريرها ابراهيم بك اللقانى بإيعاز من السيد جمال الدين الأفغانى .

١١ و١٢ « مرآة الأحوال » ظهرت بلندن سنة ١٨٧٦ و « أبو نضارة » ظهرت بمصر سنة ١٨٧٧ أنشأها يعقوب صنوع كاتب مصرى إسرائيلى ، وهى جريدة سياسية تكتب بأسلوب فكاهى ، وهى أول جريدة سياسية هزلية ، تصدر بمصر وقد انتقدت إسماعيل فنفا صاحبها من مصر ، فرحل إلى باريس ، واستأنف إصدار جريدته ، بأسماء أخرى مستمراً فى التعريض الشديد به .

اساليب النديم فى الكتابه

١ ـ أسلوبه الأدبى : مارس النديم الكتابة قبل ممارسة الصحافة ، فكان يميل فى أول أمره إلى البديع ، ويتهافت تهافتاً قوياً على السجع ، مظهرا تفوقاً بالغاً فيه ، وقد بدأ النديم يكتب بهذه الطريقة منذ السادسة عشر من عمره وقد حظى الكتاب الذين أرخوا لحياته بطائفة من الرسائل

الأدبية المنمقة ، التى كتبها فى صباه . قاربت العشرين رسالة ، ومن هذه الرسائل ، التنور المسحور فى المغامرة بين السفينة والوابور ـ وطالع الكرامة بحسن السلامة ـ درر النخلة وغرر الرحلة ـ حفظ الودائع لدرر البدائع ـ تنبيه اللبيب وتسلية الحبيب ـ الساق على الساق فى مكابدة العشاق ـ رياض الرسائل وضامن الوسائل ـ ويدل عنوان هذه الرسائل على شدة كلفه بالسجع .

وكانت هذه الرسائل تدريباً عملياً للفتى الناشىء فى فجر حياته الأدبية ، وترويضاً لقلمه على التنسيق فى التحرير وقد كان فى هذه الفترة متأثراً طريقة الكتابة فى ذلك العصر مقلداً أعلامه ـ كذلك كان متأثراً بأسلوب المقامات ومحاكاتها التى كانت ألمع شىء فى الأدب المصرى فى القرن الثامن عشر وقد وحاكاها كل أديب فى العصر الذى تلاه .

ومن رسائله التى افتن فى تسطيرها وأبدع فى تطريزها ووشاها بالسجع والبديع رسالة أدبية نشرها فى الأستاذ بتاريخ ٢٢ / ١١ / ١٨٩٢ وهى من قطعه الأدبية الرائعة ، التى كتبها أثناء وجوده مختفياً ، وقد ضاقت به الحال وشعر بالعوز فكتب لأحد الأغنياء يطلب فيها مد يد المعاونة له .

« كتابى أعزك الله ، والعنبر الأشهب طرسه ، والمسك العربى نفسه ، والنضار الخالص قلبه ، واللؤلؤ الرطب كلمه ، ومنثور النجوم منظوم حرفه وهالة البدر وقاية ظرفه . والبيان براعة استهلاله ، والمعانى تحوطه وفى خلاله ، والبديع سائح فى أقاليمه ، والأدب بعض تعاليمه ـ ثغره بسام بجميل السلام ، فما جمله بهذه الصفات ، إلا التحيات المباركات ، بعثته سفير وداد لا فارس جلاد ، فإذا صافح منك اليمين ، وحلف على إخلاصه اليمين .

دعه يبدى تحته من شوق ... حافظ العهد ليس يعرف نكثا
لا يبالى إذا حفظت ولاه ... سالم الدهر أو تزايد خبثا

غير دان من النفاق بطبع   أخذ الجد فى التعامل إرثا
يحفظ السر والإخاء وحاشا   أن يدانى لدى التحالف حنثا

فما خرج هذا الكتاب من كنزه المطلسم ، وفر من الثغر حين تبسم ، إلا وهو يعلم كيف يسير ، وإلى أين يصير ، وطالما طالبتنى الطبيعة ، لشكر الصنيعة ، وأنا أحيل على ائتلاف الروحين ، وتجاذب القلبين ، حتى شاب رأس التسويف ، من ترادف أفعال التفويف ، ورأيته جعل المجرة لثامه ، وكور البدر عمامة ، فعلمت أن لسان الشوق ، بقول شب عمرو عن الطوق فكتبت والقلب بين داعية الحب ، وجاذبية المعروف ، والعلم جائل من سحاب الفكر وروض الحروف ، مخاطباً من لا أسمية على لسانه القلم ، لكونه المفرد والعلم ، أخى نسباً ونعم الأخاء ، وصديقى فى الشدة والرخاء جوهره عقد الإشراف النفيس ، وعنوان تاريخ بنى مصباح وأدريس .

وبعد فهذا شرح حالة غائب   عليه من اللطف الخفى ستور
تدور به الأهوال حول مدارها   فيصبر والقلب الرضى صبور
عسى فرج يأتى به الله أنه   على فرجى دون الأنام قدير

ولا أقول نحن وأنتم ، ولا كنا وكنتم ، فما هذه العوارض إلا رسوم وما منا إلا له مقام معلوم ، وما اختار الله تعالى للمصائب ، إلا الرجال ، ولا يثبت لانهمار الغيوث إلا الجبال ، والشدة إن صوتت بجلجلها ، وحلت بكلكلها ، ماذا عسى أن يكون مما تتخيله الظنون ، أليس الأمر يرجع إلى موت أو حياة ، وهذا لا يملكها إلا الله . وقد فرغ من تقدير الأشياء قبل خلق المسببات والأسباب ، ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب ـ ولست متأثراً من بعد الإخوان عنى ، لخوفهم من الدنو منى ، فإن هذه عادة الناس فى كل جيل ، لا يحفظ الإخاء فى الشدة ، إلا القليل ، وقد

وجدت من رجال الهمم من يحفظون العهود والذمم ، ويقابلون الشدائد بالعزائم ولا ترجف قلوبهم بالعظائم فإنها ممتلئة بالإيمان ، سليمة من الخفقان ثابتة ثبات رضوى ، حافظة للسر والنجوى ورأيت منهم كرما يخجل الكرماء ويقتل البخلاء ويبهر الشعراء ، ويذهل النظراء ومروءة بينها وبين غيرهم سد ذى القرنين ، وبعد ما بين المشرقين نزلت بهم وأنا مطلوب متعفف ، خائف أترقب ، فأحلونى محل الأهل والأحباب ، وأسكنونى فيما تغلق دونه الأبواب ، وصبروا عند توالى الأكدار ، وثبتوا والعيون حول الدار

هم الأهل إلا أنهم أخلفوا الذى	ولدت من الأصلين معه من الأهل
فلا غائب إلا عدو مروءة	ولا حاضر إلا صفا مورد نهل
خلائقهم عز وحسن طباعهم	تألف فيها ما يحب من السهل
فكلهم فى طلعة الدهر غرة	تضىء من الشبان للشيخ والكهل
وكل الذى تلقاه يأبى مروءة	من الناس فى كل البقاع أبو جهل

إلى أن قال :

فلسان الشكر لا يجد من الكلام ما يؤدى به واجب هذا المقام ، فقد عظم الطول فاعجز عن القول ، وإن سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية . بستانى قاعتى ، وفكرى فى ساعتى — لا أحيله فيما يأتى به الليل ، إذ كنت فى النهار ، ولا أشغل ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة . ووقع الشدة فاعتقادى أن الذوات مسيره ، والعمر سائح فى الأمكنة ، والأزمنة ، المقدرة . ولكل شدة مدة ، متى انتهت جفت الأوحال ، وحسنت الحال ـ فترانى فكرى كليمى ، وقلبى نديمى ، استودعه ما فى الصدور ، فيحفظه فى السطور ـ ثم يرد على كتاباً ، لم يجمع إلا صواباً فأعود إليه بالنظر لترويح الفكر ، فتارة اشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول

وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم به لله المنة — وحينا اشتغل بنظم فرائد فى صورة قصائد ، ووقت أكتب رسائل مؤتلفة فى فنون مختلفة .

فانظر إلى آثار رحمة اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنة ، أتراني كنت أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين ، وفى حجرها ثالث ، وعلى كتفها رابع وأتعب من مربى عشرة وليس له تابع .

المدارس الصحفية فى عهده

المدرسة الصحفية الأولى :

مقدمة :

ظهر النديم الصحفى وهو متأثر بآثار المدرسة الصحفية الأولى التى كان من أعلامها رفاعة رافع الطهطاوى وفارس الشدياق ولا بد لنا أن نعرف شيئاً عن مميزات هذه المدرسة لأنها الخطوة الأولى فى تأسيس فن الصحافة فى مصر .

امتازت المدرسة الصحفية الأولى بما يأتى :

١ — نشر الثقافة — ترجمة المقالات العلميةوالادبية والثقافية المختلفة .

٢ — التمكين للصحافة وإرساء قواعدها وتشييد أسسها .

٣ — إنشاء الصحف وإقناع الناس بفوائدها والإقبال عليها .

٤ — محاولة إنشاء المقال الصحفى بالطريقة التى أملاها أسلوب العصر الادبى فى ذلك الحين الذى كان من وحى ماضيهم وحاضرهم فى آن واحد .

ولقد تقيدت هذه المدرسة بقيود الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التى اكتنفت رجال هذه المدرسة ، فقد كانت الصحافة فى أول أمرها من

وحتى الولاة والحكام تولد فى حجورهم وتتغذى بمالهم وهباتهم ، وتعبر عن أفكارهم وبقيت الصحافة المصرية رسمية على هذا النحو ، حتى ظهرت إلى جانبها صحافة أخرى هى الصحافة الشعبية ، وحتى هذه الاخيرة كانت صورة دقيقة من الصحافة الرسمية ، ومن الظروف الاجتماعية والفكرية والجهل الذى خيم على مصر طول الحكم العثمانى ، وجعل فى سماء الفكر فيها سحباً ملبدة تحجب النور عن أهل مصر - حتى أتت الحملة الفرنسية ، وأتى محمد على فبدأت تنهض البلاد تدريجياً من سباتها العميق ثم تتدرج فى السير فى ركب الحضارة الحديثة والعلوم الحديثة ، وهذا ما حدا بالصحافة الاولى أن تكون فى أول أمرها مدرسة تعليمية للشعب المتعطش للمعرفة - فكانت أكثر صحف المدرسة الصحفية الاولى ، مليئة بالفصول العلمية والأدبية مترجمة عن الكتب الأجنبية حيناً ومأخوذة من الكتب العربية القديمة حيناً - فكانت صفتها علمية أكثر منها سياسية واجتماعية ذلك من حيث الموضوع ومن حيث الأساليب . كان رجال تلك المدرسة مقيدين كذلك بقيود الماضى القريب حين كان النثر العربى ، يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع ، التى فتن بها أدباء العربية ، منذ القرن الرابع الهجرى ، غير أن البديع أو الزينة اللفظية لا يحسنان إلا مع ثقافة واسعة ، وذوق فى اللغة رفيع ، وحسن فى الادب رقيق ، ذلك ما حرمت مصر منه فى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، ومن ثم ورثت المدرسة الصحفية الاولى لونا باهتاً من ألوان النثر العربى . . . ثم جاء الوقت الذى سئموا فيه السجع ، وزهدوا فى البديع ، وكان ذلك إيذاناً بمجىء المدرسة الصحفية الثانية ، هذه المدرسة التى نعمت بقسط من الحرية فى الموضوع والاسلوب .

المدرسة الصحفية الثانية :

أقطاب هذه المدرسة : أديب إسحق و عبد الله النديم و محمد عبده .

امتازت هذه المدرسة بأنها الخطوة الثانية لتقدم الصحافة الشعبية وتقدم المقال الصحفى .

امتيازات هذه المدرسة من ناحية الموضوع .

١ — غلبها الأسلوب الخطابى وأكثر ما كان ذلك فى كتابات النديم .

٢ — أخذت بعض المقالات شكل الدرس والمحاضرة .

٣ — امتزجت هذه المقالات بلون الجد والصرامة والحزن لما عاصرته من عهد حافل بالأحداث الوطنية العصبية وترك المصريين اللهو والضحك ، للاهتمام بمصيرهم .

٤ — شيوع السخرية المشوبة بالحزن فى مقالات هذه المدرسة مما استدعته موضوعات النقد الاجتماعى ونقد أعمال إسماعيل ، ثم شيوع الانفعالات فيها أكثر من شيوعها فى المدرسة الأولى .

امتيازاتها من ناحية الأسلوب :

١ — تخلصت المدرسة الصحفية الثانية نهائياً من السجع والجناس وغيرها من الألوان البديعية التى افتتن بها تلاميذ المدرسة الأولى ، وكانوا فى فتنتهم يتأثرون بالميراث الأدبى الذى ورثه العصر العثمانى ، عن العصور الأدبية ، التى سبقته . ثم لم يكن أمام المدرسة الصحفية الأولى مقال يحتذى فى الكتابة ، غير الطريقة الفاضلية (طريقة الولع بالبديع فى الكتابة) فحاكاه بعض تلاميذها وفرضوه على أنفسهم وتقيدوا به حتى فى ترجمة الكتب من المؤلفات الأوربية ، إلى اللغة العربية .

فلما كانت المدرسة الصحفية الثانية وجدنا كل واحد من تلاميذها يفتن

فى مستهل حياته الأدبية ، بالسجع فتنه لا حد لها ، ثم لا يلبث أن يفارقه هذا السجع إلى غير رجعة ، على أثر اشتغاله اشتغالا عمليا بالصحف ـ فهكذا كان أديب إسحق ولو أنه لم يبرأ من السجع فى حياته الصحفية كلها ، وهكذا كان محمد عبده التى ظهرت مقالاته فى الإهرام مسجوعة ، وهكذا كان النديم الذى رأيناه فى أول أمره أكثر من صاحبيه مراعاة للبديع ثم عدا أكثر تحرراً منه فى نهايته .

٢ — استعاضت هذه المدرسة عن السجع بالازدواج أو التقطيع الصوتى وجزالة اللفظ وحسن اختياره ووضعه فى موضعه اللائق وحسن انتقاء الألفاظ .

٣ — تأثرت المقالة الصحفية بأسلوب القرآن الكريم لجميع الكتاب بدون استثناء يؤثرون ألفاظ القرآن وتراكيبه ثم الاقتباس منه فى بعض الأحيان

٤ — تأثر الأسلوب الصحفى بأسلوب المقامة ، ثم ظهور الفرق الكبير بين لغة المقامة الصحفية وبين لغة الأدب الخالص لأن النديم كان يعنى بعبارته وتحديدها وكلما فرغ واحد منهم تأنق فى عبارته وأمعن فى زينته .

ولقد أفاد الأدب من الصحافة فى هذا العهد بما يأتى :—

١ — سعة الموضوع .

٢ — غزارة الأفكار .

٣ — تنويع المادة .

٤ — حرية التعبير .

٥ — انبساط الأساليب .

ولقد عيب على هذه المدرسة طول المقال الصحفى حتى ليعد بحثاً أو محاضرة أو خطبة أو موضوع إنشاء ـ وتميز كل واحد من زعماء هذه المدرسة بميزة تختص به ، فأديب إسحق امتاز بتغلب صفة الاديب على كتابته .

والنديم امتاز بتغلب صفة الخطيب على كتابته .

ومحمد عبده امتاز بتغلب صفة المعلم على كتابته .

ولم يصدر النديم فى كثير من مقالاته عن ثقافة منوعه ، أو دراسة عميقة اللهم إلا فى المواطن الآتية : ـ

١ ـ موطن الدين وما يتصل به من البحث فى الطرق والتصوف .

٢ ـ التربية والتعليم وقد كان فى هذه الأخيرة يستوحى تجاربه الخاصة ويفسح المجال لعلى باشا مبارك ليحدثنا القراء عن هذه الأمور حديثاً علمياً فى صحيفة الأستاذ .

٣ ـ عرض المشاكل الاجتماعية والآفات التى تراكمت منذ أجيال فى كيان المجتمع المصرى ـ تكلمنا عن مميزات المدرسة الصحفية الثانية وقد شمل هذا الكلام على أغلب مميزات النديم الصحفى إن لم يكن كلها بوصفه أحد أقطاب هذه المدرسة .

ولنتكلم بإيجاز عن أسلوب النديم بوجه عام : ـ

النديم الأديب (١) مفتون بالسجع والبديع بدرجة تفوق القدماء وكتب رسائل إخوانية افتن فى كتابتها حتى شابه كتاب النثر فى القرن الرابع الهجرى .

٢ ـ تأثر فى المرحلة الأولى من حياته الأدبية بأسلوب المقامة العربية فمنها تعلم اللغة العربية وتروض على استعمال مفرداتها وتراكيبها وأساليبها .

النديم الصحفى

هو رجل الصحافة فى عصره ، لذلك تأثرت كتابته الصحفية بالاسلوب الخطابى ولا سيما بأسلوب الخطابة المرسلة فكان النديم يرسل كلامه ارسالا كأنه الحديث العادى .

١ - ثم تؤثر الخطابة على أساوبه الصحفي فتضفي عليه بعضاً من خصائصها فتظهر على مقالاته السمات الآتية : -

(ا) كثرة النداء فى الكلام .

(ب) تكرار عبارة بعينها بقصد التثبيت فى ذهن السامع أو القارىء ليفهم القارىء إنها من الحديث أو ذلك بيت القصيد ، وذلك من تكرار عبارة (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) فى أثناء المقالة وهى العبارة التى اتخذها عنواناً لهذا المقال . أو يكرر عبارة العنوان فيجعلها نهاية لكل فقرة من فقراته .

(ج) القسم فى التعبير كان من سمات الخطابة أو الحديث العادى فى أسلوب النديم كما فى قوله (والعهد وذمته والشرف وحرمته إن قلبى فى خدمته ، لمن الصادقين) .

٢ - شغفه بالاستطراد على طريقة الجاحظ ، وقد كان الاستطراد عند الجاحظ وسيلة من وسائل التشويق وإبعاد السأم عن القارىء - وهو كذلك عند النديم ومن ثم كان النديم خفيف الظل كاتباً وخفيف الظل خطيباً أو محاضراً وبقى الناس مفتونين به وبأساوبه حتى مات .

٣ - ميله إلى المقابلة والطباق لا بين الألفاظ بل بين المعانى ذاتها ، وأكثر ما يكون ذلك عند ما يكتب النديم عن الشرق وأحواله ويوازن بينه وبين الغرب وتقدمه . . . الخ .

٤ - إيثاره الإسهاب والإطناب على طريقة الجاحظ أيضاً وكان النديم ذا نفس طويل فى الخطابة والكتابة وكان يؤدى المعنى الواحد بعبارات كثيرة فى الفقرة الواحدة وفقرات كثيرة فى الموضوع الواحد ، وما نظن كاتباً استطاع مجاراة النديم فى ذلك فى القرن الماضى .

٥ - كانت ألفاظ النديم منتقاه ومادته اللغوية غزيرة ولا غرابة فقد

كان النديم يغرف من بحر وغيره من الكتاب يمتحون من بئر ـ وقد كانت كتاباته أشبه بماء الينبوع برداً وصفاء وحلاوة مذاق .

أسلوب الأدب الشعبي :

كان للنديم أسلوب آخر هام وهو أسلوب الأديب الشعبي الذى يكتب باللغة العربية العامية فهو يكتب القصص والمحاورات والأحاديث عن مظاهر الحياة فى المجتمع المصرى . فكان يكتب بلغتين اللغة الفصحى للخاصة والعامية لذوى الثقافة المحدودة وللمحرومين من العلم ، حتى يستطيع المتعلم قراءته للأمى فيستفيد به ، ولقد نجح هذا اللون المزدوج إلى أبعد حدود النجاح وأخذت عنه بعض الصحف والمجلات فيما بعد رغم أن هذا اللون من الكتابة (أعنى الكتابة باللغة العامية) يلقى اعتراضاً من أغلب الأدباء وكذلك من الصحافة فى أيامنا . وللرد على هذا ينبغى لنا أن نعرف رسالة الأدب والأدب كما نعلم هو صورة لحياة المجتمع ، وهو ظاهرة اجتماعية تخضع لما عليه المجتمع من أحوال سياسية وثقافية واجتماعية ، فلا بد أن يعبر الادب إذاً عن آمال المجتمع وحاجاته فى شتى النواحى ، ولاجل أن يكون فى تعبيره أداة صالحة لخدمة المجتمع يجب أن يكون فى الاسلوب الذى تستطيع الطبقة العامة غير المثقفة فهمه وإدراكه ، لذلك فإن النديم وطأ أكتاف الادب للجماهير .

ولقد عرف النديم القصة وأولع بها وأكثر منها إذ آمن على تأثيرها فى نفوس جماهير القراء ، وأقدر على عرض الفكرة وما تحسب أننا قرأنا لصحفى مشهور قبل النديم هذا العدد الكبير من القصص الطريف . الجيد الحبك . السهل الاداء . الذى كان يملأ به صفحات مجلتيه (التنكيت والتبكيت . والاستاذ) لذلك فهو معدود من الرواد الاول فى فن القصة . سواءاً باللغة الفصحى أو باللغة العامية .

ولقد كان النديم أول كاتب عربى استخدم الحوار فى قصصه . استخدمه

بكثرة تستلفت النظر وتدعو إلى التعجب ، ولقد عالج النديم فى محاوراته المشكلات الاجتماعية الجارية فى الحياة الواقعية .

الصحف التى أصدرها

اشترك النديم أول ما اشترك فى تحرير صحيفتى أديب اسحق وسليم نقاش (المحروسة) و « العهد الجديد » بالإسكندرية اللتين صرح بهما عقب إلغاء جريدتى (مصر) و (التجارة) . وكان هذا أول عهده بالأعمال الصحفية ثم عزم على أن تكون له صحيفة خاصة بعد ذلك فكان له من تلك الصحف ثلاث :

١ — صحيفة التنكيت والتبكيت .

٢ — صحيفة الطائف .

٣ — صحيفة الأستاذ .

صحيفة التنكيت والتبكيت :

أصدر هذه الصحيفة الأدبية الرائعة فى ٦ يونيو سنة ١٨٨١ فى حجم كتاب عادى وطنية أسبوعية أدبية هزلية وهى مجلة كما يقول « هجوها تنكيت ومدحها تبكيت ولغتها لا تلجئك إلى قاموس الفيروزابادى ولا تلزمك مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا وسخريتها نفثات صدور وزفرات تصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا » وهى فى مجموعها مقالات اجتماعية عن الحياة فى مصر وقال أيضاً عنها « أنه لا يريد منها أن تكون ممتنعة بمجازات واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ولكن أحاديث تعودناها ولغة ألفناها المسامرة بها .. إنما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم وفى بيتك

كخادم يطلب منك ما تقدر عليه و « نديم » يسامرك بما تحب وتهوى
ونلاحظ فى هذه الصحيفة ما يأتى :

١ — كانت المقالات التى تهم الخاصة تكتب بلغة فصحى والمقالات التى تهم العامة تكتب باللغة العامية .

٢ — كان معنياً فيها بالإصلاح الخلقى والاجتماعى وقد فطن أن التعليم والنقد عن طريق القصص أجدى للنفس ،وافعل فى النقد فأكثر منه ونجح فى صحيفته ووصل نداؤها إلى أكبر عدد ممكن .

٣ — دعا إلى إصلاح الخطابة المنبرية لأن انحطاطها من أسباب غفلة الشرق ثم قدم بحوثا قيمة فى الخطابة وأصولها وقيمتها وأنواعها وتاريخها وانتهى من ذلك إلى قوله : وأود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون بمبلغ يقوم بنشر خطب أدبيةوسياسية وأنا أقوم بإنشاء خطبة فى كل أسبوع تناسب أحوال الزمان ثم تطبع هذه الخطبة وتنشر فى سائر أنحاء القطر لتتنبه الأفكار وتعرف الأمة قدرها وما تحفظ به نظامها بين الأمم ولا يتم هذا الأمر إلا إذا اجتمع هؤلاء الأعيان وعرضوا لديوان الأوقاف ليتمكنوا من العمل بالخطبة(١) .

وترى النديم بالفعل قد أخذ يكتب نماذج للخطب المنبرية العصرية فى جريدته هذه لكى يحتذيها الناس وينسجوا على منوالها .

٤ — إن وجه تسمية « التنكيت والتبكيت » هو أن النديم كان يقسم المقالة فى صحيفته إلى قسمين ـ قسم يتهكم فيه من عادة من عادات المصريين ـ ثم يأتى القسم الآخر بقصة فيها نقد لاذع وتوبيخ للمستمسكين بهذه العادة ـ ويأتى التوبيخ على هيئة تعقيب من الجريدة على هذه الحكاية التى أوردها والقسم الأول من هذين القسمين هو « التنكيت » يرمز له بالنون ـ والقسم الثانى هو « التبكيت » بالياء .

(١) سلافة النديم الجزء الأول ص ١٢٧ — ١٢٨ .

٥ — كانت الموضوعات التى طرقها النديم أكثرها يتصل بالمجتمع وأقلها يتصل بالسياسة وقد كان النديم من أوائل من أدركوا فى مصر أن الأسلوب الصحفى فى اللغة غير الأسلوب الأدبى ولذلك ترك السجع وعدل عن الزخرف ولم يأنف من استعمال بعض الاصطلاحات الدارجة والألفاظ العامية المألوفة لإيضاح غرضه للقراء .

ثم نشبت الثورة العرابية واتصل بها النديم وطلب إليه أن يخدم الثورة بصحيفته وسعى رجال الثورة أنفسهم حتى نقلوا النديم وصحيفته إلى ميدان القتال وأطلق هو على صحيفته الجديدة اسم الطائف .

صحيفة الطائف

فى هذه الجريدة كان النديم معنياً بالثورة العرابية لذلك كانت مقالاته السياسية فيها طابع ثورى واضح وقد بذلت جميع الصحف المعاصرة وهى (الاهرام ـ المفيد ـ الفسطاط ـ السفير ـ الجناح) فى المكانة والخطورة .

بدأت الصحيفة أولا تحمل على المساوىء الاجتماعية العامة ثم انتقلت إلى الموضوعات السياسية العميقة والأخبار الهامة التى تميزت بها فى عهد الثورة حتى أن معظم الجرائد المعاصرة نقلت عنها أكثر ما نشر . وكان من أهم وظائف الطائف الدفاع عن الثورة ورجالها وقد احتفى بها رجال الثورة وأنصارها فاشترك لها النواب بمبالغ كبيرة وأصبحت لهم لساناً فيه من العنف والشدة ما اضطر الشيخ محمد عبده رقيب المطبوعات العربية والتركية إلى تعطيلها شهراً وقد اتخذ عطف الهيئات النيابية عليها لوناً رسمياً نذكر تفاصيله لأنه نادرة فى صحافة الشرق والغرب على السواء .

فكتب محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ ﻫ إلى « داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضرتارى يقول » : حيث أن حضرة محرر الطائف أظهر إرتياحه إلى نشر محاضر المجلس

وأفكار نوابه وما يتبع ذلك ، مما يستدعى القيام بالحقوق الوطنية للمجلس رئى أنه لا مانع من مكاتبة الداخلية لتصدر أمرها إلى إدارة المطبوعات بمعرفة هذه الصحيفة ممتازة بهذا الاختصاص ونسبتها إلى المجلس على الوجه الذى قدمه حضرة محررها المومأ إليه .

وقد ذكرت جريده مصر فى ١٨٨٢/٣/٢٣ تعليقاً على ذلك : —

إن مجلس النواب وقد اختار جريدة الطائف الغراء لنشر ما يروم إبداءه من الآراء والخواطر والتقارير والمحاضر فهى الآن صحيفته الشبيهة بالرسمية ثم تقول « وجريدة الطائف جديرة بهذا الاختيار فهى موصوفة بالوطنية معروفة بصدق النية منتشرة نافذة الكلام خطيرة مرعية المقام » .

ظهرت خطورة الطائف فى هذه الرسمية التى حبتها إياها الحكومة دون صحف الثورة الأخرى ، فقد استطاع محررها أن يكون على بينة من شئون الدولة وأن يجد فى عطفها المادى والأدبى ما يعينها على تخطى المصاعب التى تعترض الصحف عادة وتحول دون تقدمها وهذه ميزات بجانب قدرة محررها تجعل لها مكانة خاصة بين الصحف المصرية خلال الثورة العرابية .

ولم تقتصر الطائف على « نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه » بل صورت الأعداد القليلة التى عثرنا عليها مدى العنف فى تحريرها وأظهر ما فيها حياة الخديو اسماعيل ووصف مظالمه والأساليب التى اتبعها فى سلب الأملاك من الفلاحين والملاك وسنأتى بفصول منها فى مكان آخر .

والحق الذى لا مرية فيه أن النديم كان أول كاتب صحفى جرىء انتقد أشد الحكام إساءة لمصر من أبناء محمد على وهما اسماعيل وتوفيق ووصف جنايتهما على البلاد مما أدى بها إلى الإفلاس المالى والارتباك الاقتصادى الذى أدى بدوره إلى الاحتلال البريطانى فى عهد توفيق والفصل الخاص بمساوىء توفيق يعد متمما للفصل الخاص بمساوىء اسماعيل .

ولما انتقلت جريدة الطائف من الحملة على اسماعيل إلى الحملة على الخديو توفيق فى لهجة شديدة صريحة أمرت الحكومة بتعطيلها نهائياً فى ١٧/٥/١٨٨٢ ترضية للخديو توفيق واعتذاراً له عما كتبته صحيفة الحكومة من التعريض به والإساءة إلى الحاكم الشرعى .

تحرجت الأمور فى مصر قبيل الاحتلال البريطانى بثلاثة أشهر تقريباً فتدخلت الدولتان الإنجليزية والفرنسية بمذكرة تطلبان فيها استقالة الوزارة البارودية وإبعاد عرابى وبعض خاصته من مصر، وإعادة السلطان المطلق إلى الخديو توفيق وقد ترتب على هذه المذكرة استقالة الوزارة وتأليف الوزارة الراغبيه ودخل فيها عرابى باشا وزيراً للحربية ثم تطورت الحوادث سراعا وحدثت مذبحة الإسكندرية وانتقل الخديو إلى الثغر فى ١٩/٦/١٨٨٢ واعتصم بها حتى قضى الأمر باحتلال مصر وتسليم العرابيين .

ومنذ ضربت الإسكندرية وانحاز الخديو إلى الإنجليز حين احتلوها أصبحت فى مصر صحافتان — صحافة فى القاهرة تمثلها الوقائع المصرية والطائف وقد عادت إلى الحياة (والنجاح وما إليها من صحف الثورة الأخرى) وصحافة فى الإسكندرية يقود زمامها الشيخ حمزة فتح الله فى جريدة « الاعتدال » يحمل فيها على عرابى ورجاله ويعاون فيها أديب اسحق بالمقالات والمنشورات (مصر للمصريين جزء ص ١٧٦ — ١٩٣) .

وبقيت صحف الثورة فى القاهرة خلال الحرب العرابية فيما خلا «الطائف» فهذه قد انتقلت إلى الميدان الحربى حيث تحرر عن كثب فى معسكر « كنج عثمان » وكانت معظم مقالاتها لاستثارة الهمم والطعن على الخديو والإنجليز وعن « الطائف » نقلت صحف القاهرة أخبار الحرب وتفصيلاتها فضلا عن مقالات محرريها ثم دأبت الجريدة على إصدار ملاحق لها تذكر فيها مساوىء أنصار الخديو ومن هذه الملاحق الملحق الذى نشرته بعنوان (سليم وبشاره

تقلا والخديو توفيق) ملحق الطائف فى ٨ شوال سنة ١٢٩٩ هـ وفيه هجو مقذع شديد .

وأهم ما امتازت به صحيفة الطائف هو :

١ — بعد أن كانت كتابة النديم فى صحيفة « التنكيت والتبكيت » تقدم على الكتابة والرمز وتنم عن الحياد والحذر أصبح فى جريدة الطائف يكتب بلغة سافرة لا يخشى فيها ساطانا ولا يأبه بملك أو أمير ويترجم عن أفكار رجال الثورة وآرائهم ويصدر عن هذا المرجل الذى غلا فى صدورهم .

٢ — كتب فى الطائف المقالات العنيفة التى تشرف النديم أبدالدهر ، فقد سبق جيله وكأنه قرأ فى لوحة المستقبل سطورا عن جهاد الأجيال المقبلة فى التخلص من نيرحكام بيت محمدعلى فكتب أخلد ما كتبه صحفى حتى الآن عن ظلم اسماعيل واغتصابة حقوق الشعب وأملاكه دون حسيب أو رقيب ثم كتب عن توفيق الذى خان الأمانة وخان الشعب وسلم بلاده للإنجليز واهتم بالدول الأجنبية . ولعمرى فإن هذه الصفحات التى نعتها بعض الصحفيين — بأنها مليئة من النقمة والتشفى فى اسماعيل (طبعاً كتبوا ذلك خشية من نفوذ أبناء محمد على) لتعد أعظم ما يشرف تاريخ كاتب مصرى نزيه .

٣ — حفلت الطائف ببحوث قيمة عن حالة الفلاحين وما انتهوا إليه من بؤس وعوز ودعوة الحكومة إلى العناية بهم من جميع النواحى الممكنة .

٤ — دعا النديم إلى الإصلاح النيابى فى مصر وكان رأيه أن الإصلاح السياسى فى مصر لا يقوم إلا على الإصلاح النيابى .

٥ — تحررت الطائف فى أول الثورة الصدق فى رواية أخبارها ولكنها انحرفت بعد ذلك ولم تلتزم جانب الصدق وأخذت تذكر الحوادث والأخبار على غير حقيقتها ثم نوعا من التهويل فى ذكر مايدور من معارك بين المصريين

والإنجليز ولهذا السلوك مايبرره من تقوية الروح المعنوى فى الجيش وإبعاد شعور القلق والخوف عن الشعب .

٦ — أصدر النديم مع الطائف ملحقاً به كان يبيح لنفسه فيه حرية النقد والمبالغة فى التجريح والذم فوق ما ينبغى لصحفى شرقى أو غربى .

٧ — رغم ما جاء فى أسلوب الطائف من عنف ولكن غلبت عليها العبارة المشرقة والصور البديعة ورصعت بالبحوث القيمة فى المسائل السياسية والاقتصادية وكانت فصولها مثلا رائعاً فى البلاغة والبيان .

صحيفه الأستاذ

عفا الخديو عباس الثانى عن السيد عبد الله النديم فعاد إلى مصر وآل على نفسه الدفاع عن الخديو ونفذ إلى الميدان السياسى من هذه الثغرة وصال فى هذا الميدان وجال مدافعاً عن الحركة الوطنية حيناً ومهاجماً الاحتلال الإنجليزى حيناً آخر، ولكنه رغم كتابته فى الأغراض السياسية مما أحفظ الإنجليز عليه فقد اختص الجزء الأكبر من نشاطه فى هذه الصحيفة للإصلاح الاجتماعى وإصلاح التربية والتعليم والدفاع عن الشرق ضد مطاعن الغربيين وافتراءاتهم .

ظهر العدد الأول من الأستاذ فى أغسطس سنة ١٨٩٢ وكانت الجرائد المشهورة فى عهده المقطم والأهرام والنيل وكان لها ثلاث اتجاهات منها ما يسالم الاحتلال ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية ويؤيد من ورائها السياسة الفرنسية ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية والنزعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية وكل منها يعرض وجهة نظره فى شىء من الهدوء والوقار .

أما الأستاذ فقد دعا إلى مصر للمصريين لا لتركيا ولا للأوروبيين وناصر

الحركة الوطنية والالتعاف حول الخديو أمير البلاد ودعا الذين غلبهم الخوف بعد الاحتلال أن يبرزوا من مكانهم ويتصلوا بالجمهور ليوقظوه ، ودعا إلى تأليف الأحزاب حتى يكون لكل جريدة حزبها ولكل حزب برامجه .

ولقد جاء حاداً عنيفاً فى كتاباته مما استتبع الحدة فى الرد عليه من جوانب الصحف الأخرى ، فتميزت الجرائد بعضها عن بعض فى وضوح وجلاء وكانت هذه الحدة وهذا الجدل المتتابع فى المسائل العامة أكبر موقظ للرأى العام النائم وبعث وعيه وتنبيه تفكيره إلى المسائل الهامة التى يتعلق بأسبابها مصير بلاده ومستقبلها السياسى والاجتماعى .

وكانت جريدة الأستاذ هى الأستاذ للزعيم مصطفى كامل فى صباه تعلم منها الاتجاه والنغمة وإن اختلف عنها من حيث الثقافة والاسلوب تبعاً لتطور الظروف والاحوال .

وقد لقيت هذه المجلة إقبالا منقطع النظير وتجلى هذا الإقبال فى كثرة عدد المشتركين فيها فبلغ عددهم فى العاصمة وحدها ٨٦٠ مشتركا و ١٧٨٠ فى الخارج وكانت تطبع من العدد الواحد ٢٨٤٠ نسخة وهذا العدد يدل على رواج الصحيفة وقد امتلأت بالأزجال والمناظرات والمقالات الطويلة لما تفيض به من بحوث عميقة ودراسة دقيقة . وقد صدر العدد الأخير منها فى ١٨٩٣/٦/١٣ وفيه ودع قراءة فى كلمة له بعنوان « تحية وسلام » شكر فيها للقراء عنايتهم به وإقبالهم عليه وذكر لهم أنه صمد لطائفة التهم التى وجهت إليه ومنها التعصب الدينى وأنه محرر ثورى وهو يشكر للصحف التى دافعت عنه ضد هذه التهم كجريدة المؤيد والأهرام والوطن وبعض الصحف الأجنبية فى مصر وأوروبا ، ولا ينس فى هذا المقال أن يقدم الثناء عاطراً للخديو عباس فهو الذى أصدر عفوه ومنحه الحياة فى مصر ويشكر جميع المصريين الذين تأثرت نفوسهم وأشفقوا على الجريدة من الغيبة ثم قال :

« وكنت أود لودامت لى صحتى فأقوم على خدمتى ولكنى أصبت بضعف فيها وأشار على جميع الأطباء بتغيير الهواء خارج القطر المصرى حتى يقوى ضعيفكم ويشفى مريضكم فيعود لخدمة وطنه وأهله » .

وهكذا اختفى الأستاذ بعد أن اقتنى القراء منه مجلداً فيه ألف وثلثمائة صحيفة وأهم ما امتازت مجلة الأستاذ فى الكتابة فيه هو :

١ — التوسع فى الإصلاحات الإجتماعية .

٢ — نقد أساليب الزراعة فى مصر وتأخرها ووجوب إصلاحها .

٣ — فوضى اللغة العربية ووجوب إنشاء مجمع يحيط كيانها ويكمل نقصها .

٤ — كان ينشر ملحقاً « للأستاذ » وهو صفحات من كتاب ألفه وهو فى المخبأ اسمه « كان ويكون » ووضعه على نمط قصصى وهو خلاصة ما كان يدور بينه وبين صديق فرنسى من حديث وجدل يتعلق أغلبه بأصول الأديان الثلاثة وتاريخها وبعض الأخبار عن مخبئه وبعض الآراء السياسية والاجتماعية ويدل مانشر فى المجلة على نظر عميق وبحث واسع وسماحة دينية لطيفة ولم ينشر الجزء الباقى من هذا المؤلف وكان يشمل جانباً من السياسة والتاريخ المصرى القديم .

٥ — ناصر الخديو عباس الثانى فى النزاع الذى قام بينه وبين الإنجليز سنة ١٨٩٣ على أثر عزل الخديو صنيعتهم مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء فى ذلك الحين فقام المترجم يكتب فى المجلة مستنهضاً الهمم حاضاً على مؤازرته وينبذ طاعة الاحتلال وكان ذلك سبباً فى إثارة الإنجليز عليه ونفس بعض أصحاب الصحف الموالية لهم لما رأوه من رواج صحيفته وكان ذلك هو السبب المباشر الذى أدى إلى تعطيل صحيفته .

نماذج من كتابته فى جريدة التنكيت والتبكيت :

فى ٦ يونيو سنة ١٨٨١ أصدر النديم أول عدد من أعداد هذه الجريدة وكتب افتتاحيتها بعنوان (أيها الناطق بالضاد) قال فيه :

« أتقدم بين يديك بخدمة وطنية ، دعانى إليها حبى فيك ، وخوفى عليك وما هى بالعظيمة فتشكر ، ولا بالبليغة فتمدح ، وإنما هى صحيفة أدبية تهذيبية ، تتلو عليك حكما وآداباً ومواعظ وفوائد ، ومضحكات بعبارة سهلة ، لا يحتقرها العالم ، ولا يحتاج منها الجاهل إلى تفسير ، تصور لك الوقائع والحوادث ، فى صور ترتاح إليها النفوس ، وتميل ، ويخبرك ظاهرها المستهجن ، بأن باطنها له معان مألوفة ، وينبهك نقابها الخلق بأن تحته جمالا يعشق ، وحسناً تذهب الأرواح فى طلبه ، هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيت ، ليست منمقة بمجاز واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا متنخرة برقة قلم محررها ، ونخامة لفظه ، وبلاغة عباراته ، ولا معربة عن غزارة علمه ، وتوقد ذكائه ، ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغة ألفنا المسامرة بها . . فاجعل لها نصيباً من عمرك الجليل ومتعها بنظرة تجلو مرآتها ، وتبصر خباياها ، ولا تفوق سهام الرد قبل أن تدخل فيها المضمار ، ولا تنكر عليها ما تحدثك به قبل أن تطبقه على أحوالنا ، ولا تظن مضحكاتها هزءاً بنا ولا سخرية بأعمالنا ، فما هى إلا نفثات صدور ، وزفرات يصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا ، فإن صدقت فى الخدمة فاجرى منك المساعدة ، وإن قصرت فقد بلغت جهدى ، وحزمت ما فى إمكانى ، فإن شئت عذرت ، وإن شئت أطلقت عنان أفكارك فى ميدان يكبو فيه جوادى ، ولسنا بدار الحرب أو أرض فتنة ولكن لنا فى العالمين نظير » .

ثم مضى النديم فى هذه المقدمة الرائعة ، موضحاً للقراء أسباب تقدم الغرب ، وتقهقر الشرق ، وكيف تنبه الأوروبى ونام المصرى ، وكان

أسلوبه فى أداء هذا المعنى موسيقياً بما كان يوفر له من السجع أو الزواج وجزلا بما كان يؤثر إذ ذاك من فحولة الألفاظ . . ثم ختم حديثه بقوله :

وسأتحفك بغرائب قومك ومناقب أصلك أقدمها إليك شذوراً مردفة ، بما نحن فيه من التنكيت لتعذر المهتمين ، وترحم المسكين ، وتكون من الذين أعادوا مجدهم وأحبوا أوطانهم ، فأصبحوا ببقاء ذكرهم فى الوجود من الخالدين .

* * *

مجلس طبى على مصاب الأفرنجى

من الموضوعات البارزة فى العدد الأول والتى قصد منها تنبيه الخاصة إلى المسألة المصرية التى كانت تشغل الأذهان فى وقته وكنى بلفظ « مصاب بالأفرنجى » عن الخراب الذى أصاب البلاد ، نتيجة لتدخل الأجانب ، وإسراف اسماعيل ، ووقوعه فى الديون وفرض الرقابة الثنائية عليها ، إلى آخر تلك المصائب التى حلت بالبلاد .

وقد رمز النديم فى هذه القصة إلى جميع تلك الأمور :—

كان هذا المصاب صحيح البنية ، قوى الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف الشكل ، ما رآه فارغ القلب ، إلا صبا ، ولا سمع بذكره بعيدا ، إلا طار إليه شوقاً ، نشأ فى العالم روضة ودراية أهله ، يحفظونه من الاعداء ويدفعون عنه الوشاة والرقباء وقد مات فى حبه جملة من العشاق . الذين خاطروا فى وصله بالأرواح والأموال ، وكلما وصل إليه واحد سحره برقة ألفاظه ، وعزة لا يشاركه فيها مشارك ، وهو هو غزال فى الخفة ، وغصن فى اللين وبدر فى البهجة ، وجنة فى المنظر ، تمر عليه الدهور فتزيده حسنا ، وتتوالى عليه

العشاق فتزداد هياما ، وأهله فرحون بهذا البديع الفريد ، والطالع السعيد ، يعشقون الموت فى حياته ، وقد اتفقوا على توحيد كلمتهم فى حفظه ، وجمع شتاتهم فى رحابه ، وصرف حياتهم الطيبة فى بقائه فى الوجود ، معززاً بأهله مؤيداً بعشائره ، حتى لا تمد إليه يد عدو ، ولا يوجه إليه فكر محتال ، ولا يقرب منه مغتال — وبينما هو يتيه بحسنه ، ويدل بجماله ، صحبه أحد المضلين ، واستماله بذماق تميل إليه النفوس ، فظن أهله أن هذا المضل من من الأتقياء الذين لا يعرفون اللهو ، ولا يميلون إلى المفاسد وسلموة جنة حياتهم ، وروضة ثروتهم ، فدار بهافى الأسواق والطرقات ، وعرضه للعشاق تقبله جهارا . وتسلبه ، حلى أصابعه ، وزينة صدره ، وقد علموا أن الجمال يأسر الجميل فأحضرا من الغوانى ، من تعارض الشمس بحسنها ، وتكسف البدر بنورها ، فدرن فى سبيل بيته يغازلن أهله بنغمات تحرك الجبان ، ومؤانسة تستميل الشجعان ، حتى سلبن العقول وحولن الطباع . . . وجعلن الجمال مبذولا بلا قيمة ، والوصال ممنوحاً بلا مقدمات ، وذلك الصاحب مكب على هواه . ملزم بجميع الغرباء واستدعاء الأعداء ومصاحبة الأشقياء ومسامرة الأغبياء . . . إلا أن هذا الغزال الطاهر العرض ، لما رأى أهله أهدروه واهملوه ، واشتغلوا بالغوانى ، وولعوا بخدمة الأجانب ، وانكبوا على الملاهى يتتبعون آثارها ، استسلم للقضاء وترك النفار ، والتحمس ومال مع أغراض هذا الصاحب وسار معه فى طريق لا يرى فيه أحداً أهله .

فما هى إلا رشفة كأس حتى أصفر وجهه ، واتحت أعضاؤه ، وذهبت بهجته فسلم جسمه الشريف إلى الفراش يتململ عليه ، ففطن واحد من أهله وزاره فى خربة لم يجد فيها غير شبح يعلل نفسه بالأمانى ، ويصعد الزفرات

---

(١) الخربة هنا كناية عن الخراب الذى حل بالبلاد .

وقد برزت عظام وجهه وغارت عيناه وتشوه وجهه وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع فبكى وانتحب وقال :

أى بحياتى أى جنتى أى نزهتى ، أى مطلع عزى ما الذى أصابك ، أين جمالك البديع . أين محياك الزاهى ، . أين حسنك الذى أفنى الكثير من العشاق . . أين صحتك التى أشابت الدهور وهى فى عنفوان الشباب . . أين قوتك التى أسرت بها الأشباح . . . أين رقتك التى جذبت بها الأرواح . . أين ما كان عليك من الحلى والزينة أين تاجك الذى ما لبسه إنسان إلا افتخر على الوجود . . .

فتنفس المصاب تنفس الضعيف ، ورمقه بعين لا يكاد يتحرك جفنها ، وقال بصوت خفى ـ لا يغر عليك جسم أمرضه أهله فإنكم تركتمونى لصاحبى يدور بى أينما دار فعرضنى لمن لم أعرف طبعه ، ولا عادته ولا لغته ووكل بى من يغرنى ويسلك سبيل الغواية ؛ فلم أجد بدا من الموافقة ودرت أماكن اللهو حتى أصبت بالداء الأفرنجى ـ فلم أعبأ به أول الأمر وتركت نفسى وكتمت خبرى . . . فلما ضعفت قواى وتعطلت حواسى ، سقطت فى هذه الخربة[1] ، أقلب جسمى على الأحجار وارمق بعينى آثار أهلى وقصورهم المتهدمة ولكن لا أستطيع حراكا حتى كنت أغالب هذا (الافرنجى) وأصل إلى مقرى فأعالج نفسى بحشائش تربتى وعقاقير أرضى من يد أطباء بلادى وصيادلة ديارى[2] . . .

فقام هذا الزائر يضرب الكف بالكف أسفاً ويعض أنامله غيظاً وأسرع إلى الحى ونادى .

أيتها القبور الصامتة ؛ انشقى وانفرجى وابعثى من فيك من الأموات

---

(١) الخربة كناية عن الخراب الذى أصاب الديار .

(٢) الأطباء والصيادلة هنا تعنى المصلحين والعقلاء من أمته وهم القادرون على إنقاذ البلاد .

فقد أتت الطامة الكبرى ، وانكدرت نجوم المنشور ـ ويا أيتها الارواح الخالدة ـ هلمى إلى أجسامك البالية ، فأقيميها من موتتها ، وابعثيها فى الوجود لتنظر هذا الذى تشتى بعدمه وتحاسب عليه .

فلم يكن إلا كلمح البصر ، حتى ملىء الفضاء بأناس لا عدد لهم ؛ يقدمهم طبيب بارع قد استصحب معه جملة من الأطباء ، وساروا إلى تلك الجيفة ، واحتاطوا بها يقلبونها عن اليمين وعن الشمال ، ويقرعون صدرها ، ويجسون نبضها ، حتى وقفوا على دائها وعلموا أصل مصابها ، فحكموا على صاحبها بانتزاعه منها ، وفوضوا أمر هذا المصاب ، إلى الطبيب البارع يتولى علاجه ويداوى جراحه ؛ فطلب من بقية الأطباء ، أن يرافقوه فى هذه المعالجة ليتقوى بأفكارهم على ما يصلح به هذا الجسد الشريف .

وبعد تبادل الافكار بينهم قر الرأى على أنهم يركبون له دواء ، يوقف سريان الداء الآن حيث تحكم وتمكن ، وبعد ذلك يتداولون فيما يزيل المرض ، ويعيد الصحة ؛ فتعلق بهم أهله يسألونهم الإسراع فى معالجته ، والاجتهاد فى دفع مصابه ؛ فافترضتهم الاطباء وسألتهم الهدوء ؛ والسكون ومساعدتهم فى خدمته ؛ وتنظيف محله ، وتطهير أعضائه ؛ وحفظه بحيث لا يتركون الغرباء يتولون خدمته ، ولا يمكنون الأجانب من الوصول إليه خوفاً من افسادهم العلاج وسعيهم فى إتلافه أكثر مما صنعوه به ، فكثر صياح أهله ، وعلت أصواتهم بالعويل ، ووضعوا أيديهم على أكبادهم ، وتصبروا وابتدأو يعملوا بمشورة الاطباء ، ويبذلون الجهد فى وقايته وصيانته من كل من كان من جنس مصيبته ـ قال الراوى : وبينما أنا أبكى وأنوح من هؤلاء المساكين ، وإذا بالمؤذن ينادى حى على الفلاح فقمت لأقضى الفرض وأعود لمباشرة الخدمة مع إخوانى إذ لم أر قبل هذا اجتماع مجلس طبى على مصاب بالأفرنجى .

ولقد وضح النديم فى هذا المقال ؛ مدى ما أصاب البلاد ؛ من تدخل

الاجانب في شئون البلاد ، ثم بين أن العلاج ميسور ، بتعاون عقلاء الأمة ، وذوى الرأى فيها ، واتحادهم على علاج البلاد السريع .

ويعد هذا المقال مثالا ، للمقالات التى كان يكتبها النديم للطبقة الخاصة ـ أما الطبقة العامة فقد خاطبها فى صحيفته بعدة مقالات منها مقال بعنوان (عربى تفرنج) وآخر بعنوان (سهرة الإقطاع) وثالث بعنوان (تخريفة الجنون فنون) . . . الخ .

ولنعرض شذرات مما كان يكتبه النديم لتعليم وتنبيه الشعب ولنبدأ بقصة عنوانها «محتاج جاهل فى يد محتال طامع» .

احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه فقصد بعض التجار وطلب منه المبلغ فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النبهاء .

الزارع ـ عاوز ميت جنيه بالفرط[1] يا سيدى .

التاجر ـ فرط المية عشرين كل سنة .

الزارع ـ اعمل اللى تعمله .

التاجر ـ شيل عشرين من المية يبقى كام .

الزارع ـ هو انا كاتب شوف يتفضل كام ؟

التاجر ـ يبقى سبعين .

الزارع ـ يدوب كده .

التاجر ـ دلوقت صار لى مية جنيه ـ ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة .

الزارع ـ إكتب وخد الختم أهو .

وفى وسط السنة قدم الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أرادب سمسم وعشرين من القمح وثلاثين من الفول وأربعين من الشعير وجاء يحاسبه فكانت الحكاية هكذا .

---

(١) يريد بالربح أو بالفائدة .

الزارع ـ طلع لى ورقة الحساب يا سيدى .

التاجر ـ إنت جبت قطن بعشرين جنيه وقمح بعشرين جنيه وشعير بعشرة جنيه . يبقى كام . .

الزارع ـ ما قلت لك من ديك المره ما بعرفش الحساب .

التاجر ـ الباقى تسعين جنيه وفرطهم عليهم عشرين يبقى مية وخمس عشر . طالب انت كمان ثلاثين يبقىماية وستين ضم عليهم أربعين فرط يبقى الكمبيالة نكتب بمائتين وعشرة ونصف .

الزارع ـ هو إيه ـ من الأصل سبع عشرات وعشرين وجالهم ثلاثين وثلاثين شلت منهم ثمن البتوعات إلى جبتهم يبقى لك دلوقت ماتين وعشرة بس . والنص جبتو منين .

التاجر ـ النص أجرة كتابتى لا من الأرباح .

الزارع ـ آى دلوقت صحت الحسبة . والسنة دى أبيع لك خمسين فدان فى عشرة جنيه يبقى لك إيه بعد كده .. ياجنيهين ياثلاثة خد لك بهم جاموسة ويبقى على رأى المثل شيل ده عن ده يستريح ده من ده .

فقال النبيه للتاجر ـ أما تتق الله فى هذا المسكين أخذت محصوله وصار دائناً لك فلفقت له حسبة لا أصل لها وجعلته مدين فإن حسبتك معه هكذا .

٧٠ بفائدة ٢٠ فى المائة فالمطلوب ٨٤ وهو أورد لك هذا القدر .

١٥ قنطار قطن سعر القنطار ٢ جنيه فالمجموع ٣٠ جنيه . . الخ نهاية الحساب والمجموع الكلى ١٢٥ جنيه ـ يكون له عندك ٤١ جنيه . فكيف جعلته مديناً بمائتين وعشرة ونصف وبعد ذلك ـ إن هذا لهو السلب بلا خوف .

التاجر ـ ياحبيبي الزارىء حمار ، وأنا إذا كان مش يعمل كدة ، مش لازم ييجى تاجر بنكير بعد خمسة سنة .

فقال ـ قد تغيرت هيئتنا ، وتنبهت حكومتنا ، فهى تسعى فى عمل نظام يحفظ الحقوق ويمنع تعدى مثلك على هذا المسكين ، حتى لا يقع بعد ذلك جاهل محتاج فى يد محتال طامع .

وهكذا يعرض النديم على الشعب أمثال هذه القصص التى تفيض سخرية بالجهل ويطل من ثناياها سوط التأنيب اللاذع ، والتنبيه الشديد ، للشعب إلى شئونه ودفعه إلى نفض الجهل بعزيمة قوية .

حكاية عربى تفرنج

ومؤدى هذه القصة أن كان لأحد الفلاحين (معيط) ولد (زعيط) عاش معه فى الريف ردحا من الزمن ، ثم أتم دروسه فى المدرسة وسافر للخارج فى بعثة علمية ، وعاد إلى بلاده بعد أربع سنوات ، وأتى أبوه لاستقباله فى رصيف الإسكندرية واندفع الأب يحتضن ولده ، ويقبله فابتدره إبنه قائلا .

سبحان الله عندكم يامسلمين مسأله الحضن دى قبيحة جدا .

معيط ـ أمال يابنى نسلم على بعض ازاى .

زعيط ـ قول بون أريفى bon Arrivé وحط إيدك فى إيدى مرة واحدة . وخلاص .

معيط ـ لهو يابنى أنا باقول مفيش ريفى ؟

زعيط ـ موش ريفى ياشيخ . أنتم ياأبناء العرب زى البهائم .

معيط ـ الله يسترك يازعيط والله جا خيرك . . الخ .

وهكذا احتوى العدد الأول من مجلة التنكيت والتبكيت ست مقالات اثنتين منها للخاصة وأربع للعامة وخاطب النديم كل طبقة بما يتفق وثقافتها وذلك من حيث المعانى والألفاظ .

كم فى الزوايا من خبايا

كما كتب فى العدد الثانى من المجلة هذا المقال ، يتهكم فيه بلغة رجال الإدارة ، وجهلهم وسوء تصرفهم ، فمن ذلك أن أحد المأمورين ارتكب خطأ فى عمله ، فأرسل له رئيسه كتابا يوبخه فيه ، ويسأله الإجابة ، فطلب المأمور رئيس كتابه ، فكتب له جواباً سقيم العبارة ، سخيف اللغة ، تافه الفكرة ، فلم يسترح المأمور إلى ذلك وأخيراً دله بعض جلسائه إلى شاب عنده فى الديوان لايتجاوز راتبه ثلاثة جنيهات ولكنه يجيد الكتابة ، فكتب له خطابا بلغة صحيحة ومفهومة ، فلما قرأها على المأمور ، كاد يطير فرحاً بنجابة الشاب .

وقال ـ كيف يكون هذا بثلثمائة قرش ورئيسه بألف قرش .

فقال له الوكيل ـ هذا من أولاد الفقراء وليس له محسوبية ، على أحد الأمراء ولا يعرف النفاق ، ولا يفعل أمثال المحتالين ، التى تقدمه إلى ذوى الغايات .

(التبكيت) أعظم مصيبة من رئيس كتاب لايعرف الإنشاء ، ووجود مأمور لايحسن كتابة جواب من شأنه أن يكون من أسراره الخفية ، ثم فى نفس هذا العدد من أعداد مجلة التنكيت والتبكيت ، أجاب النديم عن سؤال تخيل أنه ورد عليه ، وهو بأى سبب ماتت صنائع الشرق ، وافتقر أهلها ـ وبأية وسيلة تحيا ، وتعود ثروة أهلها .

فأجاب عن ذلك بأن الصنائع قد ماتت بتجارب أهلها ، وبتباغضهم

الذين أورثاهم الفقر ، وفقد الأمن والثقة بهم ، واحتج لرأيه هذا بمقال طويل وأدلة قوية .

أما العامة فكان نصيبهم من هذا العدد ، أحاديث (تخريفة خد من عبد الله واتكل على الله) وهى باللغة العامية .

وهكذا قد أتينا بأمثلة مما كان يكتبه النديم فى صحيفة مجلة التنكيت والتبكيت فى العددين الأول والثانى وما كان يحرص عليه دائماً من الجمع من فائدة الطبقة الخاصة ، والطبقة العامة من الشعب .

ومن عيون مقالاته فى التنكيت والتبكيت مقالة « متى يستقيم الظل والعود أعوج » فى العدد الـ (٦) فى ١٨٨١/٧/١٧ ـ فكتب جاء فى مقدمتها .

« أيها المحررون القائمون بتهذيب النفوس ، افتونى فى نفوس ان سمعت لموعظة ضلت وإن رأت الحق نفرت ، وإن ادعت النور أظلمت ، وإن قيدت إلى الخير جمحت ، وإن منعت من الشر رمحت ، وإن أغضبت رضيت ، وإن أرضيت بطرت ، وإن سمعت تقبيح فعل من مهذب رمته به ، وإن ردت عنه جميلا ، إدعته لها ، وإن أرشدها مقتته ، وإن مدحها قذفته ، وإن صحبها أساءته ، وإن أثنى عليها شتمته ، وإن خدمها أهانته ، وإن نصحها لعنته .

أظنكم إذا ابتليتم بمثلها ، قصفتم الأقلام ، وكسرتم المحابر ، ولطمتم باب العلوم بالحداد وادعيتم الخرس حتى لاتكلفون إجابتها ، وتعاميتم حتى لاتبصرون هيولاها ، واحتجبتم حتى لاتقع أقدامكم على أثرها فى الطريق ، وأراكم تهزون الرءوس ، إنكارا على ، زاعمين أن الوجود مطهر من مثل هذه النفوس الخبيثة . الخ .

ثم يتكلم بعد ذلك عن الذين حاربوه فى رسالته العظيمة أثناء إدارته مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية ، والعمل على إفساد حفلته التمثيلية ، التى مثل فيها رواية الوطن وطالع التوفيق وصرف الناس عن

حضورها ثم ينعى على الأغنياء إمساكهم عن مساعدة المشروعات الخيرية ، التى تعمل لخير الفقراء والمدارس التى تعنى بتعليم أبناء الشعب .

ثم ناشد أصحاب الأقلام ، وأرباب الجرائد لمساعدته قائلا :

فيا أصحاب الأقلام وأرباب الجرائد هلا سعيتم معى فى هذا الطريق الذى لا يضيع فيه عمل عامل .... ويا أبناء وطنى هلا رأيتم هذه الأتعاب فشاركتمونى فى تحمل بعضها .. ويا أهل الغيرة هلا عطفتم على بما أتمم به أعمالى فى تربية الأيتام لا فى مطعومى ولا مشروبى فقد رضيت بالكفاف وقنعت بما يستر العورة ويسد الخلة » .

ومن روائع كتاباته ما جاء فى مقالته « إضاعة اللغة تسليم للذات » .

أيها الناطق بالضاد .

بما تستبدل لغتك وما لها من مثيل . وإلى من تتركها وأنت لها كفيل ، وما الذى استحسنته فى غيرها ، واستقبحته مقابله منها ، وأى شىء طلبته فيها ولم تجد له إسماً . ترى أنك فى عصر تمدن ، يقضى عليك باستعمال أرق اللغات لسهولة التركيب ، وعذوبة اللفظ ورقة المعنى . ناشدتك الله ، أوجدت فى اللغات الحديثة العهد ، ما اشتملت عليه لغتك القديمة ، أم رأيت حسناً فى اللغات التى تنقح كل يوم تعليم المتمدنين لم تره فى لغتك الفطرية الخلق المجموعة فى زمن الهمجية ، كما يزعم الجاهلون ؛ أترى إذا عبرت عن شىء بلفظ فى غير لغتك وأردت أن تتصرف فيه بعبارة أخرى ، هل تجد له مرادفا واحدا ، كما تجد فى لغتك للفظ جملة مترادفات أم أنت الجاهل بقدرة لغتك ، الغافل عن عظيم قدرك فى تاريخ العالم قديما وحديثاً ، أظنك فى احتياج لفهم سر اللغة ومعرفة ما يترتب على ضياعها ، ولا تثريب عليك فى أمر لم يبحث فيه إلا بعيد الغور فى حساب العواقب ، شديد الحرص على بقاء وحدة الهيئة الإجتماعية .

اللغة سر الحياة والحد الفارق بين الإنسان والبهيم بها يترجم اللسان خواطر القلب ، ويجلو بنات الأفكار ، وبها يعشق المرء وإن كان دميم المنظر ، إن رقت استنطقت القلوب القاسية ، وإن غلظت أخضعت النفوس العاتية وإن خشنت حركت الطباع وإن لطفت رفعت الأوضاع وإن حسنت ألفت القلوب ، وإن سهلت أظهرت العيوب ، وهى التى بها حدثت قلب أمك ان استعطفت جانب أبيك وملكت فكر أخيك ، واستملت صاحبك ، وألفت جارك ، وتعارفت مع مواطنك وقابلت بها نزيلك ، فهى أنت إن كنت لاتدرى من أنت . وهى وطنك إن لم تعرف ما الوطن) .

ملحوظة : سبق الإشارة إلى هذه المقالة ، فى باب سعيه فى سبيل اللغة العربية ص ٥٦

نماذج من مقالات النديم من جريدة الطائف (وهو فى ميدان القتال بالقرب من الإسكندرية)

كتب النديم فى العدد الرابع والستين من جريدته الطائف فى ٨ شوال سنة ١٢٩٩ هـ

المعمة الثانية

إن جندنا لهم الغالبون

أى بنى مصر ، خذوا حديثاً يرويه العيان عن المشاهدة ، ويخبر به الصدق عن الحقيقة ، جهل الإنجليز مقام المصريين ، فاعتدوا واجلبوا عليهم بالخيل والرجل ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمم نوره ، ولو كره توفيق باشا ومن معه ونال الإنجليز العذاب ألواناً من يد المصريين فى ٥ رمضان سنة ١٢٩٩ فأبت جهنم إلا أن يساق إليها جانب عظيم منهم يزداد به وقودها فتجمعوا وأقاموا خمسة عشرة يوماً يجهزون ويرتبون حتى إذا

جاء أجلهم ساقتهم المنية فى يوم السبت زمراً تحت رياسة الدوق (دوكنوت) رابع أنجال ملكة الإنجليز ، وقيادة السير (أ. شيبالد اليزون) أشهر قواد الإنجليز ، فخرجوا فى الساعة التاسعة بقوة مركبة من عشرة آلاف عسكرى ، ما بين بيادة وسوارى وطوبجية ، وكان خروجهم على هذا الترتيب .

وبينما كانت الطابية تضرب القطورات . قربت عساكرهم البيادة ، والسوارى والطبجية من عساكرنا فأمطرتهم بنادقنا رصاصاً غير بارد ، وسقتهم شراباً غير راو ، وكانت مدافعهم من جهة محطة السيوف ، ومن طابية الرمل تضرب، ومدافع مقدمتنا الأمامية وطابية الخفراء الأول تجمع من شرد منهم وترد الهارب ، فإن طوبجيتنا من المشهود لهم فى تاريخ العسكرية ذكراً جميلا كيف لا ، ورئيسهم البطل الهمام سعادة بدوى بك كان يطوف حول المدافع كأنهم بين يدى أمير مطاع ، يأمر فلا يرى إلا نشاطاً وحركات سريعة .

وعندما تكاثرت نيراننا عليهم ، تقهقروا ، فانقض عليهم أربعمائة من سوارينا ، وخمسمائة خيال من فرساننا العرب . وألف وخمسمائة من العرب الراجلة ، انقضاض الشهب المحرقة وساقوهم سوق الأغنام، ومدافعهم تضرب من كل ناحية ، وهؤلاء الأسود لا تخيفهم نيران العدو ، ولا ترهقهم كثرته. حتى التجأوا إلى نخيل السيوف والمندرة . فاتبعهم فرساننا الظاهرون . وأطلقوا أعنة الخيل خلفهم ، وقد سارت العرب الراجلة تبارى جياد الخيل عدواً وجرياً . حتى تمكنوا من الألوف المنهزمة ، وأذاقوهم المنون حرقاً بنار الرصاص . وضرباً بالسيف ، وكسراً بسنابك الخيل وكلما التجئوا إلى ربوة أو توارطوا فى منخفض ، تبعوهم وشردوهم حتى وصلوا بهم محطة السيوف . ورأى العدو أنهم لا يرجعون مع استمرار المدافع من طابية

الرمل ، فقصدوا جهة طابيتهم ، وأسود مصر خلفهم تزأر وفرسان العرب تصيح بصوت له ضجة عظيمة ، حتى منعوهم من الالتجاء إلى الطابية ، فنزلوا على جسر السكة الحديد ، قاصدين سراى الرمل فتبعهم صناديدنا ، تضرب وتذبح وحالوا بينهم وبين السراى ، وفروا جهة الأسكندرية والسيوف والرصاص يصيدهم ، حتى صاروا أمام الحدراء ، ورأى رجالنا أنهم إن تبعوهم إلى الأسكندرية أصابتهم نيران المدافع الموجودة بباب شرقى فعادوا وجثث القتلى تحت سنابك الخيل كأنهم ربوات .

ومن العجب ، أن أنفار العملية . أخذوا فؤوسهم ونبابيتهم ، وهجموا على العسكر وتوغلوا فى السير معهم. وقد تجمعت خلفهم نساء العرب. تزغرد وتغنى بألفاظ حماسية . وصوت رخيم وكان فى ساحة القتال سعادة البطل الغيور طلبه باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار وسعادة محمد رضا باشا وحضرة مصطفى بك عبد الرحيم حكمدار المقدمة . وحضرة أحمد بك عبد الغفار أميرالاى السوارى وحضرة عيد بك وحضرة سليمان بك سامى وحضرة أحمد بك عفت ومن البكباشية حضرة محمد افندى فوده ... الخ.

فهؤلاء الأمراء العظام أظهروا فى هذا اليوم ما أعاد لمصر مجداً يشرف به الحاضر ويفتخر به الآتى من المصريين . وكنا نود لو حضر الإفرنج ورأوا عساكرنا وعرباننا وهم كالليوث خلف غزلان تستحى الحرب من نسبتهم إليها . حتى كانوا يقطعون ألسنتهم بأيديهم. جزاءاً لما افتروه على المصريين. وما كانوا يقولونه من خوفهم من البرانيط. التى لم تجد تحتها رؤوساً. ولكنهم وإن فاتهم النظر فلا يفوتهم الخبر .

* * *

وبهذه الطريقة السالفة كتب النديم وهو فى الميدان مقالات جريدة الطائف . ومنها مقالة أخرى باسم :

المعمعة الثالثة

«وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها»

«قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفى صدور قوم مؤمنين » ذلكم العادون المفترون . بغاث الإنجليز الذين استنسروا فى الوجود بأوهام وخيالات — واستضعفونا لجاءوا بالخيل والرجل . وقد زلزلت أرضهم . فأخرجت أثقالها . وثبتت بأقدامنا أرضنا فكنا أوتادها — غرتهم مراكبهم الحربية . فتخيلوا أنهم يسيرونها فى البر . وما دروا أن الأسماك تقتلها الترب وتنتنها الشمس . وهم هى إذ لا تقرب الشاطىء خوفاً من الصياد . وبين أسود تتبع فريستها إن سارت — يعلم ذلك من شاهد واقعة يوم الأحد ٥ شوال سنة ١٢٩٩ هـ . فقد أخذ العدو يهيىء عساكره . من الساعة السادسة نهاراً ، وفى الساعة التاسعة ظهر بقوته المركبة من ستة قولات قادمة من جهة الرمل . شرقى المحمودية وقولين من جهة حجر النواتية غربى المحمودية وقطرين من طريق القبـــارى وكان سعادة طلبه باشا قومندان فرقة كفر الدوار قد رتب مقدمتنا من أربع أرط شرقى المحمودية . . . الخ .

وعندما صار العدو تحت نيران مدافعنا . اشتغلت الطوبجية من الطرقية واشتعلت نيران المدافع . وعلت القنابل فى الجو تعارض الصواعق فى انقضاضها . وتضارع الشهب فى إحراقها . وقد أبدى حضرة محمد افندى حشمت البكباشى وأحمد افندى فضلى اليوزباشى وبقية ضباط وعساكر الطوبجية . تحت حكمدارية الهمام حضرة بدوى بك من المهارة ودقة الضرب ما غطى وجه أرض الميدان بجثث القتلى من العدو .

وقد شاهدنا عدة قنابل فرقعت فى وسط قولات العدو . فتركت مئات

من رجاله صرعى لا روح فيهم . ثم وجهت مدافعنا إلى القولات الشرقية . فأعدمت وأحرقت وشتتت وبددت . ووجه بعض المدافع إلى قطورات السكة الحديد فكسرت وقتلت . واستمر الضرب بالمدافع ساعتين ونصفاً . وعساكرنا البيادة والسوارى والعربان تتقدم تحت حماية نيراننا . حتى صارت على قرب ستمائة متر من العدو وأطلقت عليه نوبة (بلوك اتش) وأتبعتها بنوبة (اتش) فتقهقر العدو . منهزماً وكان يود أن يجعل قهقرته بانتظام . ولكن هجمت عليه سوارينا وفرسان العربان فشردته من النخيل وتبعته تضرب بالنار . وتذبح بالسيف إلى منتصف الساعة الأولى من الليل . ومن عهد انتشاب الحرب لم يخرج العدو بقوة كهذه فإنها كانت مكونة من ١٢ ألفاً . بما فيهم من آلاى الحرس الملكى . وكان الدوق (دوكينوت)رابع أنجال الملكة مع توفيق باشا جهة الرمل . ينظرون بالنظارات فلما رأو عساكرهم تقهقرت وتلفت عادوا إلى الأسكندرية بالخيبة والندامة .

وفى هذا اليوم حضر أحد عساكر موسيقى وابور المحروسة وأخبرنا أن قتلى العدو يوم السبت ألف ومائتان . وأما قتلى يوم الأحد فإنها مضاعفة وستأتينا أعدادها فنكتب إليكم بها فحق للمصريين أن يفتخروا بإخوانهم المجاهدين . والذين أسسوا لهم دعائم مجد يبنى عليها تاريخ العز والشرف نصرهم الله .

(كتب فى ميدان القتال بالملاحة)

* * *

وهكذا وجدنا النديم يعنى فى تلك المقالات العاجلة بوصف المعمعة مستعملا ألفاظاً فخمة طنانة . مستعيناً بالاقتباسات القرآنية . وخاصة

فى مطالع هذه المقالات والاصطلاحات الحربية الفنية بالألفاظ التركية ، مستخدما أسلوبا قوى الواقع ، مثيراً للنفس ، جميل الأثر ، فى تقوية الروح المعنوية فى الجمهور والدعاية للجيش المصرى .

وقد أورد عدة استعارات منها تشبيهه مراكب الإنجليز بالسمك ، يحيا فى البحر ويموت فى البر ، ثم يذكر كبار ضباط الجيش وصغارهم على السواء - ولا ريب أن هذه الطريقة ناجحة ، لأنها مشجعة .

مقالات النديم فى الطائف

عن الخديو إسماعيل

إذا كان مفخرة لصحفى مصرى أن واجه يوماً حكام بيت محمد على بنقد صريح فإن عبد الله النديم ليطول عليهم نخاراً ويبذهم جميعاً فى جرأته وشجاعته .

لقد كتب سطوراً نارية فى صحيفة الطائف ، ملتهبة بحرارة الوطنية متوهجة بنور المضاء والعزة مسجلا فيها مظالم إسماعيل ومآسى جنايته على أبناء الشعب ويعد إسماعيل بحق أعظم حاكم ظالم فى تاريخ مصر الحديث .

كان لإسماعيل إصلاحات كثيرة بالبلاد شملت كل نواحى العمران فيها فكان أول مامر بخاطره أن تضارع عاصمته عاصمة نابليون الثالث ، وأن تكون القاهرة باريس الشرق ولم تك إلا سنوات حتى قامت القصور شاهقة على شواطىء النيل بين الجزيرة والروضة ثم فتحت المدارس ومدت السكك الحديدية وعم النشاط المعمر أنحاء الدولة جميعاً ثم فتحت القناة بين البحرين الأبيض والأحمر فى مشهدفذ فى تاريخ العالم كله شهده ملوك أوروبا ، وتفتحت أعينهم إلى مصر الناشئة فى منهج التقدم والحضارة ثم ظهر إسماعيل فى أبهة

من السلطان تذوى أمامها أبهة أصحاب العروش فى الدول الأوروبية كلها - كل ذلك عظيم وكل ذلك جميل .

ولكن الوطنى المخلص ينظر إلى جوهر الأشياء لا إلى مظاهرها ، ينظر إلى المستقبل لا إلى الحاضر . هل كان إسماعيل وطنيا حقا يحب بلاده ويحب رفعتها ويحب لها المجد والسؤدد فى مستقبل أيامها ؟

هذه الديون الباهظة التى قيد بها البلاد وعطل نموها الاقتصادى والتى بلغت أكثر من تسعين مليون — من الذى استدانها ولمصلحة من أنفق معظمها ؟

كتبت مدام[1] (المب أداور) فى كتابها عن مصر تقول عن الخديو إسماعيل (أنه لم يكن يهتم إلا بجمع الملايين وكان يقتنى الأطيان فى كل ناحية بقدر المستطاع ويلجأ إلى السخرة لزرعها واستصلاحها ويعقد القرض لآجال طويلة تاركا لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد ديونه حتى كأنه يقصد أن يعقد الحكم لمن يأتى بعده) .

ويقول مؤلف كتاب تاريخ مصر المالى[2] - أن المعروف عن اسماعيل أنه كان بطبيعته ميالا إلى الاستكثار من المال والعقار وظهرت هذه الميول منذ ولايته الحكم ، فقد كان نظار أملاكه ومفتشوها يفتنون فى حمل الفلاحين على بيع أطيانهم أو التنازل عنها للخديو حتى صار مالكا لخمس أطيان القطر المصرى على وجه التقريب .

لا عبرة بما فعل اسماعيل من إصلاحات كان الغرض منها إظهاره بمظهر الأبهة والمجد وتجميل عاصمة ملكه بمظاهر الحضارة والثراء بينما يعيش غالبية

---

(١) كتاب كشف الستار عن أسرار مصر لمدام أولمت أدوار ص٤٩

(٢) تاريخ مصر المالى ص ١٨ ؛ ١٩

الشعب فى جوع ومشقة وبؤس، ويكاد يموت الفلاحون جوعا ، يتعبون ويكدون فى زرعهم وحصادهم ويجمع غيرهم ثمرة تعبهم .

عاصر النديم مظالم اسماعيل وكتب عنها كتابة شاهد العيان ورأى المظالم الفادحة التى جناهاوأذنابه، من موظفى دوائره، على الفلاحين التعساء ـ رأى الفلاحين كيف يساقون كما تساق السوائم ثم يسخرون للعمل فى أراضيه بدون أجر ـ رأى الأطفال الذين لم يجنوا ذنبا ولا اقترفوا اثما وهم فى سن البراءة والطهر ،يساقونمع ذويهم كأنهم العجماوات التى لاتعى ، ثم يذهبون إلى الأراضى يخوضون فى أوحالها ، ويعملون طيلة النهار تحت سفع الشمس صيفا ، ووابل المطر شتاء وفى نهاية النهار يجمعون إلى مخازن واسعة ليناموا فيها مكدسين متراصين دون عناية أو رعاية فى أماكن قد حرمت جميع الوسائل الصحية الضرورية .

كانوا يبقون وقوفا أثناء عملهم ولا ينعمون بفترة بسيطة لتناول طعامهم بل يتناولوه أثناء عملهم .

كتب النديم فصوله عن مظالم اسماعيل دون خوف ولا تردد لمصر وأجيالها المقبلة فى وقت كان اسماعيل يسعى للعودة إلى مصر بماله من أنصار ورجال ، ولكن زيف التاريخ ودست فيه الأكاذيب والترهات الباطلة عن مجد اسماعيل وعظمة أياديه البيضاء على البلاد وكان الكتاب والمؤرخون يتبارون فى عهد الملك فؤاد فى الكتابة مدحا وتقريظا فيه لقاء عطائه وهداياه ـ أما ذلك الرجل الفقير ابن الخباز فقد ضرب المثل لكل المصريين جميعا فى شجاعته ـ فكتب عن أكبر حاكمين خائنين وهما اسماعيل وتوفيق بكل صراحة وشجاعة فى الطائف ، ولكن شنع به الكتاب من سابق ومعاصر ووصفوا مقالاته عن اسماعيل بأنها سفه وحقد ومبالغة دون حق . ولكن الحقائق الدامغة التى حفل بها عهد اسماعيل لاتدع مجالا فى الشك فى أقوال

النديم بل هي أصدق أقوال قيلت حتى الآن ـ وقد تحدى الحكومة وتحدى المسئولين فى أن ينقضوا ماذكره عن جنايات اسماعيل بالبرهان فسكتوا جميعا واكتفوا بأن عطلوه عن الكتابة .

رأى النديم وهاله مارأى ـ الفلاحين يقعون صرعى المرض ثم يدهمهم الموت دون رحمة ولا إشفاق، والطاغية لاه فى غيه . ساهر فى ملاذه ومواخيره والدولة بأسرها تعنو له صاغره خاضعة ، وليس من الحكام من يعارضه أو يحاسبه عن تلك الجرائم التى ارتكبها عماله وموظفوه .

كم من طفل برىء ورجل قد ناءت به السنون وفتاة عذراء لقت حتفها على أثر العذاب الذى لا قته فى معسكرات التسخير - ولم يجد الوطن من يدافع عن هذه الضحايا البريئة ! ! . . .

رأى النديم هذا وانطبعت على صفحة قلبه صور التعذيب الذى جرح به الوطن فى صميم أبنائه فأبى أن يحس بغير هذه الصورة عن عهد اسماعيل .

ما جدوى الاوبرا التى بناها وطريق الهرم الذى أمر برصفه فى بضعة شهور . ابتغاء شهرة كاذبه . ومجد مزيف وسمعة أساسها الفجور والشهوات والأرجاس .

أما هذه المآسى الشنيعة التى ارتكبها فى حق الوطن بل فى حق الإنسانية جمعاء لأن مايرتكب ضد كائن بشرى مهما كان ، هو ضد الجنس البشرى بأسره . وستبقى ذكراه وصمة فى جبينه ومن ولاه من كتاب وصحفيين .

غلى مرجل غضبه واحتدم ثورة وغيظاً ضد هذا الماجن العظيم . والحاكم الذى بلا قلب ولا عقل وكتب هذه الصفحات التى يتحدث فيها بصراحة عن ظلم اسماعيل وأثناء كتابته لها فى صحيفة الطائف ومرض وكاد أن يمتنع عن الذهاب لدار الجريدة ولكنه لم يمتنع عن موالاته الكتابة عن ظلم اسماعيلى وقال « إن فيها شفاء له » .

وأن هذا التعبير مهما بلغ من العنف ، وقد أثار كثيراً من الكتاب عليه إنما هى ثورة مكظوم وأنه حاده من نفس حساسه شهدت ورأت ظلم الظالمين ولم تجد من يقف لدره هذا الظلم ولم تسمع رجلا شجاعا يقول بملء فمه ويجرؤ لمواجهة الظالم ويقول له . . (قف عند حدك لقد ظلمت الناس) .

وقد نشر عبد الله النديم فى مجلة الطائف الصادرة فى ٦ / ٥ / ٨٨٢ مقالا عنوانه (الفصل الثالث فى سلب الأملاك) جاءفيه : كان يتلذذ بأنين المظلومين وحنينهم وتضرعهم وتأوهم ، وتضجرهم ويبتهج بتمثيل ذلك وتصور وقوعه فى المستقبل ،

فبث أعوانه أهل السوء فى الجهات يتخيرون له الأراضى الجيدة التربة الخصبة الطينة، القريبة من المياه الوافرة المحاصيل ، فانتشروا فى الأنحاء تحت اسم العمال المأمورين وهم اللصوص السارقون من كل صخرى الفؤاد ، ردىء المنبت فانتقوا له خير البقاع فى أفضل المواقع ، وكلما أنبأه أحدهم بشىء من ذلك طلب إليه أهل البلد التابعة له الأرض ، وألزمهم بالبيع له قهراً ، على شرط أن يقولوا طوعا فان لم يفوهوا بها اختياراً ، اكرهوا عليها ثم يجىء بالمشايخ أهل البلد وجيرته ، ويحضروا لدى القاضى لأداء الشهادة بالمبايعة وإسقاط المنفعة ، على مبلغ معلوم من النقود لا يساوى معشار القيمة الحقيقية ويسجل ذلك فى المحكمة الشرعية على أنهم قبضوا الثمن — فكان الفدان الذى يساوى سبعين جنيهاً أو ثمانين يأخذه من أربابه بعشرة أو ثمانية جنيهات بالرغم عنهم ثم لا يسلم إليهم النقود بل ينظر فى شأنهم فإن كان عليهم متأخرات من الأموال والمقابلة ، أو أى نوع من أنواع الضرائب أقيم ما لهم من الثمن فيما عليهم من المتأخر وذهبت الأراضى من أيديهم بدون عوض فإن لم يكونوا كذلك أعطيت لهم الأراضى (أى التى أخذت منهم) بالإيجار فى السنة التى انتقل فيها الملك فانه كان يجرى المبايعة بعد أن يخدم

الأرض وتزرع ويترعرع فيها النبات ويقرب من يده الصلاح ، والناس فى حاجة إلى مازرعوه ، لتحصيل قوتهم منه فيمنحهم أخذ مزروعاتهم التى زرعوها فى ملكهم على أن يؤدوا له الإيجار فى تلك السنة بحيث يساوى قيمة الإجارة مبلغ الثمن فيقام له الإيجار فى الثمن ويخرجون من ملكهم كأن لم يكونوا مالكيه ! !

هكذا كان يفعل فى جميع الجهات التى حدد فيها ملكا فى الأراضى الزراعية . لآل بيته ،ولقد فعل فى أرض الشباسات ، وقوته والبكدوش وسخا وقلين ، وما والاها من البلاد فعلا وحشياً ، وهو أنه بعد مانهبها من أصحابها قلب من أراضى القمح وهو متهيء لإخراج السنابل ما أراد أن يزرعه قطناً وأجر الباقى لأربابه كل فدان ٦ جنيه وخصم بقية الثمن فيما كان عليهم من أموال تلك السنة ، وقس على ذلك أراضى الساقية وكفر البطيخ وكفر الحمام وهيا وأبى كبير والقرشية وتل فدمين ومشتهر وبردين وغيرها من الأراضى كأراضى الوجه القبلى التى اغتصبها من ملاكها ثم أعدمهم فى زراعتها بلاأجرة .

ومثل ذلك كان يعمل اسماعيل فى العقارات التى يريد أن يمتلكها لينشىء فيها عمارات وسرايات كما فعل فى جزيرة العبيد المجاورة لقصر النيل (الجزيرة) وغيرها من الأماكن حتى صار له بطريق الملك فى الديار المصرية مالم يكن لسلطان قبله فضلا عن أمير كما يعلم من الاطلاع على سجلات الأملاك التى امتلكها ، وآل إليه مليون فدان وكسور من أجود الأراضى وأخصبها .

ثم ذكر النديم طريقة جهنمية أخرى من الطرق التى كان يستعملها موظفو اسماعيل فى نهب الأملاك وسلبها : —

وكان معه قوم من اللاثذين المزينين لهسوء عمله ، المقربون من ساحته وهم كثير من سفلة الاغراب وقليل من أدنياء المواطنين .

فلو وقفوه عند حده ما تعدى ولكنهم مالوا لما مال إليه ، من النهب والسلب فكانوا يتصرفون فى الامة ، مثل تصرفه ، فمن صار منهم مديرا أو مأموراً أو مفتشاً أو كاتباً أو حاسبا أو موظفا بأى وظيفة ، وجه نظره إلى ما بأيدى الناس ، وأعمل الفكرة فى الاحتيال لسلب مافى ملكهم الشرعى

وأقرب الطرق القويمة الموصلة وضع سيف القهر فى الاهالى ، إما بتكليفهم بأداء ما لم يكن عليهم من الضرائب والرسوم فى غير وقتها ، أو باختراع أعمال تضطرهم على القيام بها لتكون وسيلة لاستعمال وسائل الاذلال والتضييق ، حتى يحتج الاهالى إلى مفارقة أوطانهم والتخلى عن أملاكهم ، وتقديمها إلى حضرته بزهيد الثمن ودنىء القيمة .

ولقد كنت ترى الرجل منهم يتولى الوظيفة وهو فقير مسترق الضر ، وحقير لا يأتى تحت شعاع النظر ، ثم لا يلبث أشهراً إلا وقد صار ثريا غنيا ، يسرف فى النفقات يمينا وشمالا ، ويتوسع فى الاملاك ولا تمر عليه سنة ، إلا وقد تجاوزت أطيانه عقد الالوف . وهكذا أصبح السفلة من حواشى اسماعيل الذين استعملهم فى أغراضه السيئة ، مستولين على غالب أراضى القطر بلا حق شرعى ، ولا قانون مرعى ، وباتوا اسادة بعد أن كانوا عبيداً وانعكس الامر على الاهالى فأمسى الغنى فقيرا والعزيز ذليلا والرفيع وضيعا .

ولا تنسى ما أصيب به كثير من الملاك فى أطراف القاهرة ، عند انتزاع أملاكهم إذ خرجوا من أماكنهم مكرهين . قبل أن يجدوا لهم مسكنا يأوون إليه . فأقاموا أياما بل أسابيع فى جوانب الطرق والجسور مع نسائهم وأبنائهم . وأثاث بيوتهم على حال ينفطر لها الجماد ! !

الفصل السابع

فى سلب الأملاك من الملاك

فى السخرة واستخدام الأبدان بلا شكر ولا أجرة

قدمنا أن ما سلبه إسماعيل من الأراضى الزراعية يزيد على مليون فدان — وما استولى عليه أعوانه وحاشيته لا ينقص عن ½ مليون فدان . فهذا عبارة ربع زمام القطر المصرى بل أزيد وهو يحتاج إلى أعمال زراعية من حرث وسق وزرع وتنقيه و حصد وجنى وحمل ونقل وحفر ترع وغير ذلك من الأعمال .

والمالكون لهذا المقدار العظيم المحتاج إلى هاته الأعمال الكثيرة هم الأمراء والوزراء ومن لهم نسبة إلى رئيس الحكومة ،

وهؤلاء عادة مترفعون عن مباشرة هذه الأعمال بأنفسهم ، غير قادرين على القيام بها ولو كانوا من الفلاحين ، فإن عددهم قليل جدا ـ فلا بد من استعمال الأهالى فى خدمة هذه المزارع للشاسعة ، والعمارات الهائلة التى كانوا يريدون إنشاءها، بعد أن تؤخذ مصاريفها من ثمرات كد الأهالى، وتستحضر لوازمها ، من نتائج كسبهم وتمزج موادها بمواد قلوبهم .

وأن إسماعيل باشا (العادل الرحيم على زعم أحبائه ، الذين يصعدون الأنفاس حسرة على دوام السلب والنهب) سخر الفلاحين فى مزارعه على وجه فظيع تقشعر الأبدان من سماعه ، فضلا عن مشاهدته .

إذ كان عماله يسوقون الولد والوالد ، لا يفرقون بين الأنثى والذكر ، إلى الاعمال يحفرون الترع ويطهرون المساقى ، ويردمون الجسور الخاصة ، بزراعتهم فى جدة القيظ فى زمن الصيف وشدة البرد فى فصل الشتاء ، من غير

مراعاة ما يلزم لوقايتهم من حر الشمس وحفظ أبدانهم من قارس البرد ، فيصلون الليل بالنهار ، والنهار بالليل ، لا يفترون عن العمل والقائمون عليهم لا يكتفون بتشغيلهم ، ولا يرون لهم أن يتركوهم للتعب والنصب يفعلان بأبدانهم ما شاء ، يسومونهم سوم العذاب بالضرب والجلد والشتم والسب ، حتى يضطر الفلاح المسكين بتخليص نفسه ، أو ولده أو بنته من غوائلهم بدفع مبلغ من النقود ، ليكفوا عن الضرب ويكتفوا بالعمل .

ثم أن لوازم العمل من الفؤوس والمقاطف والمساحى ونحو ذلك كله ، على حساب الفلاح وكذلك زادهم ورواحلتهم وجميع ما يلزمهم من مأكل هو من مال الشغال ، ينفقه على نفسه ليشتغل فى زراعة إسماعيل باشا وأعوانه ـ ولا تدرى أى شريعة توجب هذه الإهانات !!

فإذا جاء إبان جنى القطن أو تنقية الأرز وحصاده ، أشعلت النيران فى القرى واشتغلت الكرابيج ، لجمع الأطفال والفتيان والبنات لهذا العمل بلا عدد مقدر ، مع تكليفهم بحمل أزوادهم من بيوتهم وكان الطفل أو الرجل إذا ذهب إلى محل العمل يحرص على استصحاب مبلغ من النقود لا لينفقه فى منفعة نفسه بل ليدفعه إلى الخولى أو الناظر ليرفع عنه صوت العذاب ، أو ليأمر السائق بالرفق فى سوقه ؛ فإن كان الزمان شتاءا ولا بد من المبيت فلم يكن لهم أماكن يأوون إليها بل كانوا ينامون تحت السماء ليس بينهم وبينها حجاب ، وسيول الأمطار تصب على رؤوسهم والبرد والجليد ؛ يعملان فى فى أبدانهم ما تعمله السياط ؛ ولا يستطيعون الهرب فإن الحرس لا تغفل عنهم ولو هربوا لتسبقتهم الأوامر إلى بلادهم ، فجلبوا ثانية .ثم عوقبوا على على الهرب بما يزهق الارواح .

(ثم يقول النديم عن حادثه شاهدها شخصيا) .

ولقد رأيت ألوفا من الناس يشتغلون فى زراعة (ديروط) فى شدة

البرد ، وهم يخوضون فى المياه والأوحال ، فإذا جاء وقت الغذاء ألزموا بالأكل وقوفا ، ولم يؤذن لهم بالجلوس أو الاستراحة زمن الأكل بل يتناول أحدهم الخبز اليابس وهو حامل لحزم الأرز - فيأكل وهو آت وذاهب فإذا جن عليهم الليل ادخلوا فى ساحة واسعة ، يحيط بها جدران بلا سقف وقبل طلوع الفجر ، يخرجون فزعين مرعوبين من نداء الشيخ الخولى ، أو الفاجر المأمور وكذلك رأيت الوفا من المديرات فى عملية رياح الخطاطبة ، أيام كان البرنس حسين باشا مفتشاً للوجه البحرى يحملون الطين على رءوسهم ، وأجسامهم ملطخة به لا يظهر منها موضع إلا موضع كرباج المأمور ، أو شمروخ الخولى . وعندما كان يمر على العملية يخرج قواص على حصانه يعلن المديرين ، والمأمورين بأن المفتش سيمر ، فلا تسل عن اتباع المديرين إذ يقطعون الأغصان الغليظة من الاشجار ، وينزلون بها على أجسام الفلاحين العرايا فلا تسمع إلا بكاءا ونحيباً وصراخا ، وهو كلما مر على مدير ، ورآه الانفار تقع على الصخور وتغرق فى الاوحال وتضرب على الوجوه - قال المفتش (افرين افرين[1]) فيقول له (كل ده بنفسك يا سعادة المفتش) فما يمر ويرجع إلا وقد مات ثلاثون أو أربعون من الضرب والغرق فى الوحول ، ورأيت طفلا يبلغ من العمر ثمانى أو تسع سنوات وقف على الجسر فى طريق الخيل يتفرج على المفتش فتناوله أحد الساقة من يده ، وألقاه فى الترعة فمات لوقته فتبسم المفتش لذاك السائق استحساناً لفعله .

وعلى هذا المنوال كانت الافعال فى مزارع إسماعيل باشا ، واتباعه ورجال حكومته من خادم الحريم إلى وزير جنابه ، وكانت البلاد مقسمة بين أولئك الذوات والاغوات والحريم فكل بلد من بلاد زراعاتهم المعروفة

---

(١) اصطلاح تركى معناه حسن .

(بجفالكهم) تخصص لها بلدا أو بلدين أو ثلاثة على حسب اللزوم من البلاد الأخرى ؛ فإذا جاء وقت الاعمال (وكانت لا تنقطع) ينزل النظار والمأمورون على تلك البلاد ، فيطلبون منها ما يخطر ببالهم من العدد ؛ فإذا نطق أحدهم بأى عدد كأن نطقه كأمر سماوى لا يقبل تغييراً ولا تبديلا ، سواء كان من قبيل الممكن أو المحال اللهم إلا إذا بذل لهم المشايخ والفلاحون مبلغاً من النقود فإنه يقوم حينئذ مقام عدد الانفار المطلوبة .

ومما شاهدته (النديم عن نفسه) أن أحد عمد البلاد طلب منه ثلاثون نفرا وهم فوق طاقته فبعد التهديد والضرب لم يمكنهم أن يزيدوا على العشرين فلم يقبل منهم عذر حتى دفع المشايخ عشرة جنيهات للمأمور الذى كان يطلبهم ورأيت مثل ذلك فى جهات شتى من مديرية الغربية والبحيرة والمنوفية فى أراضى إسماعيل باشا وأمرائه وحاشيته .

فهذه الاعمال على مافيها من المشاق التى تنال الاهالى فى أبدانهم والنفقات التى تلم بأموالهم كانت موجبة لتعطيل جميع أشغالهم التى يحتاجون إليها فى خدمة أراضيهم حتى يتحصل منها ما يسددون به رمقهم ويؤدون ما عليهم من الضرائب الخارجة عن حد الطاقة إذ كان يساق الرجل مع ولده إلى السخرة ويترك زراعته محتاجة للسقى أو الحرث أو الحصد فيفوت عليه وقت الزراعة ويحدث ضرر كلى إذ لا يتحصل مما يزرع متأخراً عن وقته ما يكفى لحاجته وربما تلف المزروع إذا تأخر حصاده فيذهب تعبه هباء منثورا . وهذه الملايين من النفوس التى كانت تشتغل فى تلك المزارع كانت محرومة من أجرة العمل كما كانت معطلة عن اكتساب ما يقوم بها من طرق أخرى فكانوا كلا على أعناق الباقين من إخوانهم وثمرات اكتسابهم بأسرها عائدة إلى إسماعيل وأمرائه وحواشيه .

وكما نشأ عنها حرمانهم من ملاحظة أشغالهم الخاصة ، نشأ عنها أيضاً

عدم كفايتهم لوفاء الأعمال العمومية ، لحفر أمهات الترع وتطهيرها وأحكام الجسور وإبقاء لوازمها وما شابه ذلك ، فكانت المصالح العمومية عاطلة كما كانت الخصوصية باطلة ، إلا بالنسبة لإسماعيل باشا وأشياعه - فعم الاضمحلال والتلف جميع الجهات وكثر وقوع الغرق والشرق ، وأورث تراكم الأعمال من سنة إلى سنة عجز الأهالى عن القيام بها .

ومن توابع التسخير ، ما كان يكلف به الأهالى من الجمال والحمير وغيرها فى كل فصل من فصول السنة ، وغالبا ما كانت هذه الدواب تنفق من سوء معاملتها وتحميلها فى العمل فوق طاقتها مع عدم إطعامهم الطعام الكافى .

ولنكتفى بهذا القدر المجمل فى شأن التسخير ونقول إن حكومة إسماعيل على سعتها وتباعد أطرافها ، كانت كليمان أعد للمذنبين ومحبس جزاء هىء لأرباب الجرائم والخاطئين ، ولو أن سائحا جويا صعد فى درجات الهواء إلى حد يرى ويسمع من تحته أهالى البلاد ، لرأى أمة تتقلب على جمر العذاب ، على غاية من الاختلاط والاختباط ولسمع ضجة عامة وصيحة صاخبة ، تزعج السامع ، وتستفز الهاجع . وتفتت قلب من أودع ذرة من الإحساس الإنسانى وما هى إلا مزيج نفثات تقذف بها الصدور الموقرة ، والقلوب المكتئبة فتصعد بها الأنفاس المحترقة .

(وفى هذه الفقرات يتنبأ النديم عن اختراع الطيران ويتخيل ما يراه المشاهد فى أثناء تحليقه بطائرته فى الجو) .

* * *

الطائف فى ١٨٨٢/٤/٢٩

الضرائب وطرق تحصيلها

كانت طرق تحصيل الضرائب وحشية بربرية تقشعر منها الأبدان ، وتذوب من هولها الأكباد . ألا وهى طريقة الضرب والإذلال والإهانة

والإيلام ، فكنت ترى المدير أو الوكيل إذا نزل ببلدة لتحصيل ما عليها ، طلب أهاليها واحداً بعد واحد ، فمن دفع ماعليه لجانب الحكومة منضما إلى ماعليه لشخص الحاكم نجا من أليم العذاب ، وإنما يشتم أو يهان أمام أهل البلدة قياماً بحق الأمارة واظهاراً لسطوة الحاكم . ومن قصرت يده عن واحد منهما ألقاه الأعوان على الأرض ، وقطعوا أهابه بالسياط والكرابيج ، فتارة يفضى عليه (يموت) حالة الضرب أو بعده بقليل فيستريح من الحياة ، وتارة يبقى حياً فيودع فى ظلمات السجون بعد الهجوم على منزله وتفتيشه ، وأخذ مافيه من ثمرات الزراعة وغذاء أبنائه .

ولقد رأيت امرأة فر زوجها من الحبس ببلدة (نجير) من مديرية الدقهلية فطلبت أمام وكيل المديرية هناك وضربت على كفيها ، ثمانين كرباج ثم ألقيت على الأرض وضربت على صدرها ثلاثين كرباجا ، ثم سئلت عن زوجها فقالت لا علم لى به ، فأمر الحاكم بضربها على . . . . وبعد قليل من الزمان ماتت فى السجن . فسألت الصراف عن المطلوب من زوجها ، فقال ٤٥ قرشا ـ ورأيت رجلا من القباب من أهل البحر الصغير ، حلق رأسه وضرب عليه عشرين كرباجا على ٢٠ قرشاً ـ ورأيت امرأة من الويلى من القليوبية غرس فيها السل بين الظفر واللحم ، لتخبر عن زوجها ، وكم وكم من الأعمال القبيحة ! . . . .

وقد كان الحاكم يتحد مع شيخ البلد أحياناً ، على أن أحد التجار يدفع ما على البلد فى وقت واحد ، ويحصله أبان الحصاد وجنى القطن ، ليستولى على جميع ماينتج من زراعة الفلاح المسكين ، ويقدر ثمن القنطار من القطن بمبلغ دنى على أن يكون للشيخ حصة وللمأمور حصة من ربح التاجر ، وحيث صار شيخ البلد شريكا للتاجر والحاكم ، فإنه يقف عند الميزان أو المكيال ويرمز إلى الوزان والكيال ، فينقص من المقادير ليكون الزائد ربحاً له ،

وعند جمع القطن أو درس الحصيد ، يقيم الشيخ رقباء فلا يستطيع الفلاح بيع شيء منه مع احتياجه إليه حتى يوفى المطلوب .

وكانت هذه المظالم على جميع الأهلين ، إلا من كان له انتماء إلى إسماعيل باشا من الأغنياء والذوات والأمراء .

وقد قدم السيد حسن موسى العقاد عريضة بخصوص ضريبة المقابلة عندما أباحت الوزارة المختلطة الكلام للأهالى ، فإنه قوبل عليها بالنفى إلى سنار بلا ذنب ولا جنايه (وكل ما أقوله لا أخشى فيه نكيراً ، فأصغر رجل فى الأمة يمكنه أن يقيم عليه البراهين من نفسه وجاره ووطنه ، وأنى لم استقصى الشنائع التى رآها الناس فى زمن التحصيل ، وإنما أثبت النذر اليسير ليدل على مابعده ، فقد كانت أيام اسماعيل أشنى من أيام المماليك . وأحكامه أقبح من أحكام فرعون مع بنى إسرائيل ، وأى عضو من أعضاء المصريين لايحس بهذه الآلام ؟ وقد كانوا بالأمس يقولون ـ ربنا اصرف عنا العذاب انا مؤمنون .

فاضمحل بالطرق السالفة من طرق الإرهاق والظلم ، حال كثير من أهل الغربية والمنوفية والدقهلية ، واستولى تجار الأفرنج على أراضيهم لتراكم الديون والفدائد الفاحشة .

ولهذا تحولت أثقال ضرائب الأوربيين والذوات إلى ضرائب يؤدونها الفلاحون عنهم .

ولسبب اختلال رابطة المالية بالنسبة إلى المديريات والصيارفة ، وعدم معرفة الفلاح ماهو مطلوب منه ، وإطلاق الحرية للمأمورين والمديرين . فشا الظلم وامتدت أيدى الطامعين إلى أموال الناس ، فكثر النهب والسلب وعمت الرشوة ، وصار داؤها مرضاً وبائياً ـ قلما يخلوا منه مستخدم ، وتفتحت طرق الاختلاس للصيارفه الذين بيدهم دفاتر التحصيل . . .

* * *

وهكذا كتب النديم هذه الفصول المسهبة عن ظلم اسماعيل ، والتى يمكن أن تعد أعظم سبق لصحفى مصرى ، فى نقده عائلة محمد على ، وعرض مظالمها مما كان له أثره فى أخلاق الشعب وتفكيره . وليس هناك مجال لشرح جناية اسماعيل البلاد ، وعلى مستقبل الأجيال التى جاءت بعد ذلك ، بعد هذه البيانات المتقدمة التى كتبها النديم منذ قرن من الزمان . واتهمه من جاء بعده من الكتاب أنه جرح شخصيات البلاد الكبيرة . وشوه كتابته بذمها وسبها . ولعل جيلنا ينصف ذلك الكاتب المجيد . على أمانته الصحفية وشجاعته فى النقد . والتصريح بالحقائق المؤيدة بالأدلة الدامغة والبراهين الثابتة .

منتخبات من بعض المقالات التى جاءت بالأستاذ

(حرب الأقلام بجيوش الأوهام [١])

فلو ترك الشرقيون والأوربيون ، لتمتع الفريقان بثمرة المخالطة ، وتمكنت منهما دواعى المحبة ، وتأكدت روابط الألفة بالإشتراك فى المعاملة والمساكنة ، وما أوغر الصدور وأفسد النيات إلا هؤلاء الكتاب الذين قبحوا الشرقى للغربى وافتروا عليه بالأكاذيب وملؤوا بها جرائدهم وكتبهم ونشروها بين العالمين الشرقى والغربى ، فظن الغربى أن الشرقى بهيم لا يصلح لملك ، ولا يليق إلا للاستعباد والقهر وظن الشرقى أن الغربى عدوه الألد الساعى فى سلب سلطته ، ونهب ثروته وإعدام دينه ، واستعباد إخوانه فوقعت النفرة بهذه المفتريات .

وختم المقال بقوله :

فنحذر إخواننا الشرقيين ، من مقاربة المضلين ومخالطتهم ، ونطلب منهم أن يقرأوا عواقب ماهم فيه من الشدة ، وينظروا إلى المستقبل بعين البصراء الذين لاتزعزعهم العواصف ولاتستميلهم الأباطيل ، وأن يجعلوا معاملة الأجنبى بالمعروف ومخالطته بالمثل ، نصب أعينهم ، مع التزام الهدوء والسكون وعدم الميل إلى الأوهام وما ينصبه الأعداء من إشراك الهيجان والاضطراب فإنهم أن لزموا هذه الحالة ، قاوموا كل تهديد ووعيد وأظهروا لأوربا أنهم بقصدهم وحسن تصرفهم فى الأمور . قد قاوموا بقوة مدنيتهم (حرب الأقلام بجيوش الأوهام) .

فى هذا المقال يدافع عن الشرق ضد الأوهام ـ أوهام الغرب ـ واستنهاض الشرق نفسه ليستيقظ من نومه . ويلحق بالغرب الذى سبقه أشواطاً بعيدة فى الحضارة والتقدم . ثم يجنح إلى السلم ويدعو إلى المحبة والوئام .

---

(١) العدد ٣٤ السنة الأولى ١١/٤/١٨٩٣

لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا :

افتتح هذه المقالة بقوله — هى كلمة أوربا التى ترددها على أسماع الشرقيين كلما فعلت فعلا ، يحملها عليه الاستعمار الملكى ، أوالانتشار الدينى، وقد حكمت التآليف بين القوتين الدينية والملكية ، فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد — وقد أضاف كل ملك أوربى إلى عنوان الملك، حامى الدين فيقول فى مخاطباته ملك أو امبراطور كذا وحامى الدين المسيحى أو بعبارة أشد وقعاً فى النفوس من هذه ، ليعلم الأمم أنه القابض على زمام السياسة والدين ، فيؤيد رجال السياسة بتنفيذ مايرونه من لوازم تأييد الملك وأتباعه ويساعد رجال الدين بما يبعث فيهم الغيرة على بثه والدعوة إليه ، فترى رجال القوتين ماشين على نسق واحد كل فيما فوض إليه ، لا تفتر لهم همة ، ولا ترقد لهم عين عن وظائفهم التى فيها حياة الدين والملك . وزيادة شرف الأمم ، والأمم لكونهم أدركوا ما قصده الملوك ورجال السياسة ، وخدمة الدين ، اندفعوا معهم اندفاع السيل فى المنحدرات ، فعقدوا الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية والتجارية والزراعية والسياسية ، وأخذ كل فريق فى إحسان ما كلف به نفسه ، وأوجبه عليه مجاراة جاره فى الملك ، ومباراة نظيره فى العلم أو العمل ومسابقة غيره ممن قصدوا قصده ، فاشتغلوا بما اشتغل به ، وقد بلغوا القصد فى بلادهم وخرجوا من بلادهم محمولين على قوتى الدين والملك سائرين على نور العلم والصناعة فدخلوا الأقطار الشرقية سائحين ومتجرين واستوطنوها مراقبين ومتغلبين وجرائدهم الكثيرة العدد برزت تتسابق فى ميادين الإنشاء بمواضيع مبتكرة ، ومقالات مطولة . وعبارات مرتبة ، فأصبحت ناقلة للأخبار ناشرة للآداب ، معلمة للعلوم مؤيدة للمبادىء حاثة على المقاصد منشطة للهمم ، مرشدة للأمم ، منبهة على الأغاليط ، محذرة من التقاعد والتكاسل والغفلة ووثبة الجار أو معاكسة المتاخم ،

ناشرة للفضائل ، مؤرخة لرجال الفضل والعمل ، حافظة لسير الملوك داعية أفراد الأمم إلى ما فيه خير البلاد وتأييد الدين خادعة للشرقيين لاعبة بأفكار رجالهم ، خاتلة لعظمائهم ، مقبحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة ، ومنادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل ، ولا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه ، ولا مجد لمن لم ينتم إليه ، ولا فضل لمن لا يتعلم فيه ، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ، ويتعبد بعبادته ويتقيد بعادته .

هذه كليات تحتاج لبيان جزئياتها التى تحتاج لبرهان بعد ظهورها للعيان. قالت أوربا أنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس ، وأنكم فى حاجة إلى مصنوعاتنا ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية، وبذا تمكنت من إدخال مصنوعاتها فى الشرق لتحول الثروة إليها فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون ، وحجرت على مالا بد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها مما يصنع فى الهند والصين والعجم والأناضول وغيره ، إنما ينفق ويباع على يد الأوربى ، كما يباع وينفق مصنوع بلاده ، فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوربا ويعظمون ثروتها ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية فلا حظ لهم فى الوجود ولا رغبة لهم فى الملك فانهم كأنهم أمام أوربا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم عن مجاراة أهلها ، ومما زادهم بعداً عن الصناعة وثمراتها ، وجود دخلاء أجراء يزعمون أنهم نصحاء ، يثبطون الهمم ويرمونهم بالضعف ويوهمونهم بعدم صلاح بلادهم للصناعة ويغرونهم بتعذر ذلك لتعذر المعدات والآلات وهم يعلمون أن كثيراً من الممالك التى لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير ، وأحيت صناعتها الوطنية وحتمت على أهلها شراءها

لرواج صانعيها ، ومنعت دخول مصنوع الغير حفظاً لثروة أهلها فهم بصرفهم الهمم بهذه الترهات يريدون بقاء الشرق فى قبضة الغربى إحتياجاً إليه وترك الشرق ميداناً لمسابقة رجال أوربا ، فلا يجدون مصنوعا يعطل عليهم ولا معرضاً من صناعتهم فتبور ، وضعفاء العقول يغترون بخداع هذا الدخيل ويظنون أنه من المخلصين فلا يتحركون لعمل من الأعمال لوقوعهم فى اليأس والقنوط بالمفتريات ورجال أوربا تتعجب من تقاعدهم وتقول لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا . . الخ .

وهكذا يسترسل النديم فى الكتابة فى هذا المقال الذى يعد من عيون مقالاته بمجلة الأستاذ حتى تزيد كلمه على ستة آلاف كلمة وفيها أقوى دعوة لاستنهاض الشرق وتفنيد مزاعم الأوربيين فى تبرير الاستعمار ، ثم دافع فيها عن الدولة العثمانية بوصفها زعيمة العالم الإسلامى ، ثم حذر من حيل الأوربيين الذين يفدون إلى الشرق بحجة التعليم والإصلاح وتعليم الأهلين فن الحكم ، وهم بعد يعملون لتحقيق مآربهم الخاصة — ثم عاب النديم ثقة المصريين ومبالغتهم فى تقدير الاجانب والاعتماد عليهم ، وتفضيلهم إياهم عن إخوانهم فى الوطن ثم دعوة المصريين إلى الإلتفاف حول عرش الخديو عباس الثانى فيقول « مضت والله أيام التقاعد والاغترار بالترهات وصرنا بين يدى خديو يريد أن نجارى الإنجليز فى الاعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية ونحن عن إرادته السنية ساهون ويجب أن نتقدم فى التجارة والصناعة والمعارف ونحفظ عرشه المصرى بالمصريين ولكننا عن نظره العالى عامون » .

ثم يحذر المصريين من الإنقسام ويشيد بالإتحاد الخالد بين الاقباط والمسلمين .

حقا كانت مقالاته بالاستاذ صرخة مدوية أخرى حاول بها إيقاظ

مصر كى تنتبه لما يحوق بها من أخطار كما عالج فيها موضوعات إجتماعية وسياسية وخلقية لم تخطر على بال صحفى من قبل .

وكفاه فخراً أن يكون أول وطنى دعا إلى أن مصر يجب أن تكون للمصريين لا لتركيا ولا للإنجليز ، فكانت فكرته أعمق فكرة وطنية لا تصدر إلا عن قلب عامر بحب بلاده ولا سيما فى ذلك الزمان الذى لم تفكر فيه أية دولة عربية فى هذا المعنى ، وإنما كانت الفكرة الوطنية عندها عاطفة غامضة تربط مصيرها بمصير تركيا .

آراؤه فى السياسة الصحفية :

ولقد كتب النديم رداً على سؤال أحد القراء فى صفحة ٩٠٦ من مجلة الاستاذ عن تعرض المشتركين فى مجلة معينة إلى اضطهاد الحكومة ،أوغضبها ويعنى بذلك الاستاذ — جاء فيه :

(إن حرية الصحافة لا غبار عليها ، ولا ترضى الحكومة الخديوية بحال من الاحوال أن تقيد حرية الاقلام أو تضطهد إنساناً ما لانه يقرأ مجلة معينة — فحرية القراء لا قيد عليها ولا سيما وأن القارىء له مطلق الحرية فى انتخاب الجريدة التى تروق له فاذا كانت تعمل لمصلحة بلاده فلا بد أن يشجعها ، وكان الحكام السابقون فى عهد الظلم يلزمون الناس حتى الاميين بقراءة جرائد معينة ، يعملون على تشجيعها لمصلحة ما)

ثم تطرق الحديث بعد ذلك عن المقاييس التى تقاس بها الجرائد وأيها أجدر بالتشجيع والقراءة ، فحدد الصفات الخاصة بالصحافة الوطنية الصادقة وهى :

١ ـ الصحافة الرشيدة هى التى تخدم الوطن وأمير البلاد وتنتصر لزعماء الوطن وتذكر أعمالهم .

٢ - تنتقد نقداً نزيهاً ، وترشد إلى الإصلاح ، وتقترح الحلول الناجعة للمشاكل المختلفة .

٣ - الدعوى للإتحاد بين طوائف الوطن جميعاً وحقوق كل طائفة على حدة ومجانبة التحريض للفتن والاضطرابات .

أما الصحف التي ينهى عن قراءتها فهى :

١ - التي تقلب الحقائق وتطعن فى الأفراد دون حق وتهجن أعمال الوطنيين .

٢ - التي تتمدح بالاجنبي الذى يطعن البلاد ويعمل لضررها .

٣ - التي تدعو للاحتلال وتبغض الناس فى أميرهم وحكامهم .

ويدعو إلى تحريم قراءتها ومساعدة أصحابها ثم يقول عن محررها (هذا الذى يعصى الله جهاراً ويرتكب الإثم نهاراً ، هذا الذى جهل حقوق الوطنية وطار مع الاكاذيب والترهات من غير بحث فى العواقب ، هذا الذى باع مجده وشرفه بكلمة مدح ، أو عبارة ثناء ، وأى وطنى صادق ، يساعد عدو وطنه ! الذى يعمل على إفساد الوطنيين ويحسن القبيح فى أعينهم ؟ .

تشجيعه الصحف وقراءتها :

ولقد شجع النديم الشعب على قراءة المجلات والجرائد المختلفة ، لانها مورد لا ينضب للثقافة الشعبية ، وتوسيع أفقه ، وشحذ ملكاته الادبية ، وتقوية لغته ، وتوسيع مداركه ومعلوماته واعتبر النديم أن الجرائد هى مدارس الافكار وكتب عن ذلك فى مقالته بالتنكيت فى ١٨٨١/٦/١٩ بعنوان (جرايد الاخبار) .

ثم كتب فى عدد الاستاذ يوم ١٨٩٣/٢/٢٨ منوهاً بالمجلات الحديثة الناشئة ، مظهراً إغتباطه بكثرة الادباء والكتاب الذين ينشئون الصحف والمجلات — ويختص بثنائه الشاب الاديب مصطفى افندى كامل ، لإنشائه مجلة المدرسة ، وهى أول مجلة مدرسية تصدر فى ذلك الوقت .

الباب الرابع

النشاط السياسي والقومي

١ — دورة الإيجابي في الثورة العرابية

٢ — الوفاء لمبادىء الثورة بعد هزيمة رجالها

٣ — المبادىء الأساسية التي نادى بها

٤ — النديم أستاذ الزعيم الشاب مصطفى كامل

دور النديم الايجابي فى الثورة العرابية

ذكرنا آنفاً أن النديم من تلاميذ جمال الدين الأفغانى، الذين لازموه طيلة فترة وجوده فى الديار المصرية، ومن الذين شغفوا برسالته، وأتموا بامامته، وتحمسوا لنشر مبادئه، لذلك كانت جرائده، منبرا لمبادىء الحرية والكرامة والعزه القومية، ومدرسة لرفع مستوى الشعب اجتماعياً وأخلاقياً وثقافياً. وقبل حادث ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ كانت كتاباته أكثرها فى عرض المشاكل والأدواء الاجتماعية التى تنخر فى بناء الوطن وتعطل مهمة نهوضه التحررى، ولما توقفت الصلة بينه وبين رجال الجيش، انضم إلى صفوفهم بكل إمكانياته واتخذه الزعيم أحمد عرابى مستشاراً مدنياً يستنير برأيه فى كثير من الأمور، وقويت الحركة الوطنية بانضمامه إليها[١]، ورأى الضباط فى قلبه ولسانه وإيمانه بوطنه أكبر عضد لهم وأصبح النديم أول عضو مدنى ينضم إلى التشكيل العسكرى الثورى، وهو فى دور التكوين وعلى أول طريق الكفاح ثم أصبح بعد ذلك خطيبها الرسمى وداعيتها الأكبر والمتحدث بلسانها (الثورة العرابية).

ولم يشأ أن يكون هو الداعية وحده إلى كسر المذلة والاستعباد، بل أراد أن يكون فى كل بلد على الأقل داعية يخطب الناس كل اسبوع فى الإصلاح السياسى والاجتماعى، فكتب مقالا قوياً فى قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ الإسلام، وكيف كانت تثير النفوس فتدفعها إلى الحرية، وجعل من أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة فيه واقتصارها على خطب المساجد وهى خطب تقليدية فى عبارات دينية محفوظة.

---

(١) تراجم أعيان القرن التاسع عشر ص ١٧

ولم يكن النديم من الغفلة بحيث يجهل سياسة رياض فى عقاب من يجترىء على نقد حكمه فالنفي إلى السودان أخف أنواع عقوباته ، وكان يدرك طرق الأتراك - وهم أغلب طبقة الرأسماليين ، فى تأديب من ينال منهم - وخاصة إذا كان من الفلاحين (المصريين) فالاغتيال بالخنق أو الخازوق أو الطعن بالخناجر أو الإغراق أو دس السم ، من الوسائل المعروفة عنهم فى الانتقام ممن يمس قدسيتهم .

ومع ذلك فقد استمر فى الهجوم عليهم جميعاً ؟ لم يبال بشىء ولعله كان قد وصل إلى مرحلة التصميم فى أن يقدم نفسه قرباناً لوطنه على مذبح الجهاد فى سبيله ، وهى مرحلة لا يصل إليها إلا ذوو العزم ممن وصلوا إلى مرتبة البطولة الوطنية .

ولما وصلت أخبار النديم إلى رياض باشا ، وعلم أنه اتصل بقادة الثورة من العسكريين ودعوته لهم فى البلاد طولا وعرضا ، أصدر قراراً بنفيه من البلاد ، وكان محمود سامى البارودى وزير الحربية « مندوباً سرياً للمنظمة فى مجلس الوزراء ، ينذرهم بكل ما يدبر ضدهم فى الخفاء فأنبأهم بالأمر .

ولما عرض قرار رياض على الخديو فى الديوان للتصديق عليه ، تصدى له على فهمى قائد الحرس الخديوى وقال : إن نديماً منا نحن معسكر العسكريين ، وإن لم يحمل سلاح العسكرية ، ولئن أخذتموه بغتة من البلاد ، حافظنا عليه بالأرواح والأجناد ، وألغى القرار ، وأخفق رياض فى خطة انتقامه من النديم .

ولما أصبح عرابى « زعيم الأمة الوحيد وانضم إليه الزعماء السياسيون ، وتلاقت الأهداف ووحد أهالى البلاد كلمتهم مع كلمة الزعماء العسكريين ، وكونوا حزباً واحداً أطلق عليه الحزب الوطنى ، وأحس الخديو ورياض رئيس وزرائه والنفوذ الأجنبى خطر هذا الاتفاق بدأ كل منهم يفكر

فى طريق للخلاص من عرابى ورفاقه ، ليقضى على الحركة الوطنية التى أخذت تنتشر بين أبناء البلاد ولكن المؤامرات أخذت تكشف الواحدة تلو الأخرى . فكانت تزيد من غضب الشعب والجند معا .

وكان التطور الطبيعى للأمور أن تعلن المطالبه بالحياة الدستورية غير أن عرابى لم يكن ليطمئن إلى كثير من الزعماء السياسيين الذين انضموا إليه ، فقد كان أكثرهم من الطبقة الرأسمالية الحاكمة المعارضة لحرية اللصريين ، وإنما انضموا إليه ليتخذوا منه مخلب القط الذى تتحقق به أغراضهم وهى متباينة مختلفة ، فمنهم من يسعى لاستعادة نفوذة فى الريف ، ومنهم من يسعى لعودة الخديو المنفى ، وفريق آخر كانت فكرة الدستور فى نظره لا تتعدى تخليص السلطة من الخديو ورياض ووضعها فى أيديهم باعتبارهم من الفئة التركية الممتازة التى يجب أن تنفرد بالحكم ! ! !

أشار النديم على عرابى لكى يكون موقفه سليما أمام هذه التيارات ، أن يكون ممثلا للأمة بكامل هيئاتها وخاصة طبقة الفلاحين ، وأن يحصل على توكيل من الأمة بالمطالبة بحقوقها والتحدث باسمها ، ثم طبع منشورا بهذا المعنى وقام النديم بمهمة توزيع هذا المنشور فى البلاد وجمع التوقيعات عليه من الأهالى .

وعاد النديم إلى القاهرة وهو يحمل فى حقيبته العرائض موقعاً عليها من أعيان البلاد يؤيدون فيها عرابى ومطالبه ، واطلق على هذه العرائض « المحضر الوطنى » واتخذه عرابى دليلا على إنابة الأمة له[1].

وأقبلت إلى القاهرة وفود الشعب من كل جهة لمبايعة هذا الزعيم الفلاح الذى ظهر على مسرح السياسة فجأة ! ! وصدر نفسه للقيام بعملى بطولى لم يسبق لأحد أن قام به منذ قرون . . . وكان عرابى يستقبلهم فى بيته ، فيقف النديم فى كل وفد يخطب الخطب المثيرة ، وينثر اللآلىء من أشعاره الحماسية

---

(١) الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ص ٢٠٤ (مطبوع سنة ١٨٩٨) .

ويحض على الوحدة والتكاتف و نبذ الأضاليل فأثرت مقالته فى النفوس وشربتها القلوب .

وبعد أن اطمأن عرابى إلى أن الأمة قد استيقظت مشاعرها وأنابته عنها فى مطالبها ، زحف على رأس وحدات من آلايات الجيش فى مظاهرة عسكرية إلى ميدان عابدين فى ١٨٨١/٩/٩ .

وفى ١٨٨١/١٠/٩ كتب النديم فى مجلة التنكيت والتبكيت عن حركة الجيش المجيدة وذهابه لعابدين وقيامه بمظاهرته الشهيرة لتحقيق الكرامة القومية للشعب فى ١٨٨١/٩/٩ فى مقالة بعنوان « تاريخ مصر الفتاة أو زفاف الحرية » تكلم فيها عن ظلم أمراء عائلة محمد على ووقوع البلاد تحت طائلة المصائب التى جناها إسماعيل عليها من ديون وتدخل أجنبى ، وتعسف فى معاملة الأهالى ، ثم ظهور الجيش المصرى الباسل ومطالبته بحقوق هذا الشعب المظلوم . ثم تكلم بعد ذلك عن مظاهر الاحتفاء والتكريم التى أبداها الشعب فى توديعه زعيمه أحمد عرابى بمحطة القاهرة حين سفره على رأس فرقته بالشرقية ثم ينشر خطبة عرابى لجمهور المودعين ثم خطبته التى ألقاها بعده . . .

وتعد هذه المرحلة ، بدء ظهور النديم على مسرح الجهاد الثورى مع العرابيين جنبا إلى جنب فقد قام أحمد عرابى بقوة شخصيته يخاطب الشعب الذى أحبه وأخلص له لتفانيه ومطالبته بحقوق البلاد ، وقام عبد الله النديم بخطاباته النارية بتعبئة الجماهير التى كانت تحتشد فى كل مكان يذهب إليه عرابى وصحبته ، وقد لازمه فى رحلاته جميعاً وإلى جانب هذه البلاغة الخطابية كانت اللطائف بأسلوبها الثورى تشحذ الهمم وتؤدى واجب الصحافة الحرة فى المضمار الوطنى النزيه .

إن اضطلاع النديم بمهمة الكاتب والخطيب فى آن واحد إبان الثورة لما يثير التساؤل والإعجاب لأن وسيلتى القلم واللسان لم تقصر واحدة منها عن الأخرى .

ولقد اتصل أحمد عرابى بالنديم فى أكتوبر سنه ١٨٨١ وطلب منه — لما رآه من اتجاهه الحر ونزعته الثورية — تغيير اسم جريدة التنكيت والتبكيت إلى اسم آخر ووافق النديم بالطبع على هذه الدعوى الخالصة المخلصه من العرابيين .

وكتب عرابى لإدارة المطبوعات يقول : « لدخولنا فى عهد جديد وفوت زمن التنكيت والتبكيت اقتضى تعديل اسم جريدة « التنكيت والتبكيت » التهذيبية ، كما استقر عليه الرأى بالممارسة مع حضرة الفاضل عبد الله النديم أفندى محررها ومدير إدارتها باسم « لسان الأمة » وأن يكون موضوعها سياسياً تهذيباً للذب عن حقوق الأمة والمدافعة عن حقوق حكومتها التوفيقية فلذا اقتضى ترقيمه لسعادتكم الأمل اعتبارها ومعرفتها بهذا العنوان الشريف المشرف اعتباراً من عدها التاسع عشر أفندم ـ مير بياده ٤ ـ أحمد عرابى » .

ومنذ ذلك الحين اضطلع عبد الله النديم برسالته الخطيرة . فاشترك اشتراكا فعلياً فى الثورة العرابية بقلمه ولسانه وقد التزم ماقال . فلاقى أهوالا جسام واضطهد اضطهاداً شديداً من الاستعماريين وأذنابهم من حكام البلاد .

وتغير الرأى من حيث اسم الجريدة فصدرت بعنوان (الطائف) لأن عرابى كان متفائلا باسم « الطائف » .

كانت الطائف صحيفة الوقدة الثوريه الملتهبة . ظهرت فيها شخصية النديم الصحفى على ما أشد ما تكون قوة ومضاءاً عزيمة وبصيرة واعية لمجريات الحوادث . فقد بصر الشعب بما يقوم به الاستعمار وأذنابه من الصحفيين فى الداخل والخارج من حيل وفتن ومناورات لتشويه جلال الحركة الوطنية وعلى صفحات جريدته كشف مناوراتهم ودسائسهم بأسطر من نار .

وسطر النديم على صفحات الطائف ببيان قوى أخاذ ، الآدوار التى مرت

بها الثورة العرابية إلى أن اشتعلت نيران المعركة بين مصر وانجلترا فكانت منشوراً حربياً ثورياً . تطلع على الناس بحوادث الحرب وتخبرهم بأنبائها .

ومن صفحات الطائف يستطيع المؤرخ المنصف أن يكتب تاريخاً واقعياً صحيحاً للثورة العرابية ويجد الباحث آرءاً حرة وصرخات مدوية تدفع إلى الكفاح المستمر والنضال من أجل المبادىء الحرة ومن أجل الحياة الحرة الكريمة .

كتب عبد الله النديم فى الطائف ليعبر عن آمال الحزب الوطنى ويدافع عن مبادئه حتى أدركه الاستعمار فتوارى عن الأنظار تسع سنوات .

وبعد الانتصار الذى أحرزته الثورة والحزب الوطنى بصفة عامة ، وعاد عرابى مع النديم من رأس الوادى ، لم ترض انجلترا وفرنسا عن استقرار الأحوال فى مصر ولم يرق فى عينيهما هذا الانتصار فقد هدأت الحالة تماما واجتمع مجلس النواب وشرع فى وضع « اللائحة الأساسية » وقد وضعت على أحدث المبادىء العصرية . وتضمنت القوانين أهم النظم البرلمانية وأصبح الوزراء مسئولين أما المجلس . وانتصر الشعب الذى أصبح يقرر بواسطه نوابه القوانين التى تصدر وتطبق عليه .

لعبت الدولتان دورين كبيرين للوقيعة بين العرابيين من ناحية ـ وبين شريف باشا والخديوى من ناحية أخرى ، ويتلخص الدور الأول فى المذكرة التى أرسلتها الدولتان للخديوى فى ١٨٨٢/١/٨ والتى تتضمن التأييد للخديو وأن لهما حق القوامة والرقابه على مصر ولهما حق إقرار الأمن والنظام فيها (١) .

أما الدور الثانى فهو طلب القنصلين السير إدوارد مالت الإنجليزى

---

(١) الزعيم أحمد عرابى — لعبد الرحمن الرافعى .

والمسيو سنكفكس الفرنسى ، بألا يكون لمجلس النواب حق تقرير الميزانية وقد قدمت هذه المذكرة الأخيرة أثناء انشغال اللجنة الدستورية بالنظر فى اللائحة الأساسية (الدستور) ...... وأراد شريف إرجاء البت فى هذا الأمر بعض الوقت لتفادى هذه الازمة ، ولكن ذلك لم يكن يرضى كرامة العرابيين الذين نالوا الانتصارات الوطنية الرائعة. ولما أصبح مركزه حرجا استقال وتألفت وزارة سامى البارودى ـ وكان عرابى وزيراً للحربية فيها . وأقر مجلس النواب الدستور وصدر به المرسوم فى ١٨٨٢/٢/٨ .

فماذا كان موقف النديم فى الطائف إزاء هذه الدسائس ..

كتب النديم فى مقاله « كشف المخبأ » ما يأتى .

« ظنت بعض الجرائد المحلية أن حالتنا الراهنة فرصة تمكنها من إظهار مقاصدها ، فتلونت فى عباراتها تلوناً لم تهتد فيه إلى طريق الصواب فأخذت توغر الصدور مرة وتظهر اختلاف الكلمة أخرى ، وتوهم تعدد الاحزاب وتباين مقاصد الحضرة الخديوية والامة والجند وهى فى هذا كله مخطئة لجهلها بما عليه الحضرة الخديوية والامة والجند من الاتفاق فى المقصد الذى هو حفظ راحة البلاد وأمن العباد ... الخ .

وهو فى هذا المقال يكذب الجرائد التى تود أن توسع من شقة الخلاف بين الخديو والشعب .

وقد أخذ النديم فى مقالاته تغذية الشعور الوطنى وتعبئته بما كان ينشره من ألوان كفاح الامم التى قاست من أجل النضال فى سبيل الحرية كفرنسا وسويسرة وأمريكا وغيرها . وقد ذكر وصفاً للوطنية وأعمال الوطنيين فى إحدى مقالاته الوطنية بعنوان « الحياة الوطنية » جاء فيه « سر تبعثه الخواطر فتتحرك به الدماء ، وتتوجه به الهمم إلى أعالى الأمور على مراقى

الحرية ولا يقوم بهذا السر فى كل أمة إلا رجال العزائم وأهل الإقدام على صعاب الحوادث يقطعون العقبات بالصبر على المشاق . ويصرفون نفيس العمر فى شراء الخالد من الذكر الجميل وما أعمالهم إلا شرارة تعلق بكبريت طباع الامة فيعلو بها لهيب يشم رائحته القريب ويرى ضوءه البعيد » .

ثم مضى فى مقاله يناصر الحرية فى أنحاء الدنيا ... فقال (وهم الآن أرباب السيادة وأصحاب الصوت الاول فى الامم المتمدينة قد غلبت أفكارهم أفكار المستبدين فى أمريكا حتى صار لهم الصوت الاول وزاحمت أعمالهم أعمال المحافظين فى انجلترا فكانت لهم السطوة فى وزارتها وغالبوا بأفعالهم قوة الملكيين فى فرنسا فرفعت أعمالهم على دوائر حكومتها وجرت مياه أفكارهم فى أرض سويسرا فأنبتت حرية تغذى كل سويسرا بنحرها وتقووا بعزائمهم فى جرمانيا فجمعوا شملهم المبدد وأشعلت نيرانهم فى روسيا فاهتدى كل تائه فى ظلم الاستبداد ، وفوقوا سهامهم فى النمسا نخشى منها كل مانع لمقاصدهم وجروا فى جرن إيطاليا فتبعهم كل طالب حياة بلاده) .

ثم تكلم بعد ذلك عن مصر فقال (ولقد سرى هذا السر فى الشرق فقابله المصريين قبول المحب لمحبوبه فهو الآن القوة الجاذبة والمعنى المألوف ، يجتمع حوله كل وطنى حر لا قصد له إلا حياة الاوطان . ويدافعه كل طامع فى ثروة ، أو دائر حول وجاهة يحصلها ، أو رفعة يبلغها بمغلطة يظهرها أو أكاذيب يلفقها) وهكذا حدد النديم جانبين من المواطنين ، جانب يكافح من أجل الحرية شأنه شأن أحرار العالم وجانب آخر يسعى لاجل منافعه الشخصية ولو على حساب الوطن ..... ثم مضى يصور موقف الحزب الوطنى فقال « ولكن إقدام الحزب الوطنى لا يزحزحها مثل هؤلاء المتلونون فإنه حزب اعتز بالله وانتصر بالحق وتقوى على قطع العقبات بعزائم تساعدها القوة الإلهلية وتؤيدها العناية الربانية فهو حزب الله

الساعى فى جمع الكلمة وائتلاف النفوس ينادى فيه لسان الحق .... الثبات الثبات يا رجال الوطن . إن حزب الله هم الغالبون (١) .

وعندما تم التصديق على الدستور أو لائحة مجلس النواب فى ١٨٨٢/٢/٨ عمت البهجة جميع الهيئات الشعبية وأقيمت الحفلات فى كل مكان فكان النديم أحد الخطباء المبرزين فى جميع هذه الحفلات مما سيرد ذكره بالتفصيل فى مكان آخر عن عبقرية النديم الخطابية .

ولما تألب الشراكسة على العرابيين بعدما حز فى نفوسهم انتصار الضباط الاحرار وتآمروا على حياة أحمد عرابى وصحبه وفشلت مؤامراتهم قام الإنجليز والفرنسيون بمؤامرة أخرى لإسقاط وزارة محمود سامى باشا وذلك بنشر الفوضى وإيجاد ذريعة للتدخل واغتصاب البلاد ، واتفقت الدولتان على إرسال أسطولهما إلى مصر لتهديد الوطنيين وكان ذلك باتفاق مع الخديو وبإهمال لشأن السلطان وتجاهله ، وأعقب ذلك تقديم مذكرة مشتركة إلى الخديوى يطلبان فيها انسحاب عرابى من مصر مع حفظ حقه فى مرتبه وألقابه ، وكذلك إبعاد على فهمى وعبد العال حلمى إلى ريف مصر مع الاحتفاظ لكل منهم بلقبه ومرتبه وإقالة وزارة البارودى .

وحدث أن استقالت وزارة البارودى احتجاجاً على هذا التدخل المعيب . وعلى موقف سلطان باشا وإخدانه من الخونة من انضمامهم إلى الخديو والدولتين فكتب النديم فى مقالة بعنوان « لائحة الدولتين » .

هى الداهية الدهياء . والنازلة الدهماء والليلة المظلمة التى تاهت فيها الأمم وتلاطمت الأفكار ، قدمت على زعم أن المصريين لا يحسنون التذكر ولا يعرفون الضار من النافع فوقفت أمامها الوزارة السامية وقفة المحامى للعرض . والمدافع عن الحقوق ثم ردتها لجناب دولتنا العلية الشأن . شأن

الحريص على حقوق الخلافة العظمى الساعى فى جمع كلمة المسلمين المتبرىء من تبعة أى دولة غير القائمة بأمر الامة فظن بعض من لاخلاق لهم ، أن الامة لا احساس عندها بشىء من هذا . ثم تبين لهم خطأ اتهامهم عندما رأوا دولتلو درويش باشا مارا فى الاسكندرية ومصر والاهالى تناديه بصوت عال « لا نقبل لائحة الدولتين بل ترفض رفضاً باتاً ، حتى سمع هذا الصوت من المخدرات فى الشبابيك وقد انفسخ حكمها بعودة سعادة عرابى باشا لنظارة الجهادية واشتراكه مع الحضرة الخديوية فى حفظ الامن والراحة فهى لامعنى لها وأن بقيت ألفاظها) .

ونستطيع أن نخرج من هذه المقالة القصيرة بحقيقة هامة وهى أن أعضاء الحزب الوطنى أرادوا أن يتحرك السلطان إن كان حقاً كما يقال « خليفة المسلمين » ويوقف مؤامرات الدولتين الدخيلتين ولكن الخليفة المزعوم لم يحرك ساكناً بل اكتفى بإرسال درويش باشا وهو شخصية أتفه من أن تعتبر لها انجلترا وفرنسا كيانة أو مكانة أو قوة تخيفها .

ولما حدثت مذبحة الاسكندرية واتخذتها انجلترا حجة قوية للتدخل كتب النديم يقوم فى مقالته « الكيد إلى نحره » .

اشتدت الازمة المصرية فاظهر المنافقون ما كانوا يضمرون ، وتقسموا أقساما ، منهم من أقسم أن لايصدق خبراً يرويه أو اختلاق يفتريه ، ومنهم من دار بين الحزب الوطنى والاجانب ينقل كل مايتحدث به الآخر إيغاراً للصدور وإثارة للفتن ومنهم من دار حول مسند الحكومة يظهر أنه من الناصحين وهو من المفسدين ، ولم تعلم هذه الاقسام أن مقصد الحضرة الخديوية والحزب الوطنى واحد وهو حفظ البلاد وإن اختلفت الاسباب) .

وهكذا فضح النديم المتذبذبين ، والساعين بين طرفى النزاع بالإفساد وإشعال نيران الحقد والكراهية ثم يعود ملطفاً فى شىء من اللباقة والحذق

الفنى موقف الخلاف الناشب بين الخديوى الضعيف وبين الوطنيين . ثم أراد النديم أن يبين أن الوفاق قد تم وأن الأمر قد انتهى إلى هذا الحد فقال :

(فلما رد الأمر إلى مقام الخلافة العظمى وعلم لديها المقصد الجليل وقفت بين الجناب الخديو ورئيس الحزب الوطنى والأمة وأصلحت النفوس وتم الوفاق فنكص الأعداء على أعقابهم يعضون الأنامل ويقرعون السن تبرما ، وبهذا الصلح الجليل رضى الخديو رضاءاً تاماً عن أفراد الأمة وفرسان الجيش فأخجل المرجفين بجامع الأمة ، يردعون القلوب ويهددون النفوس جهلا بحسن المساعى واتفاق المقصد) .

ولما ترامى إلى الأسماع أن الخديو توفيق أسر إلى القنصل البريطانى أنه متوجس خيفة من الحالة وأنه لا بد من إرسال جنود انجليزية لإقرار النظام وتثبيت مركزه ثم نصح القنصل فى نفس الوقت الجالية الإنجليزية بالرحيل وعن ذلك يقول النديم :

(وما أسفنا عن حوادثنا إلا على رحلة أناس ألفونا وألفناهم ، وأصبحوا بين المصريين كأنهم الأهل الموثوق بهم . وإنا نرى أن حادثة الأسكندرية التى أحدثها أحد المطاليين هى السبب الأصلى فى وقوع الخوف فى قلوبهم ، ولكن زادت طينتها بلة بتنبيه بعض القناصل على رعاياهم بالسفر فتسبب فى خسائر هؤلاء الذين لم يقترفوا ذنبا ولم يجن عليهم أحد ، حتى خلت منهم الديار وساقهم الإرجاف إلى تحمل العناء ومشاق السفر ، بعد أن كانوا فى راحة لا يعتريها شقاء ونعمة لا تلحقها نقمة . وأنا لنعجب من الجرائد الأجنبية المحلية التى أهاجت أفكارهم وأقلقت خواطرهم وملأتهم خوفا ورعبا بفصولها التهويلية .

ثم أشاد النديم برجال الجيش وعلى رأسهم عرابى الذى قام بحفظ النظام على خير وجه فقال :

«وأتنا بلسان الوطن وأهله تثنى على رجال الجهادية الأسود الضوارى الذين يقطعون الليل سهرا موصولا بالنهار على أقدامهم يطرقون الشوارع ويتخللون الأزقة حفظاً للأمن وخفرا للأموال والأعراض ونضاعف الثناء صفاً بعد صف لحامى حومة الوطنية وقائد العصابة المصرية . ومؤيد الشريعة المطهرة المحمدية جوهرة العقد العربى الهمام البطل المقدام أحمد عرابى باشا أيده الله فقد قام بحفظ البلاد والعباد وبات كما يصبح يأمر بالحفظ ويسأل عن الحوادث أتم الله بحسن توجيهاته أعمالنا الطيبة التى تقطع بسيفها جيد حوادث عامنا ، فإنها حوادث تاريخها عجيب وغرائب ومسرحيات ، أى والله إنها لحوادث كلها عجائب أعدت من قبل لكى يمثل بعضها على مسرح مصر وبعضها الآخر فى الآستانة» .

إلا أن نديماً كان لا يفتأ يكتب المقالات العديدة ليرد على الجرائد الأجنبية وليصور شعور المصريين الطيب نحو الاجانب ، وأنهم كرماء بضيوفهم يحبونهم كما يحبون إخوانهم وأنه لا تعصب على الإطلاق فلا خوف ولا قلق على أى أجنبى أوربى .

ثم أخذ ينفر المصريين من أسرة محمد على التى اغتصبت أرض مصر اغتصابا ، فكتب عدة فصول عن مدى استغلال إسماعيل واستهتاره واستيلائه على الأرض مما ورد ذكره بالتفصيل فى باب سابق .

وبالجملة فقد حارب النديم فى جريدة الطائف الاستبداد بجميع صوره ومختلف أساليبه فى الداخل وفى الخارج على السواء وحارب الأكاذيب التى كانت تنشرها الجرائد الأجنبية والمحلية من أمثال «الجوائب والعصر الجديد» وغيرها .

فمثلا كتب عن محاربة الاستبداد يقول :

بلغنا أحد النواب أن أحد مديرى الوجه القبلى عاد للاستبداد واستعمال

الفلقة والكرباج فضرب بعضاً من المسلمين وبعضاً من الأقباط ضرباً مبرحاً بلا ذنب سوى تشفيه لغايات ذاتية فنرجو هيئة الحكومة أن تتحرى هذا الأمر خشية من انتقاد أوربا علينا واعتقادهم عدم رجوع حكامنا عن الغايات الذاتية » .

وما كادت الأحوال تستقر حتى عقد مؤتمر الأستانة الذى ضم جميع الدول الأوربية المعنية بالمسألة المصرية وقد عجب النديم كيف لم تشترك تركيا صاحبة الولاية الشرعية على مصر وصاحبة المصلحة الكبرى ، كما وطالب أن يكون للمصريين فى هذا المؤتمر عضو يدافع عن حقوقهم ويعرب عن آرائهم .

ولما نشبت الحرب العرابية صحب الجيش إلى كفر الدوار وأصدر جريدته الطائف من الميدان فى معسكره كنج عثمان .

وقال جون نينيه (أحد الكتاب السويسرتين) الذين عاصروا الثورة العرابية (كانت ترد إعانات الشعب من الأموال والغلال والخضر والفاكهة والخيل والماشية إلى كفر الدوار كل يوم وقد أبدى أعيان الوجهين البحرى والقبلى شهامة عظيمة فى إمداد الجيش .

وتجلت حماسة الأمة للثوره وللحرب من إلقاء نفر من أبنائها من الخطب وما كتبوه من المقالات وما نظموه من الشعر وكلها ناطقة بحرصهم على الحرية والدستور ونفورهم من الاستبداد والعبودية وقد كان فى مقدمة هؤلاء عبد الله النديم خطيب الثورة وكاتبها الاشهر وصاحب جريدة الطائف ترجمان الثورة ومرآتها والشيخ محمد عبده والأستاذ الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الأزهر والشيخ على المليجى والشيخ محمود إبراهيم خطيب أسيوط والشيخ محمد أبو الفضل

خطيب المسجد الحنفى والشيخ حميدة الدمنهورى والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر والشيخ محمد فتح الله والملازم على غالب وغيرهم)

وعاش النديم المواطن المصرى الثائر كريما فى اعتزازه بمبادئه قبل الثورة ومعتزاً بمبادئه مع رجال الثورة حراً ، أبيا ، يجاهر بما يعتقد به ، فلما أخفقت الثورة وكان فى رأس قائمة أقطابها وقادتها ، اختفى تسعة أعوام ذاق فيها كثيراً من ضروب المشقة والآلام ، مما سبق ذكره فى الفصل الخاص بحياته ثم قبض عليه فلم ينكر شيئا مما فعل . ولم يتنكر لمبادئه مثل كثيرين من أنصار الثورة . فحكم عليه بالنفى ثم عفى عنه وعاد إلى القاهرة فى عهد عباس حلمى الثانى .

٤ — الوفاء لمبادىء الثورة بعد هزيمة رجالها :

ولما عاد إلى مصر كان يستطيع أن يجنح لمسالمة الاحتلال ، وكان وقتئذ فى إبان سطوته ويخلد إلى حياة الراحة والرخاء ، وبخاصة بعد معاناته الشديد من المتاعب والأهوال فى عهد استخفائه . وإن طلب منصباً فى الحكومة مقابل مناصرته للاحتلال أو سكوته عنه لما ضن عليه اللورد كرومر بالمنصب الذى يضمن له اليسار طول حياته ولكنه آثر استئناف الجهاد ، ولو استهدف للاخطار ، فأنشأ مجلة الأستاذ ، وانتضى قلمه مرة أخرى زائداً عن الحمى . جائلا بقلمه فى آفاق الفكر الحر . صدر العدد الأول منها يوم الثلاثاء ٢٣ أغطسس سنة ١٨٩٢ ويفتتح هذه المجلة بالفاتحة ثم يتلو ذلك مقدمة بقلم أخيه عبد الفتاح النديم الإدريسى الذى تولى إدارة الجريدة ، ثم يثنى النديم فى مقال تحت عنوان « مقدمة مدح ومعرفة جميل » على كل من أسدى له جميلا ، ومن بين هؤلاء قاسم بك أمين النائب العمومى الذى عنى بأمره وأمر بإنارة وتنظيف سجنه بطنطا والسماح له بشرب القهوة والدخان ، كما يثنى على كبار الحكام أمثال عطوفتلو حسن فهمى باشا ناظر

الحقانية وتجران باشا وزير الخارجية ، ثم أخذ يوالى فى الأعداد التالية حملاته حرباً على الانحلال الخلق الذى أصاب البلاد بدرجة لم تعهدها من قبل . وانقضى قلم الثورة مرة أخرى جائلا بقلمه فى آفاق الفكر الحر ، فاستثار الشعور الوطنى . ثم أخذ يجمع الشباب حوله معتمداً عليه فى إحياء روح المقاومة الشعبية للاحتلال متصلا بهم فى اجتماعات سرية فى أماكن مختلفة ، منها منزل لطيف باشا سليم ، وكان أكثرهم من طلبة مدرسة الحقوق ، وأوصاهم أن يتقنوا فن الخطابة فهى أمضى سلاح ، وسط شعب أكثره لا يعرف القراءة ، وحتى يستطيعوا الاتصال بقلوب الجماهير والنفاذ إليها. وصار النديم يمرن الشبان على الخطابة ويخص بعنايته الشاب مصطفى كامل بعد أن وجد فى قلبه وروحه الاستعداد الصالح لقيادة الجيل الجديد . ودفع النديم الشباب إلى الكتابة فى الصحف فنشرت لهم الأهرام والمؤيد مقالاتهم كما دفعهم إلى الخطابه ، كذلك كان يشرح لهم أسباب الهزيمة التى آلت إليها الحركة الوطنية ويكشف لهم الأكاذيب التى ألصقها الاستعمار وأنصار الخديو والمفتريات التى شوه بها جهاد الشعب ، وأوصاهم الإعتماد على الرأى العام وتربية الشعب تربية قومية منيفة .

المبادىء الأساسية التى دعا إليها

أولا : (الجلاء) :

لقد كان النديم داعية سياسى من طراز يسمو على جميع معاصريه ، فقد دعا إلى جلاء الإنجليز ، والسعى للحصول على استقلال غير مشروط ، وكانت الصحف الوطنية فى عهده ، بعضها يطالب بتأييد الاحتلال ، والبعض يدعو إلى تأييد الخلافة العثمانيه والالتفاف حول رايتها ـ أما هو ، وبعد عودته من منفاه الطويل ؛ ورغم حاجته إلى الاستقرار والراحة ، فقد جاهر على صفحات مجلة الأستاذ لأول مرة فى تاريخ مصر بأن مصر للمصريين

لا للانجليز ولا لتركيا (الأستاذ فى ١٨٩٣/٣/١٤ وبذلك كان له فضل السبق على جميع الزعماء المصريين إلى ما قبل، دعوة الزعيم الشهيد محمد فريد فى اسطنبول سنة ١٩١٧ أن « مصر للمصريين » وتعرضه لإضطهاد الأتراك بأسباب ذلك (الأستاذ فى ١٨٩٣/٣/١٤) .

ثانيا : إصلاح الإدارة الحكومية :

دعا إلى إصلاح الأداة الحكومية وتمصيرها ، واخلال رؤساء مصريين أكفاء محل الأجانب ، وتعديل اللوالح والقوانين المعمول بهما آنذاك لعدم صلاحيتها .

ثالثا : التربيه السياسية الديموقراطية :

شرح النديم فى مجلة التنكيت والتبكيت فى العدد الصادر فى ١٨٨١/١٠/١٩ الأسس التى يقام عليها النظام النيابى وفوائده ، وكيفية الانتخاب السليم ، والصفات الواجب توفرها فى من يرشح نفسه للتمثيل النيابى عن مواطنيه . ومن أقواله عن ذلك (الشورى يا ولدى عبازة عن غرس أفكار فى أرض التبادل وسقيها بماء الحريةوخدمتها بيد الاعتدال . لينبت العدل ويزهر الحق ويثمر العمران) ،

وفى ١٨٨١/٩/٢٥ كتب عن المناقب الوطنية التى ينبغى أن تتوفر فى المواطن الصالح الذى يرعى كرامته وكرامة بلاده ، ويؤدى ماعليه من واجب ويطالب بما له من حق .

وقد كان أيضا صاحب الفضل والسبق فى إفهام المصريين النظام الديموقراطية الصحيحة بما لم يبلغه كاتب من قبل (ومن الآسف الذى يحز فى نفس كل مصرى أن تغمر الاحداث تاريخ ذلك الكاتب العظيم ، وتنسى أقواله الخالدة وتتغافل الأجيال تراث عبقرى نبه الوطن إلى أهمية النظام الديموقراطية

فى الحكم ورسم له طريق الحياة البرلمانية الصحيحة منذ حوالى قرن، ثم تقوم بعد موته عدة برلمانات وينتخب لهذه البرلمانات نواب يمثلون الشعب، وتتحطم على عتبات هذه المجالس النيابية المبادىء الدستورية، وتخنق بين جدران دار التمثيل النيابى صيحات الحرية والرأى الحصيف والمعارضة النزيهة .

ويتحدث النديم فى ص ٧٦١ من العدد (٣٣) من مجلة الأستاذ عن آرائه الديموقراطية التى ترسم للشعب حقوقه، وتحدد للمواطن الحر واجباته ،وأهم ما جاء فيها :

(ا) نقد الحكام والكبراء فيما يصدر منهم من أعمال دون إحكام رأى وإعمال فكر مهما كانت دوافعهم إليها وطنية وخيره .

(ب) تنفيذ المشروعات الإصلاحية فى الدولة، وسياستها العليا، ينبغى أن يكون أولا عن طريق المجالس النيابية، فتعرض عليها، ثم تناقش ولا تأخذ طريقها للتنفيذ إلا بعد البحث وتقليب الآراء وتناول وجهات النظر ثم صدور موافقة من الأغلبية الساحقة للنواب ويقول (يجب أن يكون الرأى الأخير نتيجة الشورى، تستخلص من تضارب الآراء وتضارب الأفكار قواعد لا تنقضها الحوادث، وقوانين تلائم التابع والمتبوع، وتبقى بها دعائم الدولة قائمة على أساس متين، ولم يتوصل لهذا المقصد الحسن إلا باعتمادها على من يخوض لجج المنايا فى حفظ وطنه من طامع فى امتلاكه رغم كفاح أهله) .

ولنقف قليلا لنرى ماترتب على إغفال العمل بهذا المبدأ الخطير فى حياتنا البرلمانية الماضية، كان أغلب نواب الشعب آلات فى يد رؤساء الأحزب لا رأى لهم إلا مارآه زعماؤهم، فأهمل بذلك النواب الواجب البرلمانى الصحيح وفشلت الحياة البرلمانية، وما استطاعت أن تقيل حاكما أو تخيف ظالما أو ترهب معتديا أو تحول دون الفوضى السياسية التى ابتلينا بها ،

(د) شرح أسباب نجاح الحكم الديموقراطى فى الغرب فقال :

« إنما ثابر الغربيون على العمل بالشورى وأخذوا يصححون الأغلاط ويراجعون الأخطاء ويتبادلون الجدل عن عزائم صادقة ، حتى تربت الملكات وتصورت المطالب أمامهم بصور الواقعيات وما أوصلهم لهذه الغاية إلا اعتمادهم على الفضلاء والأذكياء حتى اضطروا الأغنياء والوجهاء لدراسة العلوم والفنون السياسية التى بها ترشحوا للدخول فى أندية الشورى » .

ولا يلائم للدخول فيها أكثر من انتخاب العقلاء والفضلاء وانسلاخ أهل الذاتيات من التوجه إلى الوجهة الأجنبية ، وجمع الكلمة على توحيد المذهب الوطنى لنخرج من مضيق هذه المصيبة التى أصيب بها بعض نبهاء الشرق من خدمة الأجنبى ولو بيع الوطن له) ونستطيع أن نخلص من أقواله السالفة بالحقائق الآتية :

(١) التمثيل النيابى تقييد لا تقليد ، ودرس وبحث وعمل وعناء ، للوصول إلى الآراء الحصيفة ، والأفكار السديدة ، لمنفعة البلاد ، على ضوء حاجات الوطن ومطالبه فى حاضره ومستقبله . فليست النيابة مظهر ونفوذ ، ومركز اجتماعى يبيح لصاحبه الاستغلال وتحقيق المآرب الشخصية .

(٢) للنيابة مؤهلات وكفايات خاصة ، لا يرشح لها من كان عاطلا عنها ، لذلك اضطر الراغبون فى تمثيل مواطنيهم فى المجالس النيابية . إلى دراسة العلوم الاقتصاديه والسياسية ، التى تساعدهم على القيام بمهام رسالتهم الخطيرة بعد نجاحهم فى الفوز بالمراكز النيابية .

وإذا نظرنا إلى الوراء متسائلين ، هل نفذ هذا النظام فى مصر فى فترة الحياة النيابية السابقة ؟ للأسف لم ينفذ ! ، إذ أن من الضرورى لنجاح النائب اعتماده على تأييد زعيم مشهور أو حزب له نفوذ ، ومن أجل ذلك فشلت الحياة البرلمانية فى بلادنا .

٣ — تشرفت مراكز النيابة البرلمانية فى الغرب . بمن شغلوها ، فبعلمهم وحزمهم وآرائهم القوية ووطنيتهم ، صدوا الظالمين ، وأرهبوا الخونة والعابثين من الحكام ، وصانوا حقوق الشعب من عبث الملوك ، وكانوا حصوناً للمبادىء الدستورية ، لذلك بقيت الحقوق مصانة ، والشعب فى أمن والحكومة قوية وأسلحة أعداء البلاد الخارجين مغلولة . .

٦ — النديم أستاذ مصطفى كامل

تردد مصطفى كامل فى أول مراحل جهاده الوطنى على الزعيم عبد الله النديم عقب عودة الأخير من منفاه ، وعرف منه حوادث الثورة العرابية على حقيقتها ، وأدرك أسباب إخفاقها ، لأنه كان يعد نفسه إذ ذاك لزعامة الحركة الاستقلالية ، وقد أفادته كثيراً أحاديث النديم فى تعرف مواطن الخطأ وأسباب الإخفاق فى الثورة العرابية - كما ألم بطرف كبير عن دسائس السياسة الإنجليزية . تلك التى كان لها دخل كبير فى إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال ، وإننا لنلمح فى حياة مصطفى كامل الوطنية والسياسية ، آثار توجيه النديم من اعتماده على قوة الرأى العام وتربية الشعب تربية وطنية وأخلاقية . على دعائم الحرية الديموقراطية - وقد تجنب مصطفى كامل الاصطدام بالخديو عباس الثانى برغم ماشجر بينهما من خلاف .

ولما أنشأ[1] مصطفى كامل مجلة المدرسة وصدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨/٢/٨٩٣ وهى مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية ، وتطوع كثير من الكتاب المشهورين لكتابة المقالات والرسائل فيها ، رحب بها السيد عبد الله النديم ونوه بها فى مجلة الأستاذ (عدد ٢٨/٢/١٨٩٣) .

كما نوه بجهوده فى تكوين جمعية مصرية من الشبيبة المصرية المثقفة

---

(١) من كتاب مصطفى كامل ص ٣٠ للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى .

لترقية المسرح المصرى وهى جمعية الفتوح الخيرية . رئيسها مصطفى كامل أفندى وأعضاء مجلس إدارتها هم فريد إبراهيم أفندى وأمين فهمى أفندى وحافظ بيومى أفندى وقد قامت هذه الجمعية بتقديم باكورة إنتاجها الفنى بتشخيص رواية الملكة بلقيس على مسرح تياترو البرادينزو وقد حضر افتتاح هذه المسرحية كثير من علية القوم ووجهائهم ذكر ذلك فى عدد الأستاذ جزء ٢٩ ص ٧٢٣ فى ١٨٩٣/٣/٧ .

وقد ذكر الشاعر الكاتب ولى الدين يكن فى معرض حديثه عن موقف اللورد كرومر من عبد الله النديم ، أوجه التشابه بين النديم ومصطفى كامل فى كتابه (المعلوم والمجهول) . . قال (هذا عبد الله النديم ، صاحب الطائف والتنكيت والتبكيت من قبل ، وصاحب الأستاذ من بعد ، اختفى بعد ثورة العرابيين وكان حارثهم بن حلزة ، أو عمرهم بن كلثوم رغا فتجمعوا ، وعقر فتفرقوا ، ثم آوته قرى الريف فبات كأبى زيد السروجى ، يحترف الحرف ويتنقل بين الأزياء والأشكال فيوما هو واعظ . ويوماً هو قاض ، ويوماً هو عالم . ويوماً هو خليع ، وما زال كذلك يطوف فى البلاد حتى تفرق بعضهم فوشى به . . . . وزين بعض شيعته لمقام الإمارة المصرية أن تعفو عنه بعد ذلك ، فعفت فبدأ بعد ئذ فى نشر مجلة الأستاذ .

ومن المعلوم عند أهل الدهاء أن الحزب العرابى وأن تمزق شمله بعد نكبة صاحبه بقى مختبئاً فى مكامن خوفه . اختفاء الأفاعى فى جحورها وكذلك الفزع يستولى على أهل الدعوة فيلجم أفواههم . فلما عاد النديم ، وأعاد لهم نغماته . طربوا وعرتهم هزة أفلتوا بها من مرابطهم فقال فصدقوا ودعا فأجابوا . وما زال فى غلوائه وهم فى عوائهم يدعوا إلى الفتنة ويحض على الثورة والإمارة تحبوه ، ما يقيم أوده ، ويطلق لسانه حتى آل أمره إلى الطرد فترك مصر مأسوفاً عليه من أشياعه مغضوباً عليه

من العقلاء[1] .

وقد أخطأ اللورد كرومر ـ وقد يخطىء عظماء الساسة ـ فطلب من الإمارة أن تكلمه فى الخروج ، فكان كلام الإمارة له كلاماً يدل على قصر النظر وخطل فى الرأى وضعف فى الإرادة ومجاملة حيث يجب العدل .

وظن اللورد كرومر أن عبد الله النديم إذا دام نشر أستاذه حدثت ثورة فى البلاد ، فأراد الاقتصاد فى المكاره والاجتناب للفتن ولو كنت أنا مقام اللورد لتركته يقول حتى ينفذ ما عنده . . . ويظهر من أمور كثيرة أن مقام الإمارة وثق فى النديم ثقة لا يتخللها الريب ، فكان يحسبه قادرا على كل شىء ، ومن أجل ذلك قال أكثر الأمراء من الأسرة الحاكمة على مصر أن مقام الإمارة يقرب منه النديم لأنه عدو أسرته وجنسه (٢) .

وبهذه السياسة المضحكة آل الأمر إلى الاعتماد على مصطفى كامل وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم ، وإنما ميز المقلد عن المجتهد ، إلمامه باللغة الفرنساوية واستطاعته بيان آرائه للغربيين[3] ولم يفز النديم بمثل ذلك .

ولقد ذكر بعض الكتاب ، أن مصطفى كامل دعا إلى تبعية مصر إلى تركيا رغم أنه كان تلميذ السيد عبد الله النديم الذى كان أول من نادى بأن مصر للمصريين لا لتركيا ولا لانجلترا .

والواقع أن مصطفى كامل وقد آل على نفسه تحرير البلاد من براثن الاحتلال اصطنع فى سبيل ذلك سياسة محاسنة بالنسبة لتركيا ، حتى يطمئن على أنها لن تنضم إلى إنجلترا فى سياستها الاستعمارية ضد مطالب المصريين

---

(١) ولى الدين يكن كاتب وشاعر وكان ضد الحركة الوطنية ومن أنصار البيت المالك حيث أنه كان يمت بصلة القربى لبعض الأمراء وقد نفاه عباس حلمى إلى القسطنطينية .

(٢) لكتاباته الكثيرة فى عهد توفيق ضد الأسرة الحاكمة وتشهيره بمظالمها

(٣) المعلوم والمجهول (٢٨ ١/٣٠)

الأحرار وهو في صميم دعوته السياسية . يقصد تحرير البلاد تحريراً كاملا بدون قيد أو شرط .

وكانت الدعوى الصادقة إلى الجلاء تقتضى محاسنة تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بإلغاء سيادتها على مصر . وأرجأ هذا المطلب حتى تنجو البلاد من العقبة الكؤود التى تحول دون استقلالها وهى الاحتلال الإنجليزى ، فكانت محاسنة تركيا هى إذن السياسة القومية الرشيدة لمن يريد مقاومة الاحتلال وخاصة لأن تركيا منذ وقع الاحتلال كانت لا تفتأ تطالب انجلترا بالجلاء بل وكانت هى الدولة الوحيدة التى انفردت بمطالبة انجلترا باحترام عهودها فى المسألة المصرية وكان لها مندوب فى مصر وهو أحمد مختار باشا غازى جاء سنة ١٨٨٦ اقترح فيه تنظيم الجيش المصرى والاستغناء عن الضباط الإنجليز والسردار الإنجليزى وجهر بضرورة استرداد السودان . ولما أخفقت مفاوضاته فى الجلاء بقى فى مصر وكان شعاره « أنه احتجاج حى على الاحتلال » . فتركيا كانت تؤيد مصر فى الجلاء فكان طبيعياً أن يعطف عليها المصريون الراغبون حقاً فى الجلاء .

ولقد كتب مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم بعد أن ألقى خطاباً بالإسكندريه فى يونيو سنة ١٨٩٧ لمناسبة الحرب اليونانية التركيه واقتطف هنا بعض محتوياته .

« إنك تعلمين أن كثيرا من أصدقائنا اليونانيين يرون بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا مادام الإنجليز محتلين . وطننا العزيز » وقد أقرته الكاتبة الكبيرة مدام آدم على هذه الخطة بالرغم من أنها لم تكن تعطف على الأتراك لحبها لليونان .

ولقد رد مصطفى كامل رحمه الله على أنصار الاحتلال الإنجليزى الذين

اتهموه بأنه يريد نقل مصر من حكم الاحتلال الانجليزى إلى حكم الاحتلال العثمانى فى عدد اللواء فى ٣ مايو سنة ١٩٠٦ بمقالة قال فيها مخاطباً إياهم « أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استعباد ، وأنهم يطلبون خروج الإنجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد فهى دعوى لا يقبلها ذو لب ولا يسلم بها أحد من العقلاء فإننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا و نتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة من حياتنا » .

الباب الخامس

آثار النديم الأدبية

النديم الأديب القومى

لقد كان النديم أديباً بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى ، فإذا قام الاختلاف بشأنه على معنى الأدب والأديب ، وتضاربت الآراء فى وصف الأدب ، والأديب . فآثار النديم الأدبية ونشاطه الفكرى ، والثقافى وإنتاجه الأدبى ، الذى وصلنا من غمار ظروفه الخاصة ، تجمع تعريفات الأدب والأديب من جميع أطرافها ففيها اللفظ الصافى ، والأسلوب الرصين والمعارف الإنسانية وفيها الخيال الخصيب والجمال المترقرق ، وفيها الوقع والتأثير وهزة النفوس إلى الخير والحق والجمال .

ولقد جال النديم فى ميادين شتى من الأدب كما عرفنا فى الصفحات السابقة فبرز فى أدب المقالة وكانت فى عصره الطراز المعلم فى الكتابة والإنشاء وحلاها بالسجع الذى تتشربه الأفهام سلساً ، سائغاً ، قوياً رضياً ، وذلك فى أول حياته الأدبية ثم تخلص منه بعد ذلك ـ واستخدم المقالة فى عرض المشاكل الاجتماعية والدعوى القومية .

وله أيضاً جولاته فى أدب اللغة والعلوم اللسانية فأثره فيها موزع بين مقالات يذود فيها عن حياض اللغة كمقالة « لغة الدواوين » ويدعو فى أكثر من موضع إلى تنقية اللغة الدارجة من عبارات فجه ، وألفاظ نابية ، لا تؤدى إلى ما تهدف إليه من معان إلا بعد أن تجرح الاسماع ، وتصيب المستمع الاديب بالاشمئزاز ، وهو كأديب فنان يعالج هذا العيب فى لغة الحديث ، بتعليم الشعب استعمال جمل مهذبة ، رقيقة الحاشية طلية المسمع بدلا منها ، لا تسبب امتعاضاً ، ولا تثير تقززا ، تحمل نفس المعنى الذى تستعمل لأجله تلك العبارات الفجة ، الناضبة من الرقة والجمال والذوق .

ويبقى بعد ذلك أدب الفلسفة أو أدب الحكمة أو خطرات فى الافكار

يصوغ بها تجارب النفس ، ويفيد بها تحليل الحكمة الشاردة والرأى الخير ، مستغلا إياها فى تبصير مواطنيه بنواح كثيرة فى حياتهم وأمور معاشهم . وعاداتهم وآلامهم وآمالهم مهدهداً لهم بأوضاع جديدة جميلة فى أساليب تفكيرهم وأمورهم ، يصلح بها حالهم ويستطيعوا اللحاق بركب الامم المتقدمة الزاهرة .

منزلة الاديب عبد الله النديم فى الأدب القومى

وبعد فمنزلة الاديب عبد الله النديم من الأدب القومى منزلة قائد من قواد النهضة أخلص لوطنه وأخلص لفنه وأدبه ، فمشى قدماً فى ساحات النضال خفاق اللواء . موفور العتاد ، يشك علمه النبوغ والعبقرية فى أعالى القمم ، ويمهد السبيل لمن يسير بعده فيزيل منها الشوك والعوسج ، ويغرسها بالورد والريحان .

واليوم يذكر الوطن والأدب ذلك الأديب النابغ والخطيب النابه ، والمكافح المجاهد ، الذى علم الشعب ، وغرس بذار الحرية وكان أول الداعين للقومية العربية ، والكرامة الإنسانية وإزالة الفروق بين الطبقات ، واحترام ذاتية المواطن وإنسانيته أياً كان مركزه أو ماله أو ثقافته فى الربع الاخير من القرن الماضى ، نعم فقد كان الأديب النديم ، الامين البار للوطن وللأدب ، قدم نفسه قرباناً على مذبحهما وبقى روحه المنارة تنير بشعاعها الجوال آفاق الحى فتهدى السراة والمدلجين .

ويوم يحلو للشرق العربى أن يقلب صفحات التاريخ الحديث ، ويطالع الاسماء فى سفر العاملين الخالدين سوف يجد اسم النديم مكتوباً فيه بأحرف من نور ، هو ضياء عينيه وحزام قلبه وشعلة مواهبه المقدسة .

لقد كان النديم الكاتب الشاعر الذى تغنى بآلام وطنه ونشج بآلامه ، وكان الكاتب الاجتماعى الباذل لامته بمنعرج اللوى ، النصيحة الحرة

الخالصة ، وكان الأديب الذى وطأ أكناف الأدب للجماهير وأدنى لها القطاف والمجانى فى نثر تناثرت فيه درر الفكر والحكمة ونظيم انتظمت فيه المعانى الحسان ، مقدودة من العاطفة المشبوبة والوحى النضير .

فمنزلة النديم فى قومه منزلة العامل المجد ، والمتفنن المجدد ، سار فى طريق الرشاد والسداد وتبعه المعجبون والمريدون ، فكان عنواناً من عنوانات النهضة الادبية فى أخريات القرن التاسع عشر .

ولئن طاب للغرب أن يفخر بقادته الادبيين ، وأبطال حركاته الاجتماعية والثورية فإن مصر ليطيب لها أن تزهى بالنديم الخطيب الذى تسلكه خطابته وصحافته فى عداد المشاهير . لقد كان الصحفى الأديب الذى يتجه بقوته نحو الخير للمجتمع الذى يعيش فيه . فإذا كتب القصة الحوارية أو المقالة أو الرواية . لا يبغى من وراء ذلك تسلية الشعب ، وإنما يود من كتاباته أن تسرى منها إلى الارواح ، المعانى السديدة والمبادىء السامية التى تهدف إلى الحرية .

لقد كان قلب الإنسان محور شعوره ، فسبر منه الاغوار ، وسمع فى دقاته خلجات الحزن والطرب ، وخفقان السخط والرضى ، ولمس فى عاطفته ندوات الفضيلة ، وغزوات الرزيلة فصهر كل هذا فى بوتقة أدبه بشتى أنواعه شعره ونثره ، خطابته وكتابته ، فكانت مقالاته وقصائده وأزجاله ، وقصصه خافقة بنبضات قلب الإنسان ، فكان خطيب الإنسانية الشاعر فى عصره وفى كل عصر ، وحسب ذلك فخاراً فى مجال المباهاه والفخار فإن حب الوطن هو الصفحة الاولى ، بل الكلمة الاولى من سفر الحياة ولقد كان النديم وطنياً صادق الوطنية ، تختلج جوانحه بحب الوطن ، والنهوض به إلى أعلى المراتب وسرى تيار هذا الحب إلى جميع معاصريه من المواطنين ، ولم تكن عاطفة الوطنية مقصورة على مصر وطنه فحسب بل كانت مبسوطة الجناح إلى الشرق العربى بل إلى الإنسانية بأسرها ، فقد جمع بين الوطنية والإنسانية .

ولقد كان النديم الأديب ، ابن العصر الذى نشأ فيه ، فقد اشترك فى حوادثه وشارك فى نزعاته وآماله ، وراقب وسجل أطواره وأمواج حركاته ، ولا غرو فى ذلك فقد كان من القادة والزعماء فى عصره ، فأثر على الجماهير ونال إعجابها ونزل من عصره فى الصميم ، متميزاً بالوطنية الملتهبة، والعاطفة الصادقة ، والسريرة الصافية والخلق القويم ، والقلم الجرىء المقدام ، الذى ينازل الظالمين فى غير ما تردد ولا وجل ، فضرب المثل بشجاعة الرأى ، والتنديد بظلم الخديويين وبالأخص إسماعيل وتوفيق ، أما عباس فلم يعاصره إلا فى أوائل حكمه حين كانت تبدو عليه النزعات الوطنية السليمة ، ثم هاجم الانجليز فى إبان حكمهم وهاجم أبا الهدى الصيادى ، الرجل الذى استوزر فى غير ما وزارة ، ونكب الامبراطورية العثمانية فى عهده بتوجيهه السىء والجو الرهيب الذى أحاط به الأحرار والمصلحين، ثم لم يتردد النديم أيضا فى توجيه النقد لأسلوب الحكم فى عهد السلطان عبد الحميد فى بعض قصائده وكتاباته وأقواله .

وقد تزعم مدرسة خطيرة للأدب الشعبى وقاد حملة عظيمة للتنبيه إلى ضرورة الإصلاح الاجتماعى بالبلاد . واقترح سياسة قويمة لتنظيم وتعميم التعليم ، واقترح إصلاح الأزهر ، ومهد طريقاً جديداً للصحافة الشعبية بصحفه المختلفة الاساليب والالوان ، وجلى فى أدب المقالة واهتم باللغة العربية فدعا إلى إنشاء مجمع لهـا وتوسيع التعامل بها .

ثم انتضى قلمه النارى وكتب به المقالات الخالدة ، والتى صور بها حالة التدهور الاخلاقى الذى انتهت إليها البلاد فى عهده ، ثم نبه الوعى الوطنى فى الشعب وقرب لأذهان الجماهير المبادىء السياسية التى يرتكز عليها مستقبله ومصيره من دستور وحكم نيابى وحرية فكرية .

وبالإجمال فإن الإنتاج الأدبى للنديم شمل جميع النواحى الوطنية

والإجتماعية والإقتصادية والثقافيه ، وكان الحلقة التى ربطت رسالة زعيم الشرق جمال الدين الأفغانى بجهاد الزعماء الذين أتوا بعده وهم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول . وبذلك كان تأثيره الأدبى فى إبان حياته واسع الأثر ، ممتد الأفق ، وقد تهافت الناس من كل الطبقات — فى عصره — على الإستماع إليه ومطالعة آثاره وقراءة مقالاته ، التى بلغ دويها جميع أنحاء القطر والأقطار العربية ، وأخيراً نفاه الإنجليز عن مصر مرة أخرى ، وهام النديم فى مطاوى الأرض ، ثم شاءت الظروف أن تقيد هذا الطائر المغرد فى قفص من ذهب بالآستانة ، ثم يحطم القدر . . ذلك القلم الرهيف الذى لمح سنانه الشهد . . وذوب العطر .

النديم رائد الأدب الشعبي

إن الأدب الشعبى الحق ، أعنى الجدير بالإنتساب إلى الشعب ، هو الذى يعبر عن إحساسه ، ورغباته وهو الذى ينظم اتجاهاته ، ويوحى إليه بالتسامى والتساند والسلوك أقوم السبل إلى أكرم الغايات ، ولا بد أن يكون هذا الأدب صادراً عن شعور قوى صادق ، وعن فهم دقيق بكل مايعبر عنه من شعور الشعب وشجونه ، كما يجب أن يكون تعبيره لطيفاً جذاباً سائغاً ، لاحداث الأثر المطلوب النفوس ، وهذا يقتضى أن يكون من حيث أسلوبه ، بحيث يسهل على قارئيه وسامعيه أن يحسنوا فهم معانيه ومراميه ، وبحيث يطربون له ويعجبون به ، ولقد اصطلح الأدباء ، ونقاد الأدب على تقسيم الأدب إلى قسمين : أدب خاصة وأدب شعب ، ولا فارق عندهم بين هذين الأدبين إلا من حيث أداة التعبير وهل تكون هى اللغة الفصحى التى تجرى على الألسنة والأقلام وفق القوانين والقواعد الموضوعة لها ، أو تكون هى اللغة الدارجة التى تتخاطب بها العامة ، على أن كثيراً من الأدب المعبر عنه باللغة الفصحى قد يكون أدباً شعبياً من صميم حياة الشعب ، ومصورا لها

أدق تصوير ، وكذلك نجد بين ثمرات الأدب المعبر عنه باللغة الدارجة الشعبية مايصور حياة الخاصة ، ويعبر عن أفكارهم ومشاعرهم بجلاء .

ويمكننا القول أن الأدب الشعبي هو الذى يفهمه عامة الشعب ويتأثرون به ، سواء أكان باللغة الدارجة التى يتخاطبون بها ، أم كان بلغة عربية فصيحة سهلة ، والبلاغة كما عرفها (علماء اللغة) هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولما كان السواد الأعظم من الشعب قاصراً عن تذوق آثار الأدب العربى لجهله أكثر ألفاظه وأساليبه الخاصة ، فمن الخير لهم وللأمة كلها أن يخاطبهم الأدباء بالألفاظ والأساليب التى تلائم أذواقهم ومداركهم .

لذلك كان عامة الشعب أشد تأثراً بالأدب المصنوع بلغتهم وعلى قدر عقولهم ومداركهم كتعديد النائحة ، والمواويل الحماسية والغرامية والقصصية ومحاورات (الأدباتية) والقصص المنظومة عن الأولياء الصالحين وأبطال الأساطير .

ولقد اتسع هذا الأدب فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر لمختلف الاغراض التوجيهية والحماسية والتثقيفية والتهذيبية وغيرها .

ولقد كان عبد الله النديم من أكبر أقطاب هذا الادب ، فقد استطاع أن يدفعه حتى اتسع لتوجيهات وأهداف النهضة الحديثة والإصلاح الاجتماعى ، وأفاد بأدبه الشعب بجميع طبقاته ـ وأغلب إنتاج النديم الادبى كان شعبياً ، فأحاديثه وأزجاله ومحاوراته وخطبه ، ومقالاته الإجتماعية ، ومسرحياته الادبية (الصالون المتنقل) التى كان يغذى منها الشعب من أعيان وفلاحين وعظماء تعد أفخم أدب شعبى قام به أديب إلى الآن .

ولو جمعت أحاديثه ، وقيدت نوادره ، مما ألقاه أثناء إقامته فى الريف فى منازل الكبراء والاعيان أو فى الفيض الزاخر من ألوان الحديث والسمر

الادبى والقصصى والشعرى ، لكان لنا مجموعة ضخمة ، أو مؤلف جامع رائع لاحسن ما أنتجته قريحة أديب شعبى ، وفى كتابته فى صحفه أغترف من كل البيئات الشعبية ولم يتردد فى كتابة كل مايتساقط من لغة العامة وتعابيرها ، حتى ماند فيها عن الذوق وحاول تغييرها بعبارات أرق ، وحسبه فى ذلك الإصلاح .

تحدث عن الصناعات الشرقية التى كادت أن تنقرض فى عهده ، وتحدث عن الريف وعادات أهله وأساليب معيشته باللغة الدارجة ، وتحدث بلسان العامل والزارع والفلاحة والزوجة المدنية ، والخادمة ، والتاجر الاجنبى والمرابى والمحامى والنصاب ، والمرأة ، بنفس أسلوبها فى الحياة الواقعية ، ثم صاغ هذه الاحاديث على شكل محاورات وقصص صغيرة بسيطة ، كان يتجه بها إلى أغراض معينة من نقد لكل وضع مضطرب من أوضاع المجتمع .

ولقد بلغت هذه الاحاديث والقصص البسيط الطريف ، والمحاورات الجذابة شأوا كبيراً من التأثير فى الجماهير ، وقد اجتذبت النساء لها ، فأظهرن اهتماماً بالغاً بها ولنضع أمام القارىء نموذجا من ذلك الادب ، محاورة بين (حنفى ونديم) نشرت فى الاستاذ فى ١٨٩٣/٢/٢٨ يحث فيها على قراءة الجرائد والإنتفاع بها من تحسين اللغة الدارجة ومعرفة الاخبار والحث على الإتحاد بين الطوائف .

نموذج للأمثلة الشعبية : حنفى ونديم فى ١٨٩٣/٢/٢٨

ح ـ انت ياسيدنا عملت كده ليه كل جمعة تقول إياك تفتكرنا بكلمتين وتتحفنا بعبارتين تلاقيك ماسك فى العضمة الخشنة ونازل على عيون الخاينين والمنافقين بقى مافيش لنا خاطر عندك والا الفقراء يروحوا فى داهية !

ن ـ انت يامعلم حنفى لم تزل على جهلك أرى حنيفة تكلمنى بكلام طيب موزون وانت تقول مانيش وليه وتتكلم بالكلام العامى مع إنك صاحبتنى

من مدة ، أذهنك أضعف من ذهن حنيفة . يمكنك بالكلام البلدى فى عبارة لطيفة تعجب الجاهل والعالم ولا يعيبك فيها أحد فجاهد نفسك وقلدنى فى الكلام تكن من صف اللطفاء .

ح ـ أنا وحياتك ياسيد أقدر أكلمك بكلام مليح يعجب السلطان وإنما الإنسان أخذ على الكلام مع الجهلة فغلب عليه كلامهم ، والا أنا دايماً أسمع الجرائد وافهم عبارتها .

ن ـ ومن ايك تأتيك الجرائد ؟

ح ـ أنا والمعلم عفيفى والمعلم بيومى والحاج يوسف والحاج دسوقى عملنا جمعية واشتركنا فى جملة من الجرائد واستأجرنا كاتباً يقرأها لنا .

ن ـ حيث انك تقرأ الجرائد قل على مارأيته فيها واخبرنى عن الجريدة الطيبة والجريدة الرديئة لاتحقق انتفاعكم بها من عدمه .

ح ـ أول مااشتركنا اشتركنا فى الاستاذ لكون كلامه على قدر عقولنا ولما اتسع فهمنا رأينا المؤيد ماسكا على الجد وماشيا مع الاستاذ فى طريق واحد فاشتركنا فيه ورأيناه يخدم الوطن بنية خالصة ويكتب الفصول العجيبة ويدافع عن حقوقنا بقوة . وبعدها التفتنا لقينا النيل تنادى بصوت رقيق فاشتركنا فيه فوجدناه من المجتهدين فى خدمة الوطن الساعين فى تهذيب الناس وحفظ الحقوق ورأيناه يكتب كل لمحة تسحر العقول وتبين للناس الحقائق بقلم لطيف وعبارة سليمة أفقلنا تم لنا السعد بوجود هذه الجرائد مانشعر إلا وواحد ينادى بالوطن فاشتركنا فيه وجدناه من جنس هذه الجرايد ورأيناه وطنيا ينادى باسم مصر ويدافع عن حقوق رجالها ويحرض الناس على السعى خلف الامور النافعة ، وأحسن مقاصده ترجمة كلام الإنكليز ليطلع عليه إخوانه المصريين ومحافظته على الروابط التى بيننا وبين الاقباط يعنى رأيناه واحدا منا يفرح لفرحنا ويحزن لحزننا

فقلنا تم الحظ وصارت كلمة المسلمين والاقباط واحدة ، فلم يبق هناك خوف من احد يفسد احوالنا ، وبعدها ياأخى سمعنا بجريدة اسمها الاهرام فأشترينا منها نسخة وقرأناها وجدناها نازلة على عيون المضلين والمضيعين حقوق المصريين فقلت لابدوان نشترك فيها فوقع خلاف بين الجماعة وقال بعضهم محررها سورى فقلت دا جماعة السوريين إخواننا وجيراننا وتحت حكم سلطاننا ويلزمنا ان نكون عصا واحدة فى المحافظة على حقوقنا الوطنية ولايلزم تفريق الكلمة واحداث العداوة والبغضاء ونحن محتاجون لقطع عروق العداوه فقام المعلم عفيفى وقال أن بعض السوريين يكتب ضدنا ويشتم جرائدنا الوطنية ويكذب على حكامنا ويمدح الاجانب ويذم المصريين . فكيف نشترك فى جرائدهم بعد ذلك فقلت له كل امة فيها الصالح والطالح والأمين والخائن أفلأجل المنافق منهم أو الغاش ينقض هذا الجنس المختلط بنا من قديم الزمان ان الخائن منهم عرفناه فتجنبه وقليل الحيا منهم لاينبغى ان نلتفت اليه ولا نعده من بنى آدم ، ولكن لا ينبغى هجر المخلص منهم والصادق فى خدمته ، وان كان فى الجرائد او فى الحكومة ، وجريدة الأهرام نراها تنادى بآمال المصريين ، وتسعى فى المحافظة على حقوقهم ، فلا ينبغى ان نعدها فى الجرائد الفاشلة فضلا عن كونهم أقدم الجرائد العربية فى بلادنا وصاحبها شرقى مثلنا وقبل الاهرام (المحروسة والاتحاد) فأنهم مجتهدين فى خدمة مصر واهلهافينبغى ان نشترك فيها ايضا فتم الرأى واشتركنا فى الاهرام والمحروسة والأتحاد من جرائد السوريين وصرنا نجتمع كل ليلة نقرأ اليومى منها وفى كل أسبوع نقرأ الاسبوعى فحصل عندنا تنوير ذهن واتساع أفكار من كثرة المطالعة والسماع وهذا كله من نتائج نصائح الاستاذ وارشاده . . . . الخ

٢ — النديم الزجال :

نشأ الزجل فى الأندلس ، حين استفاضت حياتهم باللهو وزخرت بالمتع وحفلت بالغنى والكسل فاستعملوا الزجل كنوع من الشعر الغنائى — خالصا من كثير من قيود الشعر العادى ولو أنه ذو أوزان خاصة ، يكثر فيه استعمال الألفاظ والعبارات العامية .

والزجل هو لغة الشعب التى تعبر عما يجيش بصدره فى أسلوب سهل بعيد عن التعمق فى المعنى ، والزخرفة فى اللفظ ، فلا غرابة إذاً أن يكون الزجال شاعر الشعب الذى اندمج فيه ، وعاشره معاشرة الأم الحنون لأولادها ، فعرف آماله وأحس بآلامه وكشف عن أمراضه الاجتماعية التى تنخر فى عظامه وعالجها معالجة دقيقة .

لقد كتب شاعر الشعب عن الفلاح المجاهد القنوع ، الذى لا يمل بحمله المتواصل صابراً على الحرمان والفقر والفاقة والجوع ، وعن العامل المصرى وحقه المهضوم وعن السائل والمحروم ، وعن صغار الموظفين والتجار المظلومين وأجاد تصوير شخصية ابن البلد فعرف جيداً كيف يحب ويتألم صامتاً ، وكيف يجاهد فى حياته متحملا الصدمات بصدر رحب ، ثم جال فى الريف ، فاحصا آفاقه الفسيحة ، مقتنصا سوانحه البهيجة ، مرسلا أغانى الفلاحات ألحانا مشجية تملك القلوب ، ووصف الساقية والمحراث والشادوف وأيام الحصاد وغيرها ، ومن الجلى أن يكون الزجال صادقا فى كل ما ينظم لأنه يصور ما يحس به فى البيئة التى تربى بين أحضانها ، ولقد أوحت إليه تلك البيئة بنظم ما يشعر به فى أسلوب صادق رقت معانيه وتسلسلت قوافيه .

إن هذا الأدب العامى الذى ظهر فى الأزجال هو من تاريخ الأدب العربى المصرى لاحتوائه على كثير من حركات العقول ، فلاق إذاً لمؤرخ الأدب أن

يعرج على هذا النوع من الشعر العامى ليقف على تاريخ الادب العربى فى مصر .

وقال جبران خليل جبران :—

أن فى الموالى والزجل من الكتابات المستحدثة ، والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة ، والتى تملأ جرائدنا ومجلاتنا لبانت كباقة من الرياض بقرب رابيه من الحطب وكسرب من الصبايا الراقصات المترعات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة .

والنديم كان إمام الزجالين فى عصره بلا منازع . وقال كثيراً من الزجل ، ولكن لم يصلنا منه إلا النماء ، بما نشر فى صحفه ، والقليل الذى وصلنا ، يفيض شاعرية ويأتى على أكثر ما وصل إليه فن الزجل من معان وأخيلة ، وأغراض اجتماعية واضحة جلية .

ولقد ساعدت أزجاله الرائعة فى السمو بأفكار العامة وارتفاع الذوق الادبى بين الجماهير وتهذيب اللهجة العامية ، ولقد ترنم الشعب بكثير من أزجاله ولكن نفيه الطويل ورهبة الناس من الإتيان بذكره ، ساعدا على نسيان الناس لهذه الازجال وبالتالى فقدان أثرها ، ولم يهتم النديم بعد عودته من منفاه الطويل بجمعها لانه كان مشغولا بنشاطه الصحفى بمجلة الاستاذ .

وما وصلنا من أزجاله من قطع صغيرة ، قالها فى أغراض اجتماعية ، تلقى ضوءاً على فنه الزجلى بصفة عامة ، ولا جدال فى أن عدم وصولنا بمجموعة كبيره من أزجاله قد عطل مهمة درس هذا الفن الهام من فنون النديم الادبية وحرمنا لذة الاستمتاع بما وفرت به من معان رائعة وألفاظ رقيقة وسبك جميل ، تحدث الشعب عنها فى أيام شهرته ، وطبقت الآفاق ، وعد السابق المجلى فى هذا الميدان فى أيامه .

وكانت له أزجال غنائية ، يغنيها العامة ورددها مجالس الأنس والطرب وليس أدل على ذلك من الحادث الذى أتيناه فى موضع سابق ، عن تعرف شاهين باشا كنج به فى طنطا ، وكان ذلك بسبب سماعه قطعة غنائية غناها عامل صغير بصوت رخيم فلما طرب لها الباشا واستعذب فنها الشعرى ، سأل عن واضعها فقيل له : إنها من شعر عبد الله النديم فأمر باستدعائه وبدأت العلاقات بينهما . وليس من شك أن أزجال النديم ترجمت عن كل الاتجاهات الاجتماعية والسياسية فى عهده ، وكانت وسيلة من وسائله فى تعليم الشعب وترقية ذوقه الأدبى واللغوى كما كانت مرآة العصر الذى نشأ فيه .

ومن أزجاله المشهورة :

أشكو إليكم أحزانى	بل هجرانى	من أهيف صادنى نبله
أهيف بنظره فى خده	خدنى عبده	وجت سقامى تشهد له
وأدمعى نزلت تجرى	تنظر صدرى	رأت فؤادى بيرقص له
قالت لو أتلفت عيونى	قال سيبونى	سيد الملاح يعرف شغله
ما دمت أنى فى رقه	ياخد حقه	وإن مال لقتلى من أصله
أنا نديم ولا أكثر	الله أكبر	العشق ما ينكر فضله
العشق ترياق الأرواح	ويا الأشباح	ونا الذى طاب له نهله
مايعرف العشق الاجلاف	ياهل الأنصاف	ما للعذول يكثر عذله
عاقل رأى مجنون يشرب	حتى يطرب	فراح شعوره مع عقله
ومال لعذلى يتفرج	بل بيدرج	للعشق لما حان قتله
ظن الغرام قصعة فته	فوقها حتة	من لحم قد طاب له أكله
لما رآه سلب الألباب	خاف الأسباب	وراح يعضعض فى نعله
وصرت وحدى متهنى	أفضل أغنى	للحب أن شخشخ حجله

أرعى النجوم والنار تكوى قلبي المشوى والوجد كتفنى بحبله
قد بعت روحي للفتان من غير أثمان وبعت فلكي من أجله

إلى أن قال . . . . .

أخذت حبيب قلبي النخوة بعد القسوة وجا يغازلنى بدله
خطر ولكن فى قلبي بهجة لي وجاد لمسكينو بوصله
من فرحتى هرولت أبكى من غير ماشكى والدمع من كثرة وبلة
تحركت قلبو الرحمة من دى الفخمة لجابيا سمينو وفله
فقلت أحييت العانى يا إنسانى الله يجازيك بفضله
وكان ما يرجو للعاشق غير الفاسق والسر لا يحسن نقله

ومن أزجاله الرائعة ما نشره فى صحيفة التنكيت والتبكيت فى العدد الصادر فى ١٨٨١/٨/٧ بعنوان (حمل زجل عال) وفيه يتحدث عن الحالة الاقتصادية واستئثار الأجانب بأموال الأعيان ، وضياع أموالهم فى العبث والموبقات، وفيه ينعى على ضياع الأخلاق وانحدار الأغنياء إلى ما يحطم رجولتهم وينتهى بهم إلى سوء المصير :

أهل البنوكا والأطيان صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان بمعاه ولاحق الدخان
شرم برم حالى تعبان

يا ما نصحتك يا بنجر وقلت لك إوعا تفنجر
فضلت تسكر واتفنجر بما صبح بيتك خربان
شرم برم حالى تعبان

الحق عندك ياخويه يلى طليت وشك بويه
ولبست سروال بأويه ومشيت تقلد لى النسوان
شرم برم حالى تعبان

كانت عزايمك مشدودة وسط الرجال المعدودة
أمسيت وأمك مسعودة تندب رجالك والاوطان
شرم برم حالى تعبان

فت العدس وبصار البيت بالجنبرى والكستليت
فين الردة وفطير الزيت والجلو بين أكل الغيطان
شرم برم حالى تعبان

فين الزعابيط واللبدة جا للعويل مناهيده
مايفتكرهات ده وشيل ده تحت الكرابيج فى الديوان
شرم برم حالى تعبان

بعنا العمامة بالطربوش والعرى بالثوب المنقوش
صبحت بلادنا للمغشوش مورد وصانعها ظمآن
شرم برم حالى تعبان

فضك من البيت والاوضة وخد نصيحة عالموضة
يصبح بها بيتك روضة وتنام بها خمران سكران
شرم برم حالى تعبان

إن كان بدك تساير خليك نضيف ناتف داير
وطف على الناس بالداير يعظموك كل الجدعان
شرم برم حالى تعبان

إوعا تفوت دى الكاريا هباب وتمشى ماسك لك فى كتاب
يستهبلوك كل الاحباب وبعد عزك دا تنهان
شرم برم حالى تعبان

أحسن ده فن بتاع مساكين سهروا الليالى فيه وسنين

وحصلوا منه التمرين لكن رماهم فى الحرمان
شرم برم حالى تعبان
إن جئت مادح بقصائد يستحضروا لك بجرايد
وإن كان لهم بعض عوايد يقلعوك حتى القفطان
شرم برم حالى تعبان
وإن كنت شاعر أو منشى قالوا يا شيخ فضك وامشى
داحنا كلامنا فى المحشى والا طبيخ البيدنجان
شرم برم حالى تعبان
وإن كنت حرفى أو نحوى والعلم فى ذهنك محوى
قالوا أتانا بيوز ملوى يقول لنا عمر وزيدان
شرم برم حالى تعبان
وإن كنت عالم متفقه قالوا أتانا الموت حقه
دلوقت يمسك فى الحقة ويدور يمخط فى الحيطان
شرم برم حالى تعبان
وإن كنت صانع متقن قالوا أخينا دا اجنن
وبعد ما كان بيدندن صبح يقول شغلى ألوان
شرم برم حالى تعبان
شوف دى الجهاله يا سيدنا اللى جلبناها بأيدينا
حتى صبحنا يوم عيدنا تسمع بلادنا تنشدنا
شرم برم حالى تعبان

ومن الازجال التى ارتجلها فى المساجلة الشهيرة التى نظمها شاهين باشا كنج مفتش الوجه البحرى بينه وبين كبار الزجالين فى طنطا وتفوق فيها النديم نأتى بجزء منها فيما يلى :

الشيخ أول كلامى حمد الله | ثم الصلاة على الهادى
ماذا تريد يا عبد الله | قدام أميرنا واسيادى
النديم أنى أريد أحمد ربى | بعد الصلاة على المختار
وإن كنت تطمع فى أدبى | اسمعك حسن الإشعار
الشيخ دعنا من الأدب المشهور | وادخل بنا باب الدعكة
ندخل على اسيادنا بسرور | ونعيم الخير والبركة
النديم هات احتكم فى البحر وشوف | فن النديم ولا فنك
دلوقت تسمع يا متحوف | أحسن أدب وحياة دقنك

الشيخ هات مدح فى الحضرة على قد : —

تعمل عما يلك يامنصان | يا أبو الشفيعة العسلية
ياصاحب الحجل الرنان | ودى الأمور الحيلية
ماذا تريد من دى الولهان | قل فى واسعف
أحسن أنا من خمر الحان | قصدى أرشف
وإن كنت تسمع يا بو الخير | يبقى الوصال الدوالية
النديم المجلس العالى محمود | فيه الأمارة والأعيان
واليوم دا يوم مشهود | خلعت عليه حلة إحسان
شاهين باشا فيه موجود | حظو أزهر
أما المدير هذا المسعود | جعفر مظهر
فإنه فى الناس معدود | من ضمن أرباب العرفان

إلى أن قال : —

اسمع كلام نديم من طيه كل سرور واعقل نصيحة خبير
يدعوك للعرفان

واستمر النديم يبحث بزجله على النحو المذكور ، حتى أخذ بفنون الزجل على أنواعه وهو فى الحلبة السابق المجلى !! فصفق الباشا والحاضرون ، ثم عاد

النديم للزجل المعتاد واستمر ثلاث ساعات (بما يطول ذكره) وكان أحد الحاضرين وهو الشيخ رمضان يكتب ما يتلى عليه من زجل ، فجمع خمسة كراسات منها . وتعد هذه المساجلة الزجلية من أروع الاحتفالات التى بزغ فيها نجم النديم كأكبر زجال شعبي فى عهده ، وقد جاء فيها :

(دور)

مجلس عليه حسن مهابة — كأنه مجلس سلطان
والحاضرين أهل نجابه — وينقدوا قول الإنسان
أترك بقى شرب الغابة — وأنشد نسمع
وإن كان تغنى بربابه — تطرب مجمع
حسن الكلام مثل سحابه — تمطر على شجر البستان

الشيخ :

القصد منك يانديمنا — تعمل زجل هيله بيله
إلا انت دلوقت غريمنا — قصدى أحدفك بالقلقيلة
وإن كنت تجهل تقريمنا — أسأل عنا
أوعا تعيب فى تكليمنا — واحذر منا
أحسن أوديك لعظيمنا — يشيلك ألفين شيلة

النديم :

اتنا صغار لسه نونو — فى الزجل منتش مجدع
اتبع نديم تلقى فنونو — تأتيك من المعنى الأبدع
أما عظمك وجنونو — يأكل نفسه
وإن كان يعارض بمجونو — يطلب عكسه
لأن فنى وشجونو — لكل متغنظ يردع

الشيخ : ....

النديم : اسمع كلام نديم — من طبعه كل سرور — واعقل نصيحة حر

يدعوك للعرفان

لا تستخف بخصم لو كان من ادهى الطيور واصفح فكل صفوح

يعلو على الأعيان

وأخش اللئيم دواما فاللؤم داع للشرور واحفظ مودة حر

فى عهده ما خان

لا تصطحب بوضيع ينزلك عن سرج الظهور واصحب أخى شريفاً

واطلب رضا الاخوان

وانزل ببيت كريم إن كنت ضيفاً فى العبور واسمع سؤال فقير

أودى به الحرمان

هـذه نصيحة حر قد جرب الدهر الجسور أن كان يعجب هذا

أولا نخذ تبيان

فالبحر بحر لآلى أن قلدت زانت النحور والفكر فكر ذكى

لا يعرف النسيان

ثم قال : نخر مثلى فى بيانه — والغبى يفخر بماله

والأدب أحسن صفاتى — فالذكى حسنو كماله

واللبيب يظهر بعلمو — والغلام بجده جماله

كل قول المرء يغنى — غير محمود المآثر

ثم قال : الفلوس حظ المفلس — والجعيدى والحرامى

والعلوم روض الأكابر — لطفها فى العقل نامى

والمضاحك والمساخر — ما لها دخل فى كلامى

كل مضحك بين قومو — مسخرة للمجد خاسر

ثم قال : كل ما فى الكيس يفارق — يا داود اسمع وفكر

والفخار والمجد كاو — فى العلوم فاطلب وبكر

وإن تكن شيخ حق عالم   فامش بين الناس وذكر
تحى كل الناس بعلمك   بل ترى المجموع شاكر

ثم قال :

من يوم ماعرفتك والفؤاد ولهان   فى حسنك الزاهى النضير
والخد من دمع العين ريان   تجرى عليه كالغدير
أبيت ليلى بالأرق سهران   بين الكراسى والسرير
وكل وردى فى الدجى آه آه   من يستطيع من يصير

* * *

قلبى المعذب فى لهيب الخدود   والوجه فى الاحشا جحيم
بالله من أوراك باب الصدود   لقتل مضناك العديم
أين الوفا يامنيتى بالوعود   ورقة القلب الرحيم
اواه من نار الجفا أواه   لو يعشق الريم يغدر

* * *

قدكان فى سعد السعود خدام   لما التقينا فى الطريق
وقلت بالحاجب أروح قدام   وأنت ورايا ياصديق
قصرت انظر للقوام القوام   وعادل القد الرشيق
حتى ملكت الروح وأروحاه   لو يرجع اليوم ينظر

وقد استخدم النديم أزجاله فى نقد الرذائل والخروج على التقاليد الدينية ونورد هنا نموذجاً منها :

اسمع حكاية تهدى الشوق . لابن الذوق   وتعجب الانس والجان
رأيت جدع فى أيده مكبة   زى القبة   فقلت أهلا بالمنصان
مديت أيدى أكشفها   لأجل أعرفها   قال لى ارتجع ياشيخ رسلان
فقلت أنا بدى اتفرج   حد محرج   قال لى تعالى فى البستان
طاوعت شورته ومشينا   على رجلينا   حتى رأينا غصن البان

دخل يهرول قدامى	مع الاقدام	وإنا مداه أجرى وتعبان
رأيت جماعة فى قاعة	تلك الساعة	جملة شيوخ ويا شبان
والكاس على إخوانناداير	والواد جابر	يسقى ويفرق دخان
قلت السلام يا أهل الحانه	من شيخ بانه	قالوا السلام ياشيخ الحان
قرب تعالى وخد لك كاس	زى النـاس	فقلت أنا عطشان وجعان
نادوا وقالوا للخـادم	قوم يا راسم	وهات لنا لحمة خرفان
قام الولد زى العفريت	ويا بخيت	وجاب طعام أشكال والوان
قالوا اتفضل يا شيخنا	قوم جابرنا	وكل معانا يا إنسـان
فقلت أنا ياناس صايم	الله دايم	أنتم تركتم للأديان
قالوا صيام إيه ياسيدنا	إيدك بإيدنا	دا اليوم تسعتاشر شعبان
فقلت شعبان يا حسرة	فاتت عشرة	وستة أيام من رمضان
قالوا غلطنا فى حسـابنا	بين أحبابنا	نفطر ونقضى طول الزمان
فقلت أنتم سكرانين	يا مجـانين	خرقت مدافعنا الآذان
قالوا بنحسبها تعـليم	أو تكريم.	لضيف أمير أو لسلطان
قلت اختشوا وارموا الكاسات	يكفى حسرات	ليه دى الهلاك وإيه دى الخسران
ضحكم وقالوا خسرنا إيه	سيدنا البيه	صار له عشر أيام عيان
واحنا جينا له بنسليه	كاس التنبيه	من الدكاتره أهل العرفان
قلت الدكاتره حكموا الآن	ع العيـان	وليه فطر علان وفلان
قالوا احنا موضه ألافرنكه	روح للخانكه	للفلاحين أهل الإيمان
ضحكت أوربا على عقولكم	لجل تطولكم	بالخمر والقول والنسوان
شوفوا الخمرجى صبح صايم	من غير لايم	وانتم صبحتم فى عصيان
صلوا وصوموا ياسيادنا	مثل أجدادنا	واستغفروا المولى الديان
الله بفضـله يهديكم	كى . ينجيكم	يوم تغنموا منه الغفران
قوموا نصـلى أوقاتنـا	مثل إخواننا	ونعبد المولى الرحمن

ضحكت على عقولنا الخواجات | والدين مات | والكل يتهاون غفلان
اللى يقـــلد أوربى | فى دى الشرب | ما يقلده فى حب الأوطان
عجب عجب حتى التخريف | وصل الريف | والخمرة تشرب على الكيمان
تلقى العمد قبل الإمساك | شربوا الكنياك | فانظر صيام من بات سكران
باعوا الفدادين للأروام | بالأوهـــام | وأصبح الوطن غلبان
من بعد ما كان دواره | قدام داره | صبح يخاف ياقى الضيفان
كان الخواجه خدامه | فى أيامـــه | والآن بيرعا له الخرفان
والبيه صبح باع الألماس | فى حب الكاس | والبيت وساعته والغيطان
أما الأفندى بسلامته | قول يا ندامته | صبح يشبح من الإخوان
وابن البلد دما تنساهشى | لمـــا تمشى | تلقاه من البيره عميان
اسأل بقى جرجى وينى | مش تسألنى | تلقى الفلوس راحت اليونان
تلقى الفلوس فى إيطاليا | أو ألمـانيـا | والا فرنسا يا نعسان
كانت بلادنا كالجنـة | لأهـل الرنة | صبحت لأهليها لومان
ياميت خسارة وندامة | والله غرامه | نبيع بكاس خمره الأوطان
فوقوا بقى يا ولاد اليوم | من دى النوم | إلا العزيز منـكم ينهان
وتنبهوا يا أهل الحفلة | من دى الغفلة | وعضدوا نايب السلطان
هو الخديو ده سيدنا | ياخد بيدنا | ويحفظ الدين والأوطان
الله يديم عزه ونصره | ويحفظ مصره | من كل عادى أو طمعان
يارب اصلح حالتنا | مع دولتنـا | وتب على العاصى الغفلان
ووفق الأمـة للخير | وادفع للغير | واحسن ختامنا يا رحمن

ولعلنا نستطيع بعد هذا العرض ، أن نلاحظ تطور الفن الزجلى عند النديم ، فهو فى أول أمره ينشىء الزجل لغير ما غاية سوى إظهار براعته ، فهو يرتجل الزجل ارتجالا رداً على طائفة الأدباتية ويدور زجله حول

أغراض لا تخرج عن تحقير شأن منافسيه والمدح فى كبار القوم والحكام استدراراً لعطفهم وكسباً لوفدهم وعونهم ، ثم إذا فرغ من المديح والثناء اتجه إلى الموضوعات السهلة كضرب الأمثلة الشعبية أو التغنى بجمال الحسان والغزل بالأحباب ثم تحول بالزجل إلى عرض المشاكل الاجتماعية .

وفى الزجل الأخير يهدف إلى هدف فهو يقص قصة متماسكة فى وحـــدة متناسقة ، يتحدث فيها عن المستهترين بتقاليد الدين ، المفطرين فى الصيام دون حياء ،ويتهكم على الذين يعاقرون بنت الحان ، وهو أيضاً لا ينسى الغرب لأنه كان السبب فيما ابتلى به المصريون من تقليدالأجانب فى الموبقات ، ويتحسر على الفلاح الذى أدمن الخمر ، فضاعت أطيانه وأصبح أجيراً لدى الأجنبى ثم يحث الناس على الصحوة من تلك الغفلة ، طالباً منهم انقاذ البلاد بالالتفاف حول الخديو ليأخذ بأيديهم ويحفظ الدين والوطن ثم يدعو إلى الله أن يصلح الحال ويوفق الأمة إلى الخير .

النديم زعيم الخطابة فى الشرق العربى :

مقدمة :

ليس يؤثر عن العرب فى الجاهلية سوى خطب الكهان ، وكانت الخطابة معروفة فى ذلك الوقت ، يمارسها الرؤساء وذوو الرأى فى القبائل ، للمناشدة والاستفسار والدعوات الاجتماعية المختلفة ولكن آداب الجاهلية من شعر وخطابة عفا آثارها الإسلام ، لما كانت تحويه من نخوة جاهلية وإشارات عن شعائر وثنية .

ثم جاء الإسلام فخطب النبى كما خطب الخلفاء الراشدون ، ولم تكن الخطابة فى ذلك العهد قاصرة على ذكر الموت والزهد والتحذير من الدنيا وزخرفها ، بل كانت تتضمن الحوادث وأخبار الأمة . . . وصارت خطبة الجمعة منذ ذلك الوقت من أركان الدين ، وكان القواد العسكريين يحضون

بواسطتها على منازلة الأعداء ، واستمرت الخطابة فى نهوض ونمو حتى عهد الحكم الأموى فظهرت الخطب السياسية ، وصار للخطابة شأن وفن يمارس ولما جاء العهد العباسى ، وهو فى اعتقادنا سبب انحطاط شأن العرب . لنزوع الخلفاء نزعةدينية بحته ، فصارت الخطب تنسخ نسخاً وتحفظ حفظاً ، فيفيض سجعها غثاثة ، ويشبه أولها آخرها فى قلة المعنى واتساق الفهاهة .

ثم اجتاح المغول الدول العربية ، ومحوها من الوجود إلا صورة أبقوها فى الخلافة الإسلامية ، وحكموا الشعوب العربية من كرد وترك وأفغان وسائر الأمم الآسيوية ، وظلت الخطابة العربية على ما كانت عليه من انحطاط وضعف فى آخر العهد العباسى ، لا يتعدى أثرها الجوامع والبيع ، حتى ظهر عبد الله النديم فى أواخر القرن التاسع عشر فدخلت الخطابة بفضله فى طور جديد ، فانتعشت بعد خمول ، واستيقظت بعد سبات عميق ، حيث لم تشهد مصر منذ تاريخها الطويل خطيباً يدانى النديم فى بلاغته وفصاحته وقوة تعبيره وشدة تأثيره فى الجماهير . فقدكان خطيباً مطبوعاً من الطراز الاول ، له مواهب خارقة من قوة التعبير وانطلاق النفس والبحر الفياض من المعانى واللغة وكانت له ملكات أخرى تقوى خطابته وتدعمها من شعر وأدب واطلاع وافر فى شتى العلوم السياسية والاجتماعية والدينية ، وقد أعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعى العجب ، فما هو إلا أن يحرك لسانه حتى تتدفق الألفاظ وتنهال عليه المعانى ، فتأخذ باللب وتأسر القلب .

تملك ناصية القول ، وبلغ من قوة نفوذه إلى النفوس حداً أيقظ به شعور الأمة الوطنى . ومهد للثورة العرابية ، ثم ساق بها الشعب إلى الحرب خلف الأحرار ، وألهب شعور الوطنيين ، فنفرو خفافاً وثقالا ليجاهدوا فى سبيل الوطن .

وكان أول خطيب مصرى يقف بين الحكام وقادة الرأى العام وأصحاب

السلطة والنفوذ ، ويخطب فى الأماكن العامة ، ولقب « بخطيب الشرق » و « محامى الوطن » و « محى الوطنية » ، وأطلق على محافله الوطنية « سوق عكاظ » و « معرض باريس » .

كان الخطيب المقتدر الذى أوتى البيان الساحر القوى فى سهولة ويسر ، تتدفق الألفاظ والعبارات من فمه كتدفق النهر ، تسرى فى ثناياها معانيه قوية كالنار ، ثائرة صاخبة كالموج الهادر ، وحينا هادئة رخية كالنسائم الندية :

لقد خطب فى كل مكان ، فى المدرسة ، وفى الندى ، فى القرية وفى المدينة ، بين الأقطاب والقادة ، وبين الجماهير والدهماء ، خطب بين الناس فى حفلات أفراحهم وفى مآتمهم ، كان معبود الجماهير والأثير عندهم بكل حب وإعزاز .

وقد كانت رسالته الخطابية إبان الثورة العرابية بمثابة اللسان المعبر عن سياسة وأهداف الثورة وبوقها العالى بل كان بمثابة وزير الدعاية للعرابيين .

ولو انفرد النديم بتلك الموهبة ، لكفاه أن يكون بها أحد أقطاب التاريخ ، فليس العظيم هو الذى يفتح المدائن ، ويحرر الأمم ، ويرفع شأن وطنه بالسيف والمدفع ، بل أن هناك رجلا أعظم ، ذلك هو الذى يفتح القلوب ويرسم عليها ما يشاء من ضروب الوطنية ونغمات محبة الأوطان .

فالرجل الذى يستطيع بقلمه ولسانه أن يكون قلوبا حساسة ، تدرك ماهية حب الوطن ، وتضحى بكل نفيس فى نصرته فهو فى مرتبة أجل وأسمى من غيره ، وهو الخليق بأن تسير بعظمته الأمثال .

إن الذى يعتمد على القلم واللسان ، فيملى عليهما ماوهبه الله من علم وبيان ، ويسحر بهما القلوب فيجمعها فى قبضته ليصوغ منها أمة حية راقية لهو أعظم مشيد للمجد فوق أمتن الأسس ، وكيف لا يكون عظيما من يملك القلوب وهذه القلوب هى الحياة مجتمعة !!

كان النديم عظيما لأنه حمل قلبا كبيرا ، وفؤادا حساسا ، امتلأ بالتفانى فى إعزاز البلاد والتضحية فى سبيلها ، فكان برا بالفقراء واليتامى من نديها ، داعيا الأغنياء والموسرين للإنفاق فى سبيل تعليمهم وتثقيف عقولهم وتذليل أسباب الرقى فى حياتهم . والعظيم مع هذا القلب الرحيم بالمساكين وأبناء السبيل ، يتحتم عليه أن يكون شديد البطش بالخائنين والمنافقين ، فكان النديم كذلك حربا على أعداء الوطن ، ولكم أثار النفوس عليهم بخطابته الملتهبة .

أعدت العناية عبد الله النديم لا ليكون أول خطيب فى مصر فحسب بل فى الشرق العربى كله ، ليعيد للخطابة العربية مكانتها الأولى ، وأثرها فى رقى الشعوب ونهضتها ، فكان أحسن مثال لمن جاء بعده من الخطباء المشاهير فى تاريخ مصر الحديث .

كان ذا لسان عالى ، وبيان واضح وبرهان ساطع ، وصوت جهورى وعبارة فصيحة ، فاستطاع أن يبلغ من التأثير فى سامعيه فى ساعة مالم يبلغه قلم سيال فى أشهر وأعوام !! وأسمع العالم صوت أول خطيب مصرى ينادى بالحرية والمبادىء الدستورية ، وليس أدل على مقدرته الخطابية ، واستعداده العجيب ، من وقوفه فى المجلس الواحد عدة مرات ، متحدثا فى يسر وقوة ، دون لجاجة ، فى معان مختلفة ومناسبات متنوعة ، فلا تخمد جذوته ، ولا تخف حدته ، ولا تهدأ قوته ، حتى لكأنك تظن أنه وصل ليله بنهاره فى تحضير خطبه ، وحفظ معانيها ، واستيعاب موضوعاتها .

فحين وقع الخديو توفيق المرسوم بصدور الدستور فى ١٨٨٢/٢/٧ ، وعرض رسميا على نواب الأمة فى ١٨٨٢/٢/٨ ، أقامت الأمة ممثلة فى نوابها حفلات الابتهاج لهذه المناسبة فكانت جميع الحفلات بدون استثناء مجالا لخطابة النديم، ومن أهم هذه الحفلات ، الحفلة التى أقامتها جمعية المقاصد الخيرية

فى ١٨٨٢/٢/١٣ وكانت حفلة رائعة ، جمعت كل مظاهر الفخامة ، حضرها محمود سامى البارودى باشا وعرابى باشا وبقية الوزراء وعدد جم من كبار الضباط والعلماء والنواب والأعيان،فازدحم بهم المكان ، ولما اكتمل جمعهم ، نهض خطيب الثورة عبد الله النديم وافتتح الاجتماع بقصيدة كان لهـا وقع جميل فى النفوس ، ثم شكر الحاضرين على إجابتهم الدعوة واحتفالهم بالتصديق على لائحة النواب (الدستور) ثم دعا إبراهيم افندى اللقانى إلى الخطابة ، فألقى خطبة أبان فيها الفـــرق بين ما كانت عليه البلاد من الاستبداد ، وما صارت إليه من الحرية والشورى ، وبعد أن أتم الخطبة قام بعده عبد الله النديم وأثنى على الخطيب وعقب على كلامه مبينا فضل العهد الجديد على العهد الماضى ، ثم دعا إلى الخطابة ، مصطفى افندى ماهر ، فتكلم بما أملته روح الشباب ، وحث على الاجتهاد فى تحصيل العلوم والفنون ، واستحث الأغنياء على إنشاء بنك أهلى ، يستغنى به الأهلون عن الاقتراض من المرابين بالفوائد ، وانتقل من ذلك إلى النصح بالاتحاد بين جميع طوائف الأمة ، وائتلاف الكلمة .

وبعد أن انتهى من كلمته نهض النديم وعقب عليه بالإفاضة فى بيان أهمية التربية الابتدائيه والوجوه اللائقة فيها ثم دعا إلى الخطابة الشيخ محمد عبده خطيب الجمعية الرسمى ، وكان وقتئذ رئيس تحرير الوقائع المصرية ، فألقى خطبة ، ضافيه أبان فيها مزايا الحكومة الدستورية ، ثم دعا النديم أديب افندى اسحاق الكاتب الأول لمجلس النواب ، فقام وألقى خطبه عبر فيها عن شعور النواب وتضامنهم مع الوزراء فى كل ما يجلب الفخر للبلاد ، وبعد أن ألقى كلمته ، جلس الخطباء فترة يستريحون من تعب الخطـابة ، وأخذ الحاضرون يتذاكرون فيما سمعوه من خطب . وحصل حوار بين النديم وبعض الحاضرين فيما ذكر من أساليب التعليم ، ثم انصرف المدعوون ، فى غاية السرور والغبطة .

وهذا الاجتماع يعطينا فكرة واضحة عن مقدرة النديم الخطابية وقدرته على الوقوف فى المحفل الواحد خمسة مرات ، وإلقاء خمس خطب ، فى موضوعات مختلفة .

وفى ١٩/٢/١٨٨٢ أقام النائبان أحمد محمود وإبراهيم الوكيل حفلة أخرى ابتهاجا بالدستور ، حضرها الوزراء والنواب ، وخطب فيها لفيف من النواب والأدباء ، وكان النديم هو الخطيب الأول فى هذه الحفلة فبعد ماخطب أديب اسحق أعقبه النديم فى الحديث عن وجوب التمسك بالحقوق النيابية ورعاية الواجب لكل فرد واجتناب التقصير وملاحظة قيم النفوس وأقدارها ، ثم تحدث الطالب فتحى زكى فأعقبه النديم ، ثم إبراهيم اللقانى فأعقبه النديم ثم فتح الله صبرى ثم الإمام محمد عبده ، ثم أعقبه النديم وتلا عدة آيات من القرآن الشريف وشرح كل آية منها شرحا بليغاً ، بما يناسب الظروف القائمة ، داعيا التمسك بما تحمله الآية من معان وبيان ، وما تدل عليه من حكم ، ثم حث على رعاية الذمة وحفظ العهود وحسن المعاشرة ومجاملة الاجانب وملاينتهم والسير معهم بما يقتضيه قانون الاخوة الإنسانية ثم قام أحد الضباط وارتجل خطابا بليغا وحث فيه على التمسك بخلق الشجاعة والاتحاد وقام بعده النديم وشرح عبارته مؤيدا لها بقصيدة من نظمه ، كان لها أجمل الموقع فى النفوس .

وفى ٢٢/٢/١٨٨٢ أقام أحمد بك أباظة حفلة فى منزله بالقاهرة ابتهاجا بالدستور ودعا إليها النواب والوزراء والعظماء وقد افتتحها عبد الله النديم بخطبة حث فيها على وجوب رعاية صلات الجوار والمعاشرة للأجناس بكمال الملاينه والمحبة لأنهم أخوة فى الإنسانية والكل يرجع إلى أصل واحد ثم قام الشيخ محمد عبده وألقى خطاباً بليغاً بين فيه مزايا الحكومة الدستورية ونوه بفضل المساواة والحريةوقام بعده عبد الله النديم خطب حاثا على توسيع

دائرة الصناعة وتكبير مداها والتفنن فيها لتكفى البلاد وتكسب أبناءها ثمارها وبركات أرضها ، وأفرغ كل ذلك فى قالب بديع فكان لخطابه الوقع الحسن فى نفوس السامعين ، ثم قام إبراهيم اللقانى ، وخطب بفضل هذه الحفلات ثم قام النديم وعلق على خطبه ثم قام فتح الله صبرى ، ثم أعقبه عبد الله النديم وتكلم عن وجوب مساعدة الفلاح لشدة حاجته إلى وجوه الاصلاح المختلفة ، ودعا الأغنياء إلى الاخذ بيده وبذل الجهود لانقاذه من الديون التى أثقلت كاهله وهنا ذكر منقبة حسنة لاحد الأعيان فقال انه أدى عن أهل بلده مبلغا قدره خمسة آلاف جنية ، فلم يبق أحد مديونا لأجنبى .

ثم قام احد الجنود فتلا خطابا عن حفظ الجوار ورعاية الذمم ، فقام بعده النديم معلقا على ما جاء فى خطاب الجندى ، متنقلا الى موضوعات شتى

وأقام أحمد بك يكن احتفالا فى بيت منصور باشا يكن ، حضره العظماء والوزراء وكان النديم أهم خطباء هذا الحفل ، كذلك اقام محمد بك طاهر حفلة دعا إليها الوزراء فكان النديم أحد الخطباء الميامين ، وأقام شبان الاسكندرية حفلة ابتهاج بالثغر دعوا إليها النديم فقدم من العاصمة وحضر الحفلة وخطب فيها .

وقد تحدثت جريدة الوقائع المصرية عن جميع هذه الحفلات وأطنبت فى وصفها . وأتت على كل ماقاله الخطباء فيها ، ونحن نخلص منها بفكرة واضحة عن أثر النديم الكبير فى عهد الثورة العرابية ، وكيف كان خطيباً مشهوداً له ، يدعوه العظماء والكبراء ليكون الخطيب المجلى ، والمتكلم الأول فى حفلاتهم ، وقد تكلم عن الموضوعات الحيوية التى تمس كبريات الأمور ونحن نلاحظ منها النقط الهامة الآتية :

١ — أنه كان يفتتح الحفلات بكلمة وطنية ثم يقدم الخطباء ويتحدث معقباً بعد كل خطيب ، بما يتصل بأقواله موضحاً إياها من كافة الزوايا .

٢ — أن معظم خطباء هذه الحفلات بما فيهم عبد الله النديم من تلاميذ

جمال الدين الأفغانى . واستمدت هذه الخطب طابعها من عبارات وأسلوب الافغانى ، وهذا يدل على الأثر الكبير الذى تركه الأفغانى فى مصر .

٣ — أهم الموضوعات التى كانت محور خطب النديم تتلخص فيما يأتى :

(ا) الدستور ، وأسلوب الحكم الدستورى ومزاياه وأسس الحياة النيابية والحقوق والواجبات المكلف بها المواطن المصرى .

(ب) السلوك الوطنى السليم مع الأجانب الذين يعيشون بالبلاد ووجوب حسن معاملتهم ومعاشرتهم وحفظ العهود .

(ج) التسامح الدينى وتجنب التعصب بين المسلمين وغير المسلمين ، وقد سبق جميع الخطباء العصريين فى المناداة بتأكيد العاطفة الإنسانية ، أى احترام الإنسان لأخيه الإنسان أيا كان دينه أو جنسيته أو وطنيته والعاطفة الإنسانية تفوق العاطفتين الدينية والوطنية فى الاتساع .

(د) تحدث عن الصناعة ووجوب تحسينها وتقدمها وزيادة نشاطها .

(ه) تحدث عن الإصلاح الريفى وتحسين أحوال الفلاح المصرى من النواحى الاجتماعية والاقتصادية .

وهكذا كان النديم أول خطيب فى مصر ، سير الخطابة فى شتى النواحى من اقتصاديه وسياسية واجتماعية وقومية ، وأصبح بحق رائد الخطابة فى الشرق ، فقد استحدث أغراضا جديدة وفتح لها آفاقا متسعة ، ومهد سبيلها لمن جاء بعده من الزعماء الوطنيين أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول . . الخ .

وحينما سافر أحمد عرابى فى ٦ - ١٠ - ١٨٨١ إلى الشرقية وكان برفقته النديم ، كان يخطب فى الجماهير فى كل محطة يقف عندها القطار ، شارحا وموضحا أفكار رجال الثورة مؤيدا أقوال عرابى .

* * *

أثر النديم فى الخطابة العربية

الخطابة السياسية :

كان أول رائد للخطابة السياسية فى العصر الحديث ، وعلى منواله ظهر أعظم خطيب سياسى فى الشرق العربى فى النصف الأول من هذا القرن وهو مصطفى كامل ، وبدأ النديم خطابته السياسية فى الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى التى أنشئت عام ١٨٧٨ وكانت تعقد بها حلقة خطابية مسائية بدارها ، ويتحدث فيها الخطباء عن شتى المشاكل السياسية والاجتماعية والأدبية ، وقد ذكرنا عنها آنفاً فى معرض الحديث عن نشر التعليم الأهلى وإنشاء المدارس .

الخطابة المدرسية :

كان النديم أول مدرس فى الشرق العربى اعتمد على تدريب الطلاب الصغار فى المدرسة الابتدائية على الخطابة كوسيلة تربوية صالحة لتكوين المواطن الصالح فى المستقبل ، فهى تدرب على الاعتداد بالنفس والثقة بها ، والشجاعة فى إعلان الرأى ، فى النشء ، وكان أول من أنشأ الجماعات المدرسية الخطابية . وقد استعان بطلبته فى سبيل نشر الوعى القومى أثناء الثورة العرابية .

الخطابة المنبرية :

كانت الخطابة منذ نهاية العهد الأموى إلى عهده قاصرة على المساجد وقد اتخذت لها ألواناً باهتة ، فأكثرها يتلى من صور محفوظة لا تحوى إلا معانى الزهد والتحذير من الدنيا وذكر الموت والتهديد بالعقاب فى الآخرة ولا تعنى بشىء من حق المواطن فى مساءلة حكامه فى ظلمهم ومساوئهم ، غير مهتمة بالأسس الاجتماعية السليمة التى نادى بها الدين وشرعتها الشريعة السماوية السمحاء فدعا النديم إلى إصلاح الخطابة المنبرية ، وذكر أن ضعفها

وانحطاطها من أسباب ضعف الامم الشرقية واستكانتها ، لاقتصارها فى المساجد على هذا الوضع الذى لا يمس الحياة الواقعية بأى حال من الأحوال .

فدعا إلى وجوب مجاراتها الاوضاع القائمة والخروج بها عن الجمود التقليدى ثم وضع عدة خطب منبرية (على سبيل المثال) : آية فى الروعة وجلال المعنى ، ودعا وزارة الاوقاف إلى الاستعانة به فى وضع خطب الجمعة، وطبعها ونشرها بين الوعاظ للإسترشاد بها ، وهو يرى ان هذه الخطب يجب أن تسجل المعانى الآتية :

١ — الحث على المحافظة على حقوق البلاد .

٢ — النهى عن الظلم .

٣ — الدعوة إلى التسامح الدينى والاتحاد الوطنى بين جميع المواطنين . على اختلاف أديانهم فى سبيل المصلحة العليا للوطن .

٤ — الالتفاف حول الخديو .

٥ — معاملة الأجانب والنازحين بالحسنى ، والتحذير من إتيان عمل يؤدى إلى تكدير العلاقات وتدخل الاجانب .

ومن ذكريات آثار النديم فى مجال النهضة الخطابية فى عهد الثورة العرابية ما كتبه أحمد شفيق باشا فى كتابه « مذكرات نصف قرن » .

«انقلبت مصر مسرحا للخطابة ، فى كل مجتمع وناد ، حتى فى المساجد ولم يبق مجلس للسمر أو احتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واحتلوا منصة المغنيين .

وكثيرا ما كان النديم أو الخطيب يصطحب معه بعض الطلبة من المدارس ، يقدم أحدهم للجمع ليخطب فيهم إلى جانبه ، وينبرى الطالب مثيرا فى الحاضرين القوة والحمية ، وقد شاهدت عبد الله النديم يقدم فتحى زغلول الطلب بمدرسة الحقوق ليخطب ، وقدم مره أخرى فى إحدى الحفلات الطالب مصطفى ماهر .

نموذج من خطب السيد عبد الله النديم

الخطبة التى ألقاها توديعا للزعيم أحمد عرابى يوم سفره بالوية إلى رأس الوادى بالشرقية يوم ٦ / ١٠ / ١٨٨١ :

سادتى وإخوانى وآبائى :

خبرونى عن محفلنا المشتمل على الألوف المؤلفة من الناس ، فى أى أرض هو ، وبمن احتفل ؟ أنحن فى ساحات باريس تحتفل بخطيبها السياسى الاريب أم نحن فى لندره تزدحم على مجلس الشورى تسمع مايقال فيه أم هذه أسود عنمت الفريسه ونحن ننظر إليها ، أم أنتم نجوم حول بدر فى السماء ، وأنا أتصور إننا على ظهر الكرة ، أم هذه العصبية الوطنية جاءت لتوديع الجيوش المصرية ومطلع الحرية أحمد بك عرابى (تصفيق حاد واستحسان) . .

أرونى أمة بلغت مناها   بغير العلم أوحد اليمانى

قضت علينا الشقوة بوجودنا فى زمن الخسف ومدة الاستعباد ، فرأينا المشنوق من أهلنا والمصلوب والمجروح والمذبوح والمحروق ، والموضوع على الخازوق والمشرد والمغرب والمنفى والمسجون ، والمنكوب والمسلوب ، ولا ذنب لنا فى هذا كله إلا المحافظة على البلاد .

ثم رأينا الدور الثانى فشهدنا جنازة المسموم والمخنوق وودعنا المنفى ولا جناية لهؤلاء إلا المطالبة بحقوق الأمة .

ثم وصلنا إلى الدور الثالث فرأينا مساعدة الأجنبى واكرامه وتكثير العطية وتسليمه أزمة الكثير من أشغالنا ، وإذلال الوطنى ، واضاعة حقه وتركه فى زوايا الاهمال . فوقفنا عند هذا الحد وسعينا فى طريق الاتحاد وجمع القلوب وقلنا لا تطبق بمثل هذه الأصوات إلا فى خلوة بصوت الهمس ، حتى أدركتنا العناية الإلهية بإشراق شمس التوفيق علينا فرفعنا

بها الصوت إلى حيث يسمع من تصغ أذنه على فم المتكلم ، وما زلنا مجدين في هذا الطريق الخطر حتى أعربت الجيوش عن ضمائرنا ، وترجمت الحمية عباراتنا ، ونادى الجند المظفر المنصور بحقوق الأمة بين يدى أميرنا الجليل، فأنعم وتفضل ، ومن وتفضل وتكرم ، وأعتق من أرق وحرر ، فاستأسر النفوس بانعامه وتملك القلوب باكرامه فكأننا الآن ننادى بألسنتنا بصوت يسمعه القاصى والدانى : يموت الاستبداد ، وتعيش الحرية ، يعدم المستبد ويحيا توفيق الأول ، يهلك الجبان ويبقى جيش الحمية .

الرأى قبل شجاعة الشجعان　　هو أول وهى المحل الثانى

وقد أخذتم بالحزم وتمسكتم بحبل الاتحاد حتى رفعتم إلى المقام الأعلى واعلموا أن مثلنا مثل من كان فى بئر لا سلم لها ، فابتدأ يحفر السلم بعناء وجهد ، وكلما حفر طاقة وضع قدميه عليها ، وارتقى بغيرها حتى وصل فم البئر بعد اليأس من الحياة . ورأى شجرة تدلت أغصانها ، وقد خيم فيها العنكبوت فان تعلق بحبل العناكب هوى وتهشم ، وكانت النكسة شراً من الداء ، وإن تعلق بالأغصان نجا وخرج من ذلك المضيق .

ونحن إن شاء الله سنقبض بالحزم والهدوء على أغصان شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تلك وحدة الاتحاد الوطنى والجد فى طريق التقدم ومنع التهور والتظاهر بما يجلب علينا السرور . وليست الحرية تتبع الشهوات البهيمية والأغراض الذاتية ، وإنما هى معرفة للحقوق والواجبات ، والسير تحت لواء الإنسانية بالتؤدة والسكينة .

فما الفخر فى جمع الجيوش وإنما　　فخار الفتى تأليف قلب العساكر

ونحن الآن لسنا فى أرض مصر لا يرانا إلا أهلنا ، ولا يعرفنا إلا نزلاؤنا ، بل نحن فى رءوس السياسيين فى سائر الممالك ، تقلبنا الأفكار

على أكف السياسة وتشخص أعمالنا فى ملاعب العقول ، ومن سكن رءوس العظماء وأشغل الملوك بعمله كان حقيقا بنظر العواقب ، حذراً من سوء الطوارىء ، معداً لكل سؤال جواباً ، ولكل مناوش قوة . لا ينام إلا متى آمن ، ولا يقوم إلا بفكر ، ولا يبحث إلا عن الدسائس وإخماد نار الفتنة ، وقد جعلنا هذه المصائب حملا على عواتق وزرائنا ، وكتاباً بين يدى خديوينا وهم لا يقوون على هذا الحمل الثقيل إلا بخضوعنا وسكوتنا وحفظ علائق الأجانب النازلين بأرضنا وطاعة أمرائنا فيما يأمرون به من دواعى الإصلاح .

وقد كفاكم من الفخر أنكم ملكتم زمام الحرية مع حفظ الأرواح بعد أن علمتم أن فرنسا قد بذلت فى الثورة الفرنسية والقضاء على الباستيل عشرات الألوف من الأرواح وأضاعت مئات الألوف من الأموال ، والتاريخ يشهد أن كثيراً من الجند تظاهر على مليكه فمنهم من خلع ومنهم من قتل ، وأنتم وقفتم بين يدى مليكنا وقفة المتأدب القابع الطامع فى كرم مولاه ، فلم تريغوا قلبا ، ولا خرجتم عن حد الأدب كما تعلمونه من حب مليكنا للحرية وسعيه فى تقدم الأمة وحفظ بلاده ، وقد منحكم الطلب وهو عنكم راض ، فأنعم بأميرنا العظيم ، وأنعم بجيشنا المؤدب المهذب ، وبمثل هذه الآداب تحفظ البلاد وتفخر .... وها أنا أنادى نداء المخلص بقولى ، لا نرضى بغير الخديو المعظم أميراً للبلاد ، ولا نعترف إلا بسيادته ونموت فى بقاء ملكه وحفظه من الأعداء ، تتفانى فى تأييد سطوته ، وتخليد الحكومة الحرة باسمه الشريف فمن كان معى على هذا الاعتقاد فليجيبنى بقوله نفديه بالمال والروح ....
فنادى الجند والأمراء وجمع الحاضرين — نفديه بالمال والروح .

ألا يسركم أن هذا الأمير قد حرر الأمة وأعتقها من رق الاستعباد

وأسمه الشريف محمد ، أترضون باستعباد هنرى مثلا وتغيير أسماء أبنائكم من محمد وعلى إلى جورج وجان أو هنرى وفيليب . .

بالله أن الراضى بذلك لمن الخاسرين بالدنيا والآخرة ، ولو تبعتم السياسة وكشفتم قناعها لعلمتم أنكم كنتم أكلة طابت وتهيأت للازدراد ، ولكن الله رحمكم بوجود أمير مؤمن مخلص إلى الله فى أعماله ، حريص على بلاده وشرف أمته ، وأنقذكم بجيش وطنى رضى الموت فى حياة البلاد ، وباع الشقاء المؤقت بالسعادة الأبدية ، ففاز بالقبول وأرضى الله ورسوله وسكن قلوب الأمة ، وكتب له التاريخ للرجال اسما تقدمه صفحات الزمن بين يدى كل موجود .

تعلمون أيها الحاضرون أن التحاسد والتباغض أوقعنا فى الاستعباد سنين عديده وأن وحدة الاتحاد لإخوانكم خلصتكم ساعة واحدة ، فاسعوا فى تآلف القلوب ، وتوحيد كلمة المواطنين ، لنكون رجلا واحدا ، وقت الدفاع ، وعائلة واحدة وقت الهدوء والسكينة .

هذا أخوكم الجليل السيف المجرد لحماية الخديو المعظم وبلاده ، يودعكم ويسافر إلى رأس الوادى ، لا عن قلى وغضب ، ولا بإكراه ولا بإرغام ، إنما هو يتبع أفكار رئيسه الجليل . ويسافر طوعا للأوامر ، ليقطع ألسن الأعداء ، ويسكن الاراجيف ، ويعلم المحب والمبغض أن الوطن فى هدوء عظيم وأهله فى طاعة لا يشوبها عصيان ، فاسألوا الله له ولإخوانه جميعاً السلامة وثبات العزيمة ودوام المحبة والاتحاد ، وكونوا على سيرهم من الالفة وإحياء كلمة الوطنية فكلكم وطنى ، وإن اختلفت المقاصد وتباينت الذوات.

ويقول عن نفسه :

ثم نزلت واعتنقنى الهمام وقبل ما بين عينى وسرنا إلى العربية المعدة لنا) .

وعند سفر الآلاى السودانى بقيادة عبد العال حلمى ، كان فى توديعه جمع غفير من الأهلين ، ومن بينهم أحمد عرابى باشا ومحمود سامى البارودى وعبد الله النديم ورهط كبير من الضباط والجنود :

وألقى السيد / عبد الله النديم خطاباً وطنياً حماسياً ـ هذا نصه :

حماة البلاد وفرسانها :

من قرأ التواريخ ، وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل ، عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف ، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من حسنات ، فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ، ولا لحقكم فى إدراكها لاحق ، ألا وهى حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنها ، فلكم الذكر الجميل ، والمجد المخلد يباهى بكم الحاضر من أهلنا ويفاخر بمآثركم الآتى من أبنائنا . .

فقد حيي الوطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقى ، فإن الأمة جسد ، والجند روحه ، ولا حياة للجسد بلا روح ، وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويقول :

إليكم يرد الأمر وهو عظيم ... فإنى بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى ... فمن أين يأتى للديار نعيم
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه ... تأخر عنه صاحب وحميم
فردوا أعناق خيل نحو مخيم ... فعليه من بين البيوت نسيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة
فشدوا أطراف الجهات قويم
وإن تكن سيفاً فكن أرض وطأة
فليس لمغلول اليدين حريم

وإن لم تكن للعائدين حماية فأنت ومخضوب البنان قسيم

ولقد ذكرت باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان فى اهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على حفظه وصيانته ، فصاروا يعنون بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان وبقاء سطوة مولانا الخديو وتأييد ملكه . وتبايعكم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل ما يذهب بالثورة أويخدش الشرف أو يضعف القوة ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ـ وذلك هو الفوز العظيم » .

ثم قال مخاطباً الجنود والضباط الذين جاءوا لتوديع المسافرين :

« وقد اعتزم السفر معهم » .

أخوكم الحر يودعكم ويسير بإخوانكم إلى دمياط ، فاجعلوا عروة الود وثيقة . ولا تقطعوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم الأنفس فى إحكامه . . . . . إلى أن قال :

« ومن محاسنكم التى تفخرون بها ويعرف لكم بها الفضل ، طاعتكم لأوامر الحكومة وامتثالكم لإرشاداتها ثم ختم خطابه بقوله :

وأحسن مما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال « مات شهيد الأوطان » . . . .

فنادى الجميع .

« رضينا بالموت فى حفظ الأوطان »

النديم الشاعر

يعد النديم شاعراً من شعراء العهد الحديث نزع فى بعض نظمه إلى الأساليب العصرية فحفلت قصائده بدور من المعانى ، رغم أنه لم يخل من ترسم آثار الشعراء القدامى فى أسلوبهم ، وعدم التحرر من آثار القيود القديمة ،

التى يطلق عليها الطريقة المدرسية والتى نضجت فى العصر العباسى الثالث، وأخذت تتأصل فى أذهان الشعراء والأدباء وتتسع بمرور الأعصر ، والتى كان من خصائصها الاحتفال باللفظ دون المعنى ، وكما بدأ النديم فى كتابته مترسما آثار السلف من الاهتمام بالسجع والبديع ، ثم روض قلمه بعد ذلك ونبغ فى الترسل ، كذلك ظهرت مواهبه الشاعرية وهو ينسج على منوال المدرسة التى عاصرها .

ورغم أنه لم يبرز كشاعر ممتاز يدوى ذكره ! ! قال الشعر فى أغراض متنوعة منها وصف المخترعات الحديثة ونقد العيوب الاجتماعية وفى الأغراض السياسية ولم يتفرغ النديم لتجويد شعره والارتفاع بمستواه إلى مصاف كبار الشعراء أمثال البارودى ، رغم أنه كان يتردد عليه بالندوة الأدبية بالقاهرة ، وكان صديقاً حميما له ، واشترك معه فى كل مراحل الثورة العرابية ، وكان زميلا له فى مدرسة السيد جمال الدين الأفغانى ، ولعل ذلك راجع على ما نظن ، لاهتمام النديم بالنثر الأدبى والصحافة والأدب الشعبى ، والدعوة السياسية التى اشتغل بها واهتمامه بتهيئة الرأى العام ورفع المستوى الاجتماعى للشعب ، كل هذه العوامل منعت النديم من اهتمامه بشعره والمواظبة على تحسينه وتجويده ، ولقد قيل أن إنتاجه الشعرى كان كثيرا فقد نظم أكثر من عشرة آلاف بيت فى ثلاثة دواوين غير مطبوعة ، ومما يؤسف له أن لا يصلنا شىء منها ، لنستطيع أن نتبين الأغراض التى قال فيها الشعر جميعا ونستقرىء المميزات التى نمت عليها ، ولم يصلنا من شعره إلا قطع فى صحفه ، وفى بعض الكتب لا تغنى فتيلا ولا تبرد غليلا ، ولن تعدو فائدتها إلقاء بصيص من النور على شعره وأسلوبه وبعض أغراضه لنخلص بفكرة ولو مقربة عن النديم الشاعر ، وكنا نود فى لهفة شوق ويشاركنا هذا الود كل مصرى ، أن نعثر على دواوينه ، لنترع من نبعها الثر ، ونرتوى من فيضها ،

ونقطف من جناها صنوفا من الشعر ألوانا ومذاقا ، وروائع من الشعر الشعبى الملىء بصور الريف وعادات أهله ، مما نظمه أثناء منفاه الطويل بل ملىء بالصور التاريخية الرائعة عن الثورة العرابية وظروفها وما تقلب الناس عليه من صنوف المشاعر وألوان الأحاسيس ، ولكان لنا من بعد ذلك تراث ضخم يضاف إلى تراث من قبله من الشعراء ، ومن قصائده فى المدح ، هذه القصيدة التى مدح بها أحد أشراف الأدارسة ، وسار فيها على نمط قصيدة المرقش الأكبر ، من شعراء الجاهلية الذى ظهر قبل الإسلام بحوالى خمسين عاماً ، وكان دائماً فى ركاب الأمراء ، يقول الشعر فى مدحهم :

بين السرائر والسرير　　هام الفرزدق مع جرير
هـذى بها نار الجوى　　ثارت وذا فيه المثير
وسنان لكن كفه　　يسطو على بيت الضمير
ثمل بصرف الحسن لا　　خمر يكونها العصير
بسام ثغر خلته　　للوصل من وجدى بشير
واللحظ قال لمهجتى　　لا تفرحى إنى نذير
لكننى من فرحتى　　فى جو آمالى أطير
إذا صرت عبدا خادما　　فى حضرة الملك الخطير
أدعو فأنظر جنة　　فى وجهه الزاهى النضير

(وهكذا يستمر فى قصيدته التى تبلغ مائة بيت) .

وله فى تهنئة الخديوى عباس الثانى :

سيد ساد الزمان كبحر　　زاخر فى الفخار فى كل محفل
ترقب الناس سيره فى مدار　　وهو دار يسيره إذ تحول
ساسة العصر تجتليه بعين　　قد رأى نفسه بها وهو أمثل
وإذا ما رأى العظيم علاه　　طاب نفساً إذ علا أو تنزل

وهل الدوح فى الذبول يحاكى ناضر الغصن بالثمار تهدل
ذو السجايا الحسان خلقاً وخلقاً مظهر الحلم والثناء مرتل
إن تزره كريماً عطوفاً عالماً صارما يقول ويعقل

وله فى الفخر والصبر على المحن قصيدة أنشأها أيام اختفائه نقتبس منها ما يأتى :

أتحسبنا إذا قلنا بلينا بلينا أو يروم القلب لينا
نعم للمجد نقتحم الدواهى فيحسب خامل أنا دهينا
تناوشنا فنقهرها خطوب ترى الليث العرينا لها قرينا
سررنا بالصلى والبشر باد وكى السر يستدعى الأنينا
ومرضعنا تغذينا بصبر مرير حين ما زجنا حلينا
فطمنا بالظماء على ثبات فصمنا عن شراب الجازعينا
إذا ما الدهر صافانا مرضنا فإن عدنا إلى خطب شفينا
لنا جلد على جلد يقينا فإن زاد البلا زدنا يقينا
فأعيا الخطب ما يلقاه منا ولكنا صحاح ما عيينا
صلينا يا خطوب فقد عرفنا بأنا الصلب صلنا أو صلينا

ومنها قوله :

إذا ما المجد نادانا أجبنا فيظهر حين ينظرنا حنينا
فإنا فى عداد الناس قوم بما يرضى الإله لنا رضينا

وله فى الشعر الغنائى الذى كان يحفظه العامة قبل اشتراكه فى الثورة العرابية وقد كان يغنيه بعضهم فى طنطا (وكان ذلك من أسباب تعرف شاهين باشا كنج وزير الحربية السابق به) المقطوعة التالية :

سلوه عن الأرواح فهى ملاعبه وكفوا إذا سل المهند حاجبه

وعودوا إذا نامت أراقم شعره ... وولوا إذا دبت إليكم عقاربه
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده ... فلو أتلف الأرواح من ذا يطالبه
أراه بعينى والدموع تكاتبه ... ويحجب عنى والفؤاد يراقبه
فهل حاجة تدنى الحبيب بصبه ... سوى زفرة تثنى الحشا وتجاذبه

ومن شعره فى تشجيع العلم قصيدة أنشدها فى حفلة افتتاح مدرسة الجمعية الخيرية بدمنهور فى ١٨٨١/٧/١ وكان مدعواً فى هذه الحفلة : ـ

فدع ما شئت من عم وخال ... وحد عن عيون القفر خال
وحصل إن أردت العز يوماً ... علوماً ضوءها نور المعالى
وجانب فتية ضلوا فتاهوا ... وباتوا عاكفين على المحال
وصاحب يا أخا الفتيان بحراً ... تروى القلب من حر الضلال
وجاهد كى تكون به خبيراً ... وقدم نعله فعل الموالى
ومن أمسى لأهل الفضل عبداً ... تحرر بالمعارف والجلال

وله قطعة أخرى : ـ (متحسراً على الجهل الذى انتشر وعدم الاحتفال بنشر المعارف والثقافة) .

عيونى أريقى من مدامعك الدما ... فإن بناء الأقدمين تهدما
سمعنا بقوم شيدوا بيت مجدهم ... وسابق كل خدنه فتقدما
وجادوا بمال واستعانوا بهمة ... على كل فعل يصلح العبد والأما
فباتو ملوكا فى رياض معارف ... تنير بهم إن أصبح الجو مظلماً
وشاهدنا أن المعالم بيننا ... تخبر عنهم أنهم أنجم السما

ومن شعره الوصفى ما قاله فى ذم الخمر :

طاف النديم بكأسه فى الحان ... ومشى يزف البكر بالألحان
برزت تقهقه بين ندمان الطلا ... فجلت إذ ضحكت على الأقاذن
ذلت لدولة حكمها دول الورى ... من غير ماضرب ولا أعوان

خفت فطارت بالعقول وخلفت تلك الجسوم بحاله النيران
كم حسنت فعل القبيح لشارب فيعود بعد الهدى فى كفران
فهى التى ما مازجت فى منزل نور الصلاح ولا ضيا الإيمان
حملت صواحبها على طرح الحيا فبذلن عرضاً بعد حسن صيان
وبمكرها كحلت عيون رجالها فتصادموا كتصادم العميان
أم الخبائث بنت عسلوج الهوى أخت الحشائش زوجة الشيطان
من زفها من خدرها لفؤاده صرعته عند مزالق الأطيان
وإذا تستر فى ترشفها بدت من فيه تفضحه لدى الإخوان

ومن أوصافه الحسنة قوله يصف قطاراً بخارياً :

نظر الحكيم صفاته فتحيرا شكلا كطود بالبخار مسيرا
دوما يحن إلى ديار أصوله بحديد قلب باللهيب تسعرا
ويظل يبكى والدموع تزيده وجدا فيجرى فى الفضاء تسترا
تلقاه حال السير أفعى تلتوى أو فارس الهيجا آثار العثيرا
أو سبع غاب قد أحس بصائد فى غابه فعدا عليه وزمجرا
أو أنها شهب هوت من أنفها أو قبة المنطاد تنبذ بالعرى

الباب السادس

آثار النديم فى النواحى الاجتماعية

١ – الحرية الأخلاقية :

لقد استبدت بهذا الكاتب أحاسيس الأسى والألم ، على ما أصاب القوم فى عهده من انحلال أخلاقى فظيع ، وانحدار إلى دركات الرذائل والموبقات ، فباتوا فى ليل داج ، مكبلين بقيود عاداتهم وأوهامهم ، لا يدرون من أمرهم شيئاً ولا يشعرون بمقدار الهوة العميقة التى يعيشون فيها .

فكان النديم النذير والداعية ، لكى يوقظ القوم من أوهامهم ويحاول إزالة آثار الخرافات والجهل عنهم حتى يستشعروا كرامتهم الإنسانية ويتخلصوا من عبودية الشهوات والمخدرات التى تمكنت منهم ، وقيدتهم حتى باتوا أسرى لها ، والعبودية الاخلاقية أوقع أثراً من العبودية السياسيه ، فالشعب المحطمة معنويته ، المنحطة أخلاقه ، لن يقوى على رد اعتداء الغير عليه ولا التخلص من نير مذليه المحتلين ، والحرمان من الحرية الأخلاقية هو حرمان الكائن الإنسانى من أهم مقومات حياته الأدبية والفكرية وإفقاده تقدير المجتمع له فتكلم النديم عن جميع المساوىء الأخلاقية فى عهده بحماسة جياشه وعاطفة قوية وله فيها كثير من المقالات والقصص الصغيرة والمحاورات العامية التى نشرها فى مجلة التنكيت والتبكيت الاعداد الصادرة فى ٦/٦ ، ٦/١٩ ، ٦/٢٦ ، ٧/٣ ، ٧/٣١ ، ٨/٣٠ /١٨٨١ .

إنها لمهمة شاقة حقاً وعبء ثقيل ما اضطلع به ذلك الكاتب الوطنى فى محاولاته رفع مستوى شعب رسف فى قيود الذل والاستعباد أجيالا طوالا ، أثرت على طموحه وقبرت ملكاته ، وأخمدت مواهبه ، وحالت دون نمو الفضائل فيه ، وتركته نهب الرذائل والأمراض الأخلاقية ، تتربع فى فكره الوساوس والخرافات ، فكتب فى صحفه جميعها من نفثات قلبه ، وأنفاس روحه المتقد بنار الوطنية ، داعياً الأمة إلى إطراح مساوىء الماضى والبدء

فى نهج جديد لحياة شعارها الكرامة والوطنية ، تسمو إلى العمل المنتج والكفاح المثمر ، نظيفة من الأوشاب ، طاهرة من الرذائل ، وقديم العادات .

وقد كانت جميع هذه المقالات دائرة حول الرذائل الخطرة التى كانت منتشرة فى عهدة وهى الانحرافات الجنسية وانتشار الخمور ، وازدياد خطر المخدرات والمغيبات ؛ والتهافت على تقليد الأوروبيين لا فى النواحى الحسنة ولكن فى مساوئهم من مجون وخلاعة واختلاط بين الرجال والنساء بما لا يتفق مع الفضيلة والمبادىء السليمة. وفى مقاله « جهل العواقب جالب العواطب » التى نشرت فى ١٨٨١/٧/٣ وأنحى باللائمة على من يظنون أن إهانة الوالدين والتشدق بالالفاظ الاوربية فى الحديث وتحقير كل ماهو مصرى ، والتمسح بما هو أجنبى ومصاحبة الزوجة فى المجامع والطرقات ، والدخول بها محلات الرقص ومجالس العبث (إن هذا) نوع من التمدن ...... ثم يقول « إنما التمدن الحقيقى بالاشتغال بالعلوم ومعرفة الإنسان واجباته وحدوده ، ومحافظته على العادات الجميلة والتمسك بمعتقدات طائفته وترك الخرافات

وكان من دقة النديم فى ملاحظاته ، أن عرض علينا نماذجا لافراد من مختلف الافراد من مختلف الطبقات ، قد استشرى بها الجهل حتى أنها جهلت أبسط الامور وأيسرها فى شئون الحياة . فها هو مأمور مركز لايستطيع تحرير ملتمس يرفعه إلى رئيسه فيكلف كاتباً صغيرا بذلك ، وفلاح جاهل مسكين يتأثر من استماعه لقصة عنتره من أحد المنشدين بالمقاهى ، فيتخبط فى تصرفات لايأتيها شخص به مسكة من عقل وذرة من يقين ... الخ .

وفى مقالته المشهورة « متى يستقيم الظل والعود أعوج » التى نشرها فى مجلة الأستاذ ، يندد فيها بضعف المصريين بأسباب الشقاق وعدم الإتحاد بين

الطبقات ، واقتداء الفقراء بالأغنياء فى رذائلهم والإنطلاق وراء المتع والملذات الوقتية ورواج تجارة الأجانب فى الخمور وانتشار الميسر والمراقص، وتقليد الأجانب فيما لا يجدى ولا يعود على الوطن بالنفع كالتفنن فى المآكل والمشارب ، والملبس، بما يشجع التجارة الأجنبية ويؤثر على الصناعة الوطنية ويقول بصدد ذلك (إن تهافت المصريين على تقليد الأوربيين هو الشعور بالنقص فى المصريين ، كنتيجة لاحتلال بلادهم طوال السنين والقرون ، وانعدام الوازع الأخلاقى ، وتهافتهم على الرذائل والفجور والآثام ، تهافتاً أضاع معالم الأخلاق الشريفة والروح الوطنية العالية والمثل العالية من دين ووطنية) .

وفى هذه المقالة أوضح النديم العناصر التى تأثر بها الشعور الوطنى فى المصريين ومركب النقص الذى تكون فى بيئة المشاعر من توالى احتلال البلاد بواسطة الغزاة والفاتحين، ثم محاولة التعويض عن هذا النقص بالإفراط فى تقليد الأجانب فى انحدارهم الأخلاقى ، وتأثر الإقتصاد الوطنى بذلك .

(ا) كرامة المواطن :

بين النديم لمواطنيه أن الإنسان لا يستطيع أن يفيد مجتمعه ويخدم بلاده خدمة مثمرة ما لم يتمتع بالحياة فى مجتمع حر يشعر بقيمته ، ويقدر رأيه فيستطيع أن يعبر عنه بصراحة ، دون خشية من إيذاء ، ولقد نادى بذلك فى وقت ضاعت فيه قيم الناس وما كان يحسب فيها لأى امرىء حساب فالحكام والأمراء هم السادة والرأى لهم وعلى الشعب طاعتهم دون اعتراض، يقبض على شخص مابدون اتهام ، فلا يملك أن يطالب بتحقيق أسباب القبض عليه ، بل يكفى أن يقول أحد الحكام كلمة واحدة ، ليزج ببرىء فى السجن يبقى فيه حتى يموت . وكان الخديو إسماعيل والأمراء ، يسخرون الألوف من الفلاحين للعمل فى مزارعهم الشاسعة دون أجر ودون طعام، ولم تكن

هناك وسيلة للتفاهم بين هؤلاء المساكين ورؤسائهم سوى الكرباج والسوط .. ثم بعد ذلك ليقع من يقع ، وليمت من يمت ، ضحية الضرب أو المرض أو الجوع أو الإجهاد . ولتسمع مصر النائمة فى غمرة الزمان وسكون الظلم المخيف ، صوتاً صادراً من مصرى ، ما كان وزيراً خطيراً ولا أميراً عظيما بل شخصاً من العامة ابن خباز فقير ، يبعثه فى الأمة منيراً لها طريق الشعور بالكرامة والحرية موضحاً لها قيمة الفرد وحقوقه وذلك فيما كتبه فى ١٨٨١/٨/١١ بعنوان « وحشة نديم لأحد أبنائه » ملقناً الشعب مبادىء الكرامة والعزة الإنسانية (لا تغر من الكذب ، ولا تهوى الخيانة ، ولا تمدح الفجور ، ولا تستكين وتخشع ، ولا ترضى بالظلم والحيف ، ولا تضيع شيئاً من حقوقك ، ولا تعظم إنساناً فوق حده ولا تمدحه بما ليس فيه ، لا تتملق ولا تتهاون فى شرفك ، ولا تمل مع الباطل ، ولا تسعى معه فى الفساد ولا تساعد تابعاً على سرقته ، ولا تهمل شيئاً مما عهد إليك ، وكن صادقاً حافظاً للإتحاد ، لا تكن نماماً ، ولا ساعياً فى فتنة ، ونفد من الشر وتجانب أهل الإفساد والفتنة وأهل المظاهر ومحبى ذواتهم ، واترك من يرى قدره فوق قدرك ، ونفسه أعلى من نفسك واحترم العظيم إحتراماً لا يسقط مروءتك ، وبجل العالم تبجيلا يزيدك رفعه ووقر الشيوخ وارحم الصغار واحفظ عهد الإخوان ، واخضع للوالدين) جمل موجزة ، وعبارات متماسكة وعظات بليغة ودرر منثورة وسطور تحوى فى طياتها أروع المبادىء وأكرم المثل كما كان النديم نفسه فى سلوكه الشخصى مثلا أعلى لحرية الرأى، وقاسى فى سبيل ذلك النفى والإضطهاد ، وكان عيشه شاقاً مليئاً بالمتاعب والآلام وكان يمكن أن يرصف بالزهور والرياحين ويحفل بالغنى والثراء لو عرف التملق والرياء لقلبه سبيلا ، وقد نشر يوماً فى مجلة الأستاذ « صحيفة ٧٠٣ » إعتذاراً لعدم نشره قصائد واردة للمجلة فى مدح رياض باشا رئيس الوزراء ومدير البحيرة قائلا : « إن كثرة المديح مثبطة للهمم لاعتماد

هؤلاء على ثقة الناس بهم ورضاهم وكتب أيضاً فى الأستاذ عدد ٣٢ صحيفة ٧٦١ داعياً إلى عدم الاحتفال بآراء الأغنياء والكبراء وأخذها دون بحث خوفاً من مراكزهم أو رهبة منهم ، ويجب تقدير آراء العلماء والصالحين ولو كانوا فقراء ، ثم دعا إلى الشجاعة الأدبية فى مقاله (اتبع الحق وإن عز عليك ظهوره) .

فيقول فيها جاهر برأيك مهما كانت الظروف والأحوال تدعوك إلى عكس ذلك ، فلا تبالى بإيذاء أو ظلم أو كدب فى سبيل رسالة الأخلاق والفضيلة .

(ب) التحرر من الخرافات : الشعب الناهض ، الصاعد قدماً إلى مراقى المجد ، والتقدم الفكرى والعلمى هو ما اتخذ أفراده فى تفكيرهم ، الأسلوب المنطقى ، وربطوا بين المقدمات والنتائج وبين العلل ومسبباتها ، ثم آثروا بعد ذلك هذا الأسلوب فى طرائق معاشهم وأعمالهم ، وتصرفاتهم فى أمورهم الخاصة والعامة ، وقوموا أفكارهم وتقاليدهم وعاداتهم على أساسه فتجدهم يهتمون بالعلوم الحديثة وترقية الصناعة والتوسع فى الزراعة والأخذ بكل ما يوسع آفاق التقدم الإقتصادى والعلمى ، واعتمدوا على المنطق والبرهان فى انتخاب ما يصلح لظروفهم ويؤدى بهم إلى الإصلاح والنهوض .

لذلك دعا الكاتب الملهم ، الشعب المصرى بأن ينطلق فى أثر الشعوب المتقدمة فى الحضارة ، مجارياً إياها فى أساليب التفكير والحياة ، وترك الخرافات والعقائد السقيمة وأساليب الدجالين ، ومدعى الولاية ممن لا نجد فى أعمالهم منطقاً معقولا أو أساساً مقبولا ، ولنقرأ ما كتبه فى ذلك المعنى فى ١٨٨١/٧/١٠ مدحضاً خرافة النجم ذى الذنب ، التى انتشرت فى عهده ، راداً الناس إلى مناطق الحقيقة آخذاً بهم من عالم الخرافات والأوهام ، قال (يا بنى الشرق أين أحلامكم العظيمة ، وذكاءكم البديع ، كفا كم من العار فقد

الثقة فيكم ، وعدم الركون إليكم فى أعمال وطنكم فضلا عن الغير ، كفاكم مارميتم به على ألسنة الجرائد الأفرنجية بل وبعض الوطنية فى بعدكم عن مدارك العلوم والصناعة والإدارة ، بل البعض يفضل الحيوان الصامت عليكم . . كفاكم أن أشغالكم وأمتعتكم وأثاثكم يقدمها إليكم الغربى ويستنزف بها ثروة بلادكم وأنتم لا تشعرون . كفاكم أنكم اتبعتم الخرافات حتى فسدت أخلاقكم وتكدرت أفكاركم وصرتم لا تصلحون لإدارة أموركم إلا بعد طهارة أخلاقكم التى أفسدها التخريف وأنتم به راضون . . كفاكم أنكم صوتم فى البيوت المتهدمة والحارات القذرة ، ولا يسكن القصور ويتمتع بنزهة البساتين إلا من عظم بما لديكم وأنتم نائمون ، كفاكم أنكم تمرون فى الطرقات مشاة على الأقدام ، والعربات تشردكم على اليمين وعلى الشمال ، وما بها إلا من عظم بجده ونشاطه ، مع اختلاف الأسباب وأنتم فى باب التقاعد واقفون تتألمون من الفقر وأنتم له جالبون . . أرى فعلة باريس فتحوا لهم صندوق اقتصاد فنما وأثرى حتى صار أعظم بنك يوثق به ، ونحن نقتصد فى المعاش ونتوسع فى الخمور والحشيش والقمار ، حتى فتحنا بنوكا ولكن لغيرنا وأضعنا الصناعة ، وصرفنا أموالنا فى شراء ما يلزمنا ، فأدرنا عدة معامل ولكن فى غير مملكتنا .

فمع اختلاف القلوب وفساد الأخلاق ، والانكباب على الملاهى والسقوط بالتخريف ، والاشتغال بالمنجمين والرمالين والدجالين والمتكلمين بالضمير وأهل الأوفاق والطوالع والخواتم المجربة ، والأنفة من المعارف وأهلها كيف نرجو الصلاح والإصلاح ورد ثروة البلاد لأهلها) وتعد هذه المقالة من أروع مقالاته التى يصدر فيها عن حماسة قوية ، ودعوة وطنية مخلصة ، لبعث الفكر المصرى وتطهيره من مخلفات الاجيال وإزالة ركام الماضى من عقائد وأوهام سقيمة . والدعوى إلى النهوض الاقتصادى

بإنشاء المصارف بدلا من تخزين الأموال ، واستغلالها فى التجارة بدلا من استغلالها فى المخدرات ثم قال فى ١٩/٦/١٨٨١ بعنوان (خذ من عبد الله واتكل على الله) محذراً فيها من الاعتماد على المنجمين والالتجاء إليهم وتطبيق أقوالهم - وفى ٢١/٨/ ١٨٨١ بعنوان (أماتك من سلمك للجهالة) يتكلم فيها عن الآلام التى يعانيها الناس من اعتمادهم على الدجالين فى علاجهم وحل مشاكلهم ثم يتكلم عن جماعة مدعى الولاية ومظاهرهم فيقول (كل من لبس طاقية من الخوص أو حمل عكازة خضراء أو أصابه شلل فى أحد الاعضاء أو مصاب بضياع أنفه بواسطة الزهرى د أو بأصبع عوجاء أو يداً صغيرة أو له (رياله) أو بلسانه لكنه ، حظى باعتقاد الناس فى ولايته) .. كما تحدث عن أحدهم المدعى أبو مسلم الذى كان مقيما بميت غمر (فقد صنع له بيتاً صغيراً وحفر بركة ، وأشاع أن ماءها يشفى من كل داء ، فهرعت إليه الناس من كل بلد حتى ضاقت ميت غمر بالوفود وكان يعطى الأبريق بـ ١٠ قروش ، ويأخذ الخادم ١٠ قروش ، و ١٠ قروش أخرى ثمن الابن ، ونذر الشيخ ١٠ قروش ثم يظهر التعفف ، ويقول أنه يعالج الناس ابتغاء مرضاة الله ؟ فهل بمثل هذه الجهالة نضارع الامم المتمدنة ، ونرجوا إصلاح البلاد وحفظها من أفكار الدول المتقدمة المشتغلة بالمعارف آناء الليل وأطراف النهار . وفى مقالة (سلطنة التخريف) فى ٧ / ٨ / ١٨٨١ يصف فيها مشهداً غريباً ، عن ازدحام الناس فى محطة دسوق ، لتقبيل القطار المقل لامرأة تدعى الولاية ، وإقبال الناس حولها يقبلون يدها .... ثم يذكر العبارات التقليدية التى كانت ترددها للناس « ويرددها أمثالها من مدعى الولاية » ... مستورة ... سالكة ... أشيا معدن ... قدامك خضره ووراك خضره ... الله يحنن عليك ... فاضل عليها عقدة ... ارمى حمولك على المتولى ... ربنا يجازى أولاد الحرام ... شيخ لله ... ياسيد روح سرى معك ... الخ .

وهكذا يخضع هؤلاء المخرفون السذج والجهلاء لسلطانهم ونفوذهم ويقضون على حرية تفكيرهم ، ثم يختم النديم مقاله قائلا : (لقد أصبحنا أقل الأمم قدراً وأخلاها من العلم وأمكنها من الجهل ، وما أبعدنا عن العلماء) وقد تحدث فى مقالة (نهاية البلادة) فى ١٨٨١/٧/٣ عن مضار التواكل والتخاذل وعدم السعي والاجتهاد ، اعتماداً على المقدر والمكتوب، ووضح فكرته بقصة صغيرة ، سهلة المنال ، واضحة المعنى عن فلاح ساذج سطا عليه أحد اللصوص ، فلم يحرك ساكناً ، اعتماداً على فكرة المقدر والمكتوب .

٣ ـ الوطنية العملية (الخدمة الاجتماعيه)

كيف تؤثر الوطنية الحقة فى سلوك الناس فيما بينهم ؟ وما هدف المواطن الصالح من توثيق العلاقات الاجتماعية بينه وبين مواطنيه ؟ كيف تعاو بالوطن وتخدم بنيه ، وترفع دعائم الاتحاد مشيدة عالية ؟ هذا ما أجاب عنه النديم الكاتب العبقرى فى ١٨٨١/٧/١٠ فى مقاله (كيف ظهرت وأنا لك بالمرصاد) يحض فيها على التواصل والتراحم بين الناس والتعاون الوطنى بين القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، ويدعو لمجتمع راق تسوده المحبة والتعاطف والوطنية العملية الرشيدة . فما الوطنية بألفاظ تتشدق بها الألسنة أو عبارات تلوكها الأفواه ، دون أن يكون لهـا أثر عملى فى حياتنا الواقعية وعلاقاتنا مع الغير . قال فيها : (والوطن وعزته ، والجنس وشرفه والأمة ومجدها ، إنك فى حياتك من الهالكين ، وفى سعيك من الضالين ، أى قوة ترجوها إذا قطعت عضدك أى أخاك، وأى ثروة تبلغها إذا عطلت بواسطتك أى مواطنك ، وأى تقدم توده إذا قفلت بابه. هلا نظرت إلى الفقير فأعنته بما يحفظ به حياته . والجاهل فهديته سواء السبيل والمجد وساعدته على نجاح أعماله . . . . لو تأملت أيها المدل بنفسه هذه النصيحة . وأزلت

نفسك منزلة فرد من أفراد الامة وبحثت فيما يطهر الأخلاق ويوصل الامة إلى النجاح ، وإدراك معانى السياسة ، حتى يقف كل عند حده ويعرف حقوقه لكنت من الذين رأوا لذة حياتهم فى حفظ بلادهم وبث روح التمدن فيها وكتب فى ١٩/٣/١٨٨١ فى مقال « تسمية البهيم بالمتوحش ظالم من الإنسان » تسلق فيها على هذا البيت من الشعر

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذا ظمئت وأى الناس تصفوا مشاربه

وقصد بهذا البيت الانتفاع بالاصدقاء والاستفادة من عشرتهم ، وعدم مؤاخذتهم فى كل ما يصدر عنهم من فعال لأن الطبيعة الإنسانية لا تستطيع أن تنأى كل النأى عن مواطن الخطأ ثم يدعوا إلى توثيق هذه الرابطة الاجتماعية لنفعها للمجتمع ثم يدعوا إلى التراحم والتعاون بين الناس وانتقل بعد ذلك إلى شرح عنوان المقال كيف إننا نسمى الحيوان متوحشاً ، والفرق شاسع بين ما يعمله الإنسان مع أخيه الإنسان وبين مايدعو به هو الحيوان ، فالإنسان فى الحقيقة هو الأجدر بأن يسمى بالمتوحش وذلك حين يقسوا على أخيه ، بجمع المال وحرمان الفقير واليتيم والأرملة والمريض والمقعد والبائس حقه فى المعاونة على الحياة الكريمة .

وحين يتهور ويطيش فى تصرفه فى :

(ا) مقابلة المسيء بإساءة مثلها .

(ب) مخاطبة الضعيف العقل بما لا يحتمله .

ويقول فى حسرة وتوجع مخاطباً ضمير الشعب :

(يا أيها الفرح بما ملكت يداه ، ما أحزنك لو تأملت الضطى يتضور جوعا والبائس ينتفض بردا ، واليتيم لا قيم له يرشده ، ويعلمه ، والمريض المعدوم لا مال له يطبب به نفسه ، ولا متاع يبيعه ، لينفقه فى حفظ حياته) .

ثم يتبرم من القساة القلوب الغلاظ الأكباد الذين يجمعون المال ويمنعونه . (أف لك ولمالك قل أو كثر ، فإنك تحجر على الإنسان قوته ومسكنه وملبسه ، بما تضيعه من اكتناز المال ، وما ظهرت إلا لتخريب البلاد من حصر النقد عندك ، وعدم تمكين الأفراد مما يبتاعون به ما يلزم لعمار الديار ، فتعساً لك ما حييت ، وسحقاً لك بعد موتك ولا مرحباً بك إذا قدمت ، ولا سلام يصحبك إذا ذهبت .،..

يا أيها المدعى الوطنية وهو يسعى فى اضمحلال بلاده ، ويميل بجانبه إلى كل بعيد عنها ، ما أضرك على بلدك وأشدك على جيرانك وأخواتك ، وأغفلك عن حقوق مظهر وجودك .... لو علمت الوصية ودرستها على خبير بها لعلمت أن البلاد محتاجة إلى فكرك وقوتك والأهل مفتقرون إلى مالك) .

وهكذا يسمو تعبير النديم ، ويبلغ فى تحديده معنى الوطنية إلى أروع صورة لم يسبقه إليها أحد من قبل ، فيسرد الصفات والأعمال والمبادىء التى تدخل فى تحديد معنى الوطنية ، من رثاء وعطف على أبناء الوطن المنكوبين ، إلى عدم حبس المال عن المنفعه العامة إلى مساعدة كل مواطن محتاج أيا كان نوع حاجته ، وكأنى بالنديم يقول فى إيجاز (الوطنية أن تساعد المجتمع بكل ما تقدر عليه) .

ثم يعود الى هذه المعانى بعد ذلك بعشرة سنوات فى مجلة الأستاذ فيكتب فى الصحيفة ٧٤٥ عن أسمى مبادىء الخدمة الاجتماعيه فى الإسلام وذلك فى خطبة دينية شرح فيها الآيات الآتية :—

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام

الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

٤ ـ الدعوى إلى إنشاء الجمعيات الخيرية والاكثار منها

دعا إلى الإكثار من إنشاء الجمعيات الخيرية على غرار الجمعية الخيرية الإسلامية لإنشاء المدارس وتعليم أبناء الشعب وذلك فى مقاله (ثمرة الاجتماع) العدد السادس من السنة الأولى من مجلة التنكيت والتبكيت ، يدعو للتعاون فى سبيل الخير والمعروف ثم كتب فى العدد الصادر فى ١٨٨١/٧/١٧ يحث الأغنياء والموسرين على معاونة الجمعيات الخيرية قائلا :

(وياذوى الثروة ، هلا هزتكم أريحية الإنسان فجعلتم للجمعيات أثراً تذكرون به ، وتنازلتم عن بعض مستغلاتكم التى لا تفقركم ، ولا تلجئكم لبيع الأطباق الذهبية ، ولا الأسرة الفضية ولا الظروف المجوهرة ولا الكاسات المللأة ولا القصور الواسعة .

أليس الرجل منكم كالرجل منا فما بالكم لا ترضون بثلاثين نوعا من الطعام ونرضى بالخبز والملح ، ولا تقنعون بالألوف من الجنيهات ونقنع بالقرش الواحد ، أخلقتم من الذهب وخلقنا من التراب ، أم ولدتم قابضين على أزمة الدنيا وولدنا عبيداً لكم ، أم نزلتم من السماء ونزلنا من بطون الأمهات ، ألا ترون أنكم تعدون بالأصابع فى بلادنا والفقراء هم الأمة) .

ثم يتحدث للطبقة المثقفة من الشعب ، ناعياً عليها سكوتها عن تعليم الشعب وتخفيف آلامه الجسدية والفكرية ، حاثاً على إنشاء المدارس لتعليمه بحيث يستطيع مقاومة الجهالات والخرافات وينجو من الشرور المحيقة به بأسبابها وذلك فى مقالة (آفة السكوت) فى ١٨٨١/٩/٤ .

٥ — النهضة النسائية :

رقى المرأة وتعليمها هو أساس رقى الشعب ، وحجر الزاوية فى بناء مجده لأنها أم أبنائه ، وزوجة رجاله ، فهى التى تقدم للطفل منذ طفولته من دمها غذاء جسده ومن عقلها غذاء روحه ، وحين تكون زوجة تملك على نواصى رجلها، وتستطيع أن تنزع به إلى أشرف الميول، وتدفعه إلى أسمى مجالى المجد الوطنى والأدبى وكم من عظيم اعتز بفضل المرأة فى حياته واعترف بأثرها فى إنتاجه وجهاده ، لذلك وجب التوفر على إعدادها بكل المؤهلات لقيامها بواجبها على الوجه الأكمل .

ولعل من الإنصاف للحق والتاريخ أن يذكر للنديم فضل السبق فى بعث أول دعوة لتعليم المرأة على صفحات جرائده ، بعد ما ألف العلامة رفاعة بك رفاعة الطهطاوى أول كتاب تعليمى لتعلم البنين والبنات كما سبق أن ذكرنا . ولا شك أن كان لهذه الدعوة أثرها فى توجيه أفكار المواطنين ، فى وقت قد استشرى فيه الجهل وانتشرت فيه الخرافات والتمسك بالتقاليد البالية بل فى وقت ضن فيه الزمان حتى بتعليم الرجل .

ويمكن تلخيص جهوده فيما يلى :

١ - تعليم المرأة :

دعا إلى تعليم المرأة فى سن الطفولة وفتح المدارس لها لتدرس مع مواد المنهج الابتدائى ، الدين والتاريخ والتدبير المنزلى ورعاية الطفل .

٢ - التهذيب الاجتماعى :

واستحدث فى مجلته بابا خاصاً لتهذيب المرأة سماه مدرسة البنات ، تكتب فيه الموضوعات بأسلوب عامى سهل شيق ، على نمط المحاورة تدور بين امرأتين (لهابة وست البلد) و (حفصة وبنتها سلمى) و (زكية ونفيسة)..الخ

وقد أغرمت النساء بهذا الباب إلى حد عظيم حتى أنهن اعترضن على إلغائه حين فكر فى ذلك فعدل . وقد تضمن هذا الباب شرح النواحى الآتية :

ا — الثقافة الضرورية للمرأة فى مختلف مراحل حياتها ، حتى تؤدى رسالتها الاجتماعية أداءاً صالحا . (وبين الفرق فى الواجبات بالنسبة للريف والمدن) ،

ب — نهى المرأة عن رذائل المدنية الغربية ، وعاداتها التى تتنافى مع المبادىء االدينية والأخلاقية .

ج — الدعوة إلى محاربة التعصب الدينى وأن توثق المرأة المسلمة علاقتها بالمرأة المسيحية على أساس سليم من حسن الجوار واحترام كل لدين الأخرى (وهذا جزء من دعوته القومية الكبرى نحو اتحاد جميع طوائف الأمة بمختلف أديانهم) .

د — تدعيم العلاقات الإنسانية بين أعضاء العائلة المصرية ، موجها النصح إلى الزوجة لمراعاة واجبها نحو زوجها وكذلك إلى الزوج لاحترام شخصية زوجته ورعايته مصالحها وعدم الانحدار إلى المكيفات والرذائل التى تعمل على هدم العائلة وتؤذى اقتصادها .

٣ — مجلة المربى :

كتب فى مجلة الأستاذ فى ٢٥ - ٤ - ١٨٩٣ ، أنه شرع فى إصدار مجلة المربى لتبحث فيما يهم المرأة من فهم للأمور الصحية وتدبير المنزل ، ورعاية الطفل والأمومة والعادات ، والأخلاق . وقد وعد بإصدارها إذا تجمع عدد وافر من المشتركين ولكن القدر أبى أن يحقق للبلاد هذه الأمنية وأغلقت الأستاذ أبوابها ورحل الكاتب إلى منفاه البعيد عن وادى النيل ، ولو صدرت هذه المجلة لكانت أول مجلة من نوعها فى مصر .

٤ — حماية المرأة :

(ا) دعا إلى إلغاء البغاء العلنى .

(ب) عدم التطرف فى حفلات الأفراح وإدخال الراقصات الخليعات فى المنازل اللائى يأتين من الأعمال ما يتندى له جبين الفضيلة ويؤثر تأثيراً سيئاً على شعور وأخلاق فتيات ونساء الأسر الفاضلة .

(ح) محاربة الرقيق الأبيض ، بوسائله المختلفة التى منها استخدام الفتيات فى المنازل كغرض ظاهرى والغرض الحقيقى لا يتصل بالفضيلة ، ويعبر النديم فى بعض المحاورات عن تعاسة حال الخادمات ، اللائى بدلا ما كن يبعن فى عهد الرق إلى سيد معين ، أصبحن يبعن كل مرة لسيد مدة معينة ويتألم لحالتهن ، ويثير فى قلب المجتمع وضميره العطف على قضيتهن .

٦ـ الوطنيه والانسانيه

لعل من آثار عبقرية ذلك الكاتب الفحل ، أن وصل إلى القمة فى تحديد العواطف الاجتماعية Social Sentiments فبينما هو يعبىء قلوب مواطنيه بما يجيش بقلبه من وطنية ساطعة تكاد تمتزج جميع كتاباته وأقواله بها ، كيف لا وعاطفة الوطنية هى مدار رسالته ، وقوام دعوته ، فهو يدعو أبناء الوطن جميعاً ، للالتفاف حول راية الوطنية ، ثم يصول فى هذا الميدان ويجول مستخدماً كل أسلحته ، من بيان وبلاغة فيبلغ المراقى العالية ، ثم يثير فيهم بعد ذلك عاطفة أخرى ، أوسع مدى من الأولى عاطفة تقتحم الحدود الوطنية ، وتنطلق إلى ما عداها من أوطان تلك هى عاطفة الإنسانية فنسمعه يتحدث فى مقالاته شارحاً للمواطنين عن معنى الرابطة القومية التى تربط الشعوب ببعضها وأن الفوارق الجنسية والدينية لاتحول دون حب الإنسان لأخيه الإنسان وتعاونه معه وتوثيق صلته به وتبادل المنافع الثقافية

والاقتصادية وإياه وقد وضح ذلك فى مقالته (تجاذب الجنسيات والأديان) فى ١٨٩٣/٣/١٤ وذكر عنها فى خطبته فى ١٨٨٢/٣/١٩ فى حفلة النائبين أحمد محمود وإبراهيم الوكيل فقد حض على حفظ العهود ومجاملة الأجانب ومعاملتهم بالحسنى والسير معهم بما يقتضيه قانون الأخرة الإنسانية وقد نشر فى بعض مقالاته آراء فى هذا الموضوع الذى يعد جديداً بالنسبة للكتاب المصرين فى عهدة ، وجديداً بالنسبة للوعى الوطنى فى عهده ، وقد سجل النديم بهذه الدعوة سبقاً فريداً ، وكأنة نظر إلى الغيب يستكشفه أسراره ، وإلى المستقبل يستنطقه مايخفيه من أحداث ، فرأى من بعيد ببصيرته لا ببصره ، هذه المؤسسات العالمية الكبرى من عصبة الأمم إلى هيئة الأمم المتحدة لتعاون الشعوب وتآخى الأجناس وصيانة السلام وقد أكد النديم أن عاطفة الإنسانية لا تتعارض مع الروح الوطنية ، لأنها امتداد لها فى الشعور والقوة ، فالإنسان يحب وطنه ويعيش طول عمره بهذا الحب ، فيعمل على رفعة بلاده ومنفعة أبناء وطنه ثم هو بعد ذلك لا ينسى أنه فرد فى عائلة كبرى تسع الشعوب جميعاً هى عائلة الإنسانية وأنه مرتبط بها بحكم انسانيته وتفكيره .

٧ — زعيم التسامح الدينى

من أروع مناقب هذا الكاتب الوطنى أنه كان أول الداعين إلى التسامح الدينى وعدم التفرقة بين قبطى ومسلم ، فتكلم فى عدد الأستاذ الصادر فى ١٨٩٣/٤/١٨ عن الارتباط القوى بين المسلمين والأقباط وتمدح فيه بوطنية الأخيرين واتحادهم مع إخوانهم المسلمين ورفض أن يعترف بما يسمونه (الجمعية الخيرية الإسلامية) و (الجمعية الخيرية القبطية) فلا يجب أن يكون هناك فرق بين جمعيتين مصريتين لحماً ودماً تعملان لخير البلاد وخير أبنائها بل يجب ادماجهما فى جمعية واحدة تسمى الجمعية الخيرية المصرية . ثم تكلم فى نفس العدد صحيفة ٧٥٣ فى محاورة بعنوان (حافظ ونجيب) عن مضار

التعصب ضد الأديان والتعصب ضد الأجناس أى ضد الأجانب الموجودين فى البلاد ودعا إلى الوطنية السمحة ، وحسن الجوار ، ومعاملة الأجانب بالحسنى والروح الطيبة وفى ١٤/٣/١٨٩٣ قال أن الأقباط متأثرون بالجنسية أكثر من تأثرهم بالدين ، يميلون إلى المسلم المصرى لأنه أقرب إلى جنسيتهم من الإنجليزى الذى هو من دينهم لأنه بعيد عن هذه الجنسية ... ثم خلص من هذا المقال إلى أن الصلة الجنسية أقوى من الصلة الدينية ، ثم دعا إلى فصل الدين عن الوطنية ، وكتب أيضاً فى ٢٨/٢/١٨٩٣ يرد على الذين يثيرون كراهة الناس وعداثهم لجريدة الأهرام لأن منشئها مسيحى سورى ، ناعياً عليهم اهتمامهم بدين صاحب الجريدة ، عن صلاح الجريدة من حيث أهدافها ، ورسالتها للوطن .

وقد اهتم النديم بالتعليم الدينى فى المدارس ، ولم ينس أن يدعو إلى تعليم الدين المسيحى للطالب القبطى كما يتعلم الطالب المسلم تعاليم دينه ، ثم حث على التعاون والتآخى بين عنصرى الأمة ، ليعيشا فى وفاق ، ويترابطا بعرى وثيقة من المحبة والوفاء ثم تقتضيه روح التقدير لهؤلاء المواطنين الذين عاش المسلمون معهم السنون الطوال فى محبة ووئام متحملين صابرين - حين تلوح له نذر عاصفة مقبلة من الغرب لتشتيت الكنيسة القبطية إلى طوائف غريبة - أن يعبر عن ألمه فى ١٣ / ١٢ / ١٨٩٢ فيقـــول (إننى أتمنى أن لا يتحول القبطى عن كنيسته الأرثوذكسية إلى مذاهب مختلفة ، حتى لا تتفرق كلمتهم وتتشتت جماعتهم ، لأن الأجنبى يعمل على تبديد وحدات الشرق الاجتماعية) ثم ، يتكلم فى مقالة بعنوان (نصيحة مخلص فى خدمة وطنه) فى ٣١/١/١٨٩٣ ينصح مواطنيه فى دعوة كتبها من ذوب فؤاده ، وحرارة وجدانه داعياً الى محاربة التعصب ، ومناشدا إياهم إلى الاتحاد صفا واحداً ، المسلمون والأقباط .

٨ـ المسرح القومى

كان النديم أول من أدخل فن التمثيل فى منهج الدراسة ، كما سبق أوضحنا حين كان ناظراً لمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وكانت له مواهبه الخاصة فى التمثيل وليس أدل على ذلك ، من قيامه بتمثيل روايتين من تأليفه واخراجه وحواره ، على مسرح زيزينيا بالاسكندرية ، وقد لاقت هاتان الروايتان (العرب ، طالع التوفيق) نجاحا فائقاً ، وتقديراً من الجميع وقد تبرع الخديو بمبلغ كبير وكذلك بعض العظماء .

والتمثيل فن من أرقى الفنون ، ورقيه فى مجتمع ما ، دليل على رقيه الأدبى وسموه الفكرى وليس أروع من المسرح ، كمدرسة تلقن الشعب المبادىء الوطنية والاجتماعية ، فلا غرو أن اتخذ النديم المسرح أداة يبلغ بها الشعب رسالته ، ولو تفرغ للمسرح بعد ذلك لكان من أقدر الممثلين ، ولأسهم فى رفع لوائه وتقوية دعائمه .

كتب فى الأستاذ صحيفة ٧٧٣ مقالا عن التشخيص العربى ، أفاض فيه عن رسالة المسرح داعياً الى ترقية التمثيل العربى ، وتشجيع تعريب الروايات الأجنبية ، بما يلائم ظروف البيئة المصرية الى اللغة العربية الفصيحة ثم نوه بمسرحية اسمها (محاسن الصدف) من تأليف محمد واصف ، وتمثيل سلامه حجازى ، وقد قدمها أحد كبار الأدباء بكلمة أدبية (هو اسماعيل عاصم بك) ثم ذكر تشجيع الخديو للتمثيل وحضوره خمسة مسرحيات عربية .

ودعا إلى تشجيع الجمعيات المصرية التى تعمل على ترقية المسرح القومى المصرى ، وكتب فى (الأستاذ ص ٧٣٣) مثنيا على جمعية الفتوح الخيرية التى كان يرأسها الشاب الوطنى مصطفى كامل ومن أعضائها فريد ابراهيم ، أمين فهمى ، حافظ بيومى ، وقد قامت هذه الجمعية بتمثيل مسرحية الملكة بلقيس .

٩ ـ دعوته لاصلاح بعض طوائف المجتمع المصرى

تنظيم مهنة المحاماة(١) :

وكان أول من نادى بتنظيم مهنة المحاماة، بعد أن رأى فريقا من الآفاقين الأجانب يمتهنون هذه المهنة ، عن غير جدارة ، وبدون مؤهلات قانونية (كان فى عهـــده ، كل من استطاع أن يلم بالإجراءات القانونية ، وطرق التقاضى ، يمارس مهنة المحاماة) ثم يستغلون سذاجة الفلاحين وجهلهم فيوقعونهم فى حبائلهم ويبتزون أموالهم ، ويغتصبون منهم أراضيهم .

اصلاح حال الموظفين(٢) :

كتب النديم مناشدا الحكومة تحسين أحوال الموظفين ورفع مرتباتهم وربط معاشات دائمة لهم ، تقيهم شر الحاجة بعد اعفائهم من العمل بسبب كبر السن ، وتنظيم العلاقات بينهم وبين رؤسائهم ورفع الاجحاف والمظالم عنهم ، لا سيما وقد رزح الموظف المصرى للمظالم مئات السنين .

محاربة الرقيق(٣) :

كان الأغنياء فى عهده يشترون العبيد من أبناء السودان ولهذا الشراء صفة الامتلاك ، الأمر المنافى للإنسانية ، فدعا النديم الى محاربة الرقيق ، ودعاه الرفيق المحررين من السودانيين المقيمين بمصر أن يكونوا جمعية تسمى جمعية الاحرار السودانيين .

---

(١) استجابت الحكومة لهذا النداء ، وصدرت اللوائح لتنظيم مهنة المحاماة والقضاء (انظر المحروسة فى ٢٤/١/١٨٨٢ ، والوقائع المصرية فى ٢٥/١/١٨٨٢ .

(٢) اهتم مجلس الوزراء بإصلاح أحوال الموظفين وصدر أمر عال تنظيم المعاشات — وصناديق الادخار (انظر كتاب مصر للمصريين ج ٤ ص ١٨٠) ٢١١ ، والمحروسة فى ١١/٣/١٨٨٢ .

(٣) انظر المحروسة فى ٢٤/٣/١٨٨٢ ، نقلا عن الطائف .

١٠ ـ الطرق وإصلاحها

هذا الموضوع يتصل فيه الاجتماع بالدين ، لأن الطرق ماهى إلا جماعات تتخذ لها مبادىء دينية معينة ولها نظم وتقاليد خاصة ، كتب النديم لإصلاحها بتاريخ ١١/٤/١٨٩٣ وكتب عدة مقالات بعد ذلك فى هذا الموضوع ، منددآ فيها بعادات الطرق من رقص وطبل وزمر وفعل الأفعال المشينة التى هى أبعد ما تكون عن الدين ومن أقواله « هلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة الشنيعة ، وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم ، والتزموا طرق أشياخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم وما هم إلا فى أيدى الشياطين ، يلعبون بهم كيف يشاءون ... أين الخمول مع الظهور وأين التواضع مع ركوب الخيل والبغال ... وأين البعد عن الرياء مع الوقوف بين مئات الألوف تتمايل وتتلوى .. وأين الإرشاد مع هذه البدع ... أما آن لهذه البدع أن تموت ، ولهؤلاء الجهلة أن ينتهوا ويعلموا أنهم بين أمم ينظرون أعمالهم وينتقدون أحوالهم ويكتبون عنهم ما يكتب عن الهمج وسكان البوادى ، أن الطريق المسلوك للقوم مبنى على الإخلاص فى العمل . وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر والعمل بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم ، وأين هذه الأحوال الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود واستبدال السنة بالبدعة ، وترك الشرع بهوى النفس .. وليس القصد إبطال الطرق نفسها ، فإنها من أحسن الطرق للتعليم الدينى والتربية الأدبية ففى تعاليمها ما يعلم الآداب الواجبة » .

ثم قال فى ٢٥/٤/١٨٩٣ أن صاحب السماحة السيد البكرى ، مستعد لإبطال هذه النحل والبدع ، فكل من سمع قولا مكفرآ من رجل منهم ، يشهد عليه ويكتب إليه ، لردع ذلك المارق والنداء عليه بأنه ليس من أهل الطريقة ، حتى لا يدنس رجالا يدعون إلى الله تعالى وقد أقاموا أنفسهم فى وظيفة

تطهير القلوب وتهذيب النفوس وتصفية الخواطر ، وتهيئة الرجالات للكمالات ، فهم أساتذة مدرسة دينية لا يوجد لها مثيل فى العالم ..

هذا ما كتبه النديم لفصل الحق من الباطل ، والنور من الظلام ، والحجة الواضحة من السفسطة المارقة ليظهر الدين فى صوره الجميلة ومظاهره الرائعة بعيداً عن المعتقدات السقيمة ، والتى جعلت كثيراً من الغرباء يثيرون أقلامهم بالطعن والتجريح من مظاهر هذه الطرق المنافية للأخلاق والمبادىء الشريفة ولا يجب أن ننسى أثر هذه الطرق فى الشعب ، والذى يفكر فى إصلاح الطرق وتنقية معتقداتها إنما يعمل على تطهير الحقائق الدينية من الشوائب السقيمة التى ينشرها هؤلاء المدعون بين الناس وقد كانت الجرائد الأجنبية فى عهد النديم تكتب عن مظاهر هذه الطوائف ومهازلها مما كان يعتبر صورة مشوهة عن الدين الإسلامى فى ذهن غير العارف به والغريب عنه كما وتعد هذه الكتابات دعاية سيئة ضد الشرق ، يتخذها الإستعماريون ذريعة يتوسلون بها لتبرير اعتداآتهم على الحريات ، فدعوة النديم لتنظيم الطرق وتطهيرها وإبعاد المعتقدات المشوهة عنها ، تستند إلى عوامل أدبية واجتماعية وسياسية .

وبنفس الروح والدوافع ، كتب النديم منددا بما يحدث فى الموالد الدينية من سلوك شائن لا يتفق مع جلال الذكريات والمبادىء التى من أجلها تقام الموالد ، من تخليد سير الصالحين ونشر صفحات مناقبهم وأخلاقهم ومثلهم العليا فى الحياة ، وقد نوه النديم بصفة خاصة عن مولد السيد البدوى الأحمدى بطنطا وما يحدث فيه من اعتداء على الأخلاق والفضائل ، وهكذا كان النديم الصحفى الإجتماعى الدقيق الذى يكتب عن عيوب المجتمع بكل جرأة وصراحة ، ساعياً فى سبيل إظهار العقائد الدينية نقية صافية .

مراجع الكتاب

نذكر هنا أهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذا الكتاب..

مجلد مجلة الأستاذ	لعبد الله النديم
إعداد جريدة التنكيت والتبكيت	»
» » الطائف	»
كتاب المسامير	»
أجزاء من كان ويكون	»
تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤	جورجى زيدان
.. الآداب العربية فى القرن ١٩	لويس شيخو
ــ الأدب العربى	أحمد حسن الزيات
ــ تطور الصحافة المصرية	ابراهيم عبده
. أعلام الصحافة	»
. زعماء الإصلاح	أحمد أمين
ــ الثورة العرابية	الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى
... عصر اسماعيل ج ١	»
ــ » » ج ٢	»
.. مجلة دائرة المعارف	البستانى
سلافة النديم	أحمد سمير
.. مذكراتى فى نصف قرن	أحمد شفيق باشا
... مذكرات عرابى باشا	كشف الستار عن سر الأسرار
... مصر للمصريين	سليم نقاش
. انجلترا فى مصر	مدام جوليت آدم
. أدب المقالة الصحفية	دكتور عبد اللطيف حمزة
. تاريخ مشاهير القرن ١٣ (٨)	أحمد باشا تيمور

— المعلوم والمجهول	ولى الدين يكن
Egypt under Ismail	Goon
— عبد الله النديم ومذكراته السياسية	دكتور محمد خلف الله
— تاريخ الأستاذ الإمام	محمد رشيد رضا

مجلدات الوقائع المصرية

— التاريخ السرى للاحتلال	ويلفرد بلنت
— خاطرات جمال الدين الأفغانى	محمد باشا المخزومى
— البحر الزاخر	محمود باشا فهمى
— سحر هاروت	سليم عنحورى

فهرست الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٥١٢٩

